شَرْقُ وغَرْبْ

الشيخ عبد الواحد يحيى



تنْوِيه

تعمل ترجمات 'تراث واحد One Tradition' على نقل آداب الحضارات العريقة فى الشرق والغرب إلى اللسان العربى، للذين تسمح ذائقتهم بالاستمتاع بأعمال الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى وجلال الدين الرومى، وغيرهما من حكماء العالم العربى والإسلامى، ويجدون سعادتهم فى قراءتها، وقد حضَّنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على طلب العلم والحكمة فقال: "طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ"، وقال أيضًا صلى الله عليه وسلم: "الْكَلِمَةُ الْحِكْمَةُ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ، فَحَيْثُ وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا".

وتعتبر هذه الأعمال التى نقدمها مفتاحًا لفهم الحضارات الهندوسية والطاوية والبوذية واليونانية القديمة، من حيث جوهرها الذى تجلى به الله تعالى علينا جميعًا.

ولعل ما يُضفى هذه الأهمية الكبيرة على كتب هذه المدرسة أنها تتناول بشكل أساسى موضوعات خمسة، هى علم الحقيقة أو ما وراء الطبيعة، والعقل المُلهَم، والتصوف المعرفى، والأديان مِن حولنا، ومشكلات العالم الحديث.

وهذه الأفكار والموضوعات بمركزيتها تستحق أن تخرج إلى اللسان العربى فى ترجمات شتى، لما قد يحمله ذلك من إيضاح وتفسير لها، وعونًا للقارئ على فَهم ما صَعُبَ منها.

ونأمل بترجمتنا تلك أن نكون قد نقلناها إلى مهدها القديم، وحاضنتها الأولى وهى اللغة العربية التى ألهمت أجيالًا من الأولياء والعارفين على مدار قرون عدة.

أخيرًا، ورغم ما بذلناه من جهد وعناية فى مراجعة نصوص هذه الكتب، إلا أننا نلتمس مقدَّمًا من القارئ الكريم العذرَ فى النزر مِن الخطإ الذى قد يكون تفلَّت منَّا سهوًا، فصادفه هنا أو هناك بين صفحاتها.

المحتويات

تّنويه 2
أوهامٌ غربيَّة.. 5
الحَضَارَةُ والتَقَدُّم 6
خُرَافَةُ العِلْم.. 18
خُرَافَةُ الحَيَاة.. 35
إرْهَاب وهمي ومَخَاطِر حَقيقِيّة 47
كَيفَ يُمكِنُ تَجَاوُزُ الاخْتِلافِ.. 58
مُحَاوَلاتٌ لَم تُثْمِر.. 59
الاتّفَاقُ عَلَى المَبَادئ.. 73
تَكوينُ الصفوةِ ومُهِمَّتِها.. 84
لِيسَ اندِمَاجًا بَل فَهْمٌ مُتبادَلٌ 95
خُلاصَة 107
تعقيب.. 114
كشّافُ الأعْلامِ والمُصْطَلَحَات.. 116

أوهامٌ غربيَّة

1

الحَضَارَةُ والتَقَدُّم

تبدى الحضارة الغربية فى التاريخ كحالة شاذة، فهى الوحيدة من بين الحضارات التى نعرفها جيدًا قد تطورت على نحو مادى بحت، وتزامنت بداية هذه الحضارة الوحشية مع ما يسمى 'النهضة'، وقد واكبها تدهور فكرى يناظرها كما كان مقدرًا لها على الحقيقة، ونقول 'يناظرها ' لا 'يساويها ' نظرًا لاختلاف مقام كل منهما عن الآخر، وليس بينهما معيار مشترك للمقارنة، وقد بلغ هذا التدهور فى الغرب الحالى درجة لم يعد الغربيون يعلمون فيه شيئًا عن 'البصيرة *Intellect* ' حتى إنهم يعجزون عن اكتناه وجود أمر من هذا القبيل، وكان ذلك سببًا فى استخفافهم بالحضارات الشرقية وكذلك بحضارة العصر الوسيط الأوروبية، والتى أفلت معناها منهم تماما. فكيف يتأتى لقوم أن يهتموا بالمعرفة التأملية فى حين أن ذكاءهم لم يعد إلا وسيلة للتعامل مع المواد لأغراض عملية، وأن العلم فى أفهامهم المبتسرة لا يهم إلا بمدى استخدامه فى التطبيقات الصناعية؟ ونحن لا نبالغ فى شىء، فلا يحتاج الأمر إلا إلى نظرة فيما حولنا لندرك أن هذه هى العقلية التى يتمتع بها السواد الأعظم من معاصرينا. ونظرة أخرى إلى الفلسفة منذ فرانسيس بيكون و ديكارت ومن جرَّ جرَّهما سوف تؤكد هذا الانطباع. وسوف نقول على سبيل التذكرة أن ذكاء ديكارت المحدود بالعقلانية جعله يصف ما يسمى 'ميتافيزيقا ' بأنه مجرد خلفية للفيزيقا، وأن هذه الفيزيقا ذاتها مُقَدَّرٌ لها حسب رأيه أن تمهد الطريق إلى علوم تطبيقية ميكانيكية ودوائية وأخلاقية، وهى الغاية الأقصى للمعرفة الإنسانية ومناطها. أليست الميول التى أشاد بها هى ذاتها التى رأيناها فى النظرة الأولى تشخيصًا لحال التقدم الغربى؟ ويربو إنكار أو تجاهل كل ما تعلق بالمعرفة فوق العقلانية إلى فتح الباب للوضعية المنطقية واللاأدرية التى تحتبس فى أضيق حدود الذكاء وغاياته، وكذلك للنظريات 'العاطفية *sentimental*' و'الإرادية *voluntaristic* ' التى تبحث محمومة فيما ' تحت العقلانية *infra-rational* ' عما منعته العقلانية عنهم. والحق أن الذين يرغبون فى التمرد على العقلانية يسلمون فى الوقت ذاته بالتماهى الكامل بين الذكاء ومجرد العقلانية، ويعتقدون أنها لا تربو عن ملكة عملية

صرفة تعجز عن الذهاب إلى ما وراء نطاق المادة. وقد كتب برجسون ما يلى 'ويبدو الذكاء مما يمكن أن يكون صفاته الأصولية هى ملكة اصطناع المصنوعات، وخاصة الآلات التى تصنع آلات وصناعات لا تحصى'[1]، ويقول كذلك 'وحتى لو لم يعمل الذكاء على تحقيق غاياته 'ويقصد المادة الغفل ' فسوف يتبع عادات لصيقة بهذا التحقيق، وينتج صوراً تشاكل المادة المشوشة، وهو مجبول لهذا النوع من العمل، وهذا العمل وحده هو ما يجعله راضياً تماما، وما يعبر عنه الذكاء ليس إلا التميز والوضوح'[2]. وتبرهن السمات المشار إليها على أنه ليس فيها عن الذكاء ذاته شيء، ولكنها المفهوم الديكارتى للذكاء فحسب، وهو أمر مختلف تماما، و' الفلسفة الحديثة ' كما يسميها نشطاؤها تُبَدِّلُ خرافة العقلانية بخرافة أوعر منها هى 'خرافة الحياة'. ورغم أن العقلانية لا تملك الوصول إلى الحقيقة المطلقة فقد سمحت على الأقل بوجود الحقائق النسبية، وقد بخست حدسية هذه الأيام قدر الحقيقة التى قالوا عنها إنها لا تعدو شطراً غامضًا من الحقيقة المحسوسة، ونجحت 'الذرائعية *pragmatism* ' بكل تناقضاتها وتغيراتها التى لا تنفد فى استبعاد الحقيقة وإخفائها بإقامة وثن النفعية، وهو ما يربو إلى خنق الحقيقة بوضوح وبساطة. وربما اختزلنا الأمور هنا بعض الشيء إلى رسم تخطيطى ولكننا لم نزيفها على الأقل، وأيًّا كانت المراحل الوسيطة التى أشرنا إليها فإن الذرائعية قد بينت بشططها أنها الممثل المعتمد للفكر الغربى الحديث، فما قيمة الحقيقة فى عالم ينحصر رجاؤه فى الماديات والعواطف، ولا يتطلع إلا إلى الصناعة والأخلاقيات، وهما مجالان يمكن للمرء أداؤهما على منوال مُرضٍ دون إدراك الحقيقة؟ ولا جدال فى أن هذه المرحلة لم تُبلَغَ فى خطوة واحدة. ويحتج كثير من الأوروبيين بأنهم لم يصلوا إليها بعد، ولكن يخطر لنا الأمريكيون على الخصوص، والذين بلغوا شأوًا من 'التقدم ' فى الحضارة ذاتها ، فأمريكا الحديثة ليست إلا 'أقصى الغرب *far West* ' من الناحيتين العقلية والجغرافية، وسوف تتبعها أوروبا نعلاً بنعل بلا أدنى شك لو لم يحدث أمر يوقف النتائج التى يحبل بها الوضع الراهن للأمور.

ولكن ربما كان أغرب ما فى الأمور ادعاء أن هذه الحضارة مثال أعلى لكل الحضارات قاطبة، واعتبارها 'الحضارة ' بلا منازع حتى إنها الوحيدة التى تستحق هذا الاسم. وما يَغْرُبُ أيضًا ليكمل ذلك الخيال هو الاعتقاد بالمطلقية والطبيعية ذاتهما فى وهم 'التقدم ' الذى يعتبرونه متماهياً مع النمو المادى الذى يلتهم الغرب الحديث. ومن العجب أيضًا أن تنجح

[1] *Creative Evolution, p146, in English translation of Arthur Mitchell.* ، وتَرجمَه إلى العربية د. محمود قاسم بعنوان ' التطور الخالق ' ، دار المعارف.

[2] المرجع نفسه *p169.*

أفكار بعينها فى الانتشار وفرض ذاتها شرط أن تتناظر مع ميولٍ عامة فى مناخ أو حقبة زمنية، وهذه هى الحال فى فكرتى ’الحضارة ‘ و’ التقدم ‘ التى يعتقد معظم الناس بكُليتهما وجوهريتهما، فى حين أنهما مخترعات حديثة، ويعيش أكثر من ثلاثة أرباع العالم إما بتجاهلها أو إهمالها، وقد لاحظ جاك بينفيل ما يلى:

لو كان فعل *civilize* واردًا عند أفاضل كتّاب القرن الثامن عشر فإن اسم *civilization* لم يرد إلا فى أدبيات الاقتصاديين فى الأعوام القليلة التى سبقت الثورة الفرنسية. ويقتبس *Littre* مثالاً من *Turgot*، وقد كان ليترى هو الذى استعصر اللغة الفرنسية بكاملها إلا أنه لم يجد لهذا الاسم وجودًا قبل قرن ونصف، ولم يجد الاسم موضعًا فى قاموس الأكاديمية إلا عام 1835... كما أن الأقدمين اللذين لا زلنا نمتاح منهم أصولنا لم يحتكموا على مصطلح بالمعنى الذى نقصده حاليًا بكلمة حضارة. ولو تُرجمت هذه الكلمة إلى النثر اللاتينيه فسيقع تلاميذ المدارس فى حيص بيص... فحياة الكلمة ليست مستقلة عن حياة الفكرة. وربما كان ذلك بموجب أن أسلافنا كانوا يعيشون الحال المقصودة بكلمة حضارة، والتى انتشرت فى أثناء القرن التاسع عشر بفعل أفكار جديدة. وقد فجرت أفكار مثل ’الاكتشافات العلمية ‘ و’تنمية التجارة‘ و’ الرفاهية المادية ‘ و’ الرخاء ’حماسًا بلغ حد ‘ التنبؤات‘. ويرجع مفهوم مصطلح ’التقدم المطرد ‘ إلى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، والذى عمل على إقناع بنى الإنسان أنهم على أبواب عصر جديد، ألا وهو عصر ’الحضارة المطلقة‘. وقد سقط ذكر فوريية *Fourier* أول من سمى العصر الحالى عصر الحضارة وماهى بين الحضارة والعصر الحديث... وهكذا أصبحت الحضارة هى درجة النمو والكمال التى بلغتها الحضارة الأوروبية فى القرن التاسع عشر، ورغم أن كل الناس يفهمون مصطلح الحضارة إلا أنه لم يفكر فى تعريفه أحد، وينطوى على التقدم المادى والأخلاقى جنبًا إلى جنب، حيث التصق أحدهما بالآخر بلا فراق، أى إن أوروبا كانت الحضارة ذاتها، وكانت الحضارة لافتة أسبغها العالم الأوربى على ذاته[3].

وهذا ما نعتقده نحن أيضا، وقد كنا على وشك أن نزيد عليه إلا أنه أمر يطول لكى

[3] *L Avenir de la Civilization' , Revue Universe lie, March 1,1922, pp 586-587.*

نبرهن على أننا لسنا وحدنا على هذا الاعتقاد.

ويرجع مولد فكرتى ’الحضارة ‘ و’ التقدم ‘ إذن إلى النصف الثانى من القرن الثامن عشر، أى الحقبة التى شهدت مولد ’المادية ‘ وأمور غيرها[4]، والتى فشت بين الاشتراكيين الحالمين فى بداية القرن الثامن عشر. ولا جدال فى أن تاريخ الأفكار يؤدى أحيانًا إلى مشاهدات مدهشة ويعين على اختزال أفكار خيالية بعينها إلى ما تستحق، وقد يؤدى إلى أكثر من ذلك لو لم تزيفه تحيزات التفاسير أو تهافت الجهود الدراسية إلى بحوث لا غاية لها فى مسائل تفصيلية. وقد يهدد التاريخ الحقيقى مصالح سياسية، وقد يكون من العجب ألا يكون ذلك هو السبب الذى حدا بالتعليم إلى تبنى مناهج بعينها تبدأ بمحو كل ما من شأنه أن يوضح أمورًا بعينها، وهكذا يتشكل ’الرأى العام‘. ولكن لنعد إلى الفكرتين اللتين كنا بصددهما، ولنقل بوضوح تامٍ إن مرجعيتهما التى تعود إلى وقت جد قريبٍ تجعلنا نفكر فى تلك التفاسير المطلقية والوهمية التى تُضفَى عليهما اليوم. وأما عن المعانى النسبية التى يمكن أن تُستخدَم الكلمتان للتعبير عنها فهى موضوع آخر، وحيث إن المعنى مشروع تمامًا فلا مجال هنا للأفكار التى تأصلت فى برهة محددة، ولا يهم ما إذا كانت قد ظهرت بصورة أو بأخرى، فلو كان الاصطلاح مناسبًا فليس ذلك بسبب كونه اختراعًا حديثًا نرى سوءات استخدامه. وهكذا لا نتردد فى القول بأنه كان ولا زال هناك ’حضارات ‘ مختلفة، وسيكون من الصعب تعريف هذه العقدة التى انعقدت بين عناصر من مجالات مختلفة تشكل فيما بينها ما يسمى الحضارة، ولكن يعلم الكافة ما يُفهَم منها رغم ذلك. ونحن حتى لا نظن أن من اللازم أن نحاول صوغ صيغة جامدة لوصف الخصائص العامة للحضارة ككل، فهى عملية اصطناعية بدرجة ما، ونحن لا نطمئن إلى تلك ’الخنان *pigion-halls* ‘ التى يستمتع العقل المنظومى بالوقوع فيها. فكما أن هناك ’حضارات‘ هناك كذلك ’تقدم‘ على أطوار تلك الحضارات أو على فترات محدودة فى سياق تطورها، ولم يؤثر إلا على مجالات محدودة فى جانب أو آخر لكنه لا يؤثر على كل شىء بلا هوادة، والحق أن تلك طريقة للقول بأن الحضارة تمو نحو اتجاهات بعينها، فكما يكون فيها تقدم على تلك الاتجاهات يتمخض عنها ’تخلف‘ فى باقى الاتجاهات المُهْمَلَة، وأحيانًا ما يواجه أحدهما الآخر فى الوقت ذاته فى مجالات متنوعة. ونتمسك إذن بأن كل ذلك نسبى بلا جدال، فلو أن

---

[4] وقد صيغت كلمة ‘ مادية ‘ على يد بيركلى الذى كان يعنى بها الاعتقاد فى حقيقية المادة ، أى المذهب المادى بمعناه الحديث ، وهو النظرية التى تدَّعى أنه لا وجود لشىء إلا المادة ، والتى قال به *La Mettrie* و *Holbach;* ، ولا يصح خلطها بالآلية *mechanism*، والتى كان الأقدمون يحتكمون على أمثلة عدة منها.

الكلمات ذاتها قيلت بمعنى مطلق فلن تناظر أية حقيقة كانت، وهنا تمثل تلك الأفكار الجديدة التى لم تعش فى الغرب أكثر من مائة وخمسين عامًا فحسب. ولا شك أن كتابة ’التقدم‘ و’الحضارة‘ بحروف غليظة قد تكون فعالة فى بعض العبارات الخطابية الجوفاء التى تناسب الغوغاء، حيث تحتل الكلمات فيه موضع الأفكار ولا تعمل كأدوات للتعبير عنها. وهكذا لعبت هاتان الكلمتان أهم الأدوار فى ترسانة الصيغ الجاهزة التى يلجأ إليها ’أصحاب النفوذ‘ اليوم حتى ينجزوا مهمتهم الغريبة فى الإيحاء إلى الجماعات، والتى لن تعيش الخصائص لعقلية العصر الحديث طويلاً بدونها. ونعجب فى هذا الصدد ما إذا كان التشاكل بين هؤلاء الخطباء وبين المنوِّم المغناطيسى أو مروض الوحوش قد صادف انتباها، وهاهنا موضوع آخر لتأمل النفسانيين رأينا أن نلفت أنظارهم إليه فى الطريق. ولا شك أن قوة الكلمات قد كانت فعالة فيما خلا من أزمان قبل زماننا، ولكن ما لم نرَ له مثيلاً هو هذه الهلوسة الجمعية الجبارة التى أدت بهذا القسم من الإنسانية إلى الأخذ بتفاهة غرور الوهم وترك الحقائق الثابتة التى لا تُدحض، وربما كانت الكلمتان المقصودتان من بين أشد تلك الأوثان خبثًا فى العبادة الحديثة.

ونعود ثانية إلى مولد فكرة التقدم، أو بالحرى التقدم المطَّرِد حتى نستبعد أشكالاً محددة من التقدم نأنف عن تناولها. وربما كان فى أدبيات باسكال أولُ أثرٍ لهذه الفكرة، والتى انطبقت على منظور واحد فحسب فى الفقرة الشهيرة[5] التى شبَّه فيها الإنسانية ’برجل واحد عاش على الدوام وتعلم طوال قرون ‘، ويبرهن فيها على وجود روح لا تراثية فى خصائص الغرب الحديث، وأعلن أن ’أولئك الذين نسميهم بالقدماء كانوا مجددين فى كل شىء‘ وأن آراءهم بالتالى لا وزن لها، وقد كان هناك فى هذا الصدد سابقة واحدة قبل باسكال على الأقل حينما قال بيكون *Antiquitas saeculi, juventus mundi*.. ومن اليسير أن نرى السفسطة اللاواعية وراء هذا التعبير، فهو ينطوى على افتراض أن الإنسانية بأكملها قد تطورت فى الاتجاهات ذاتها، والتبسيط المخل فى هذا المنظور ظاهر للعيان، حيث إنها تناقض الحقائق المعروفة كافة. والحق أن التاريخ يبرهن على وجود حضارات غالبًا ما تتباعد عن بعضها، تلد بعضها وتنمو فى حين تضمر غيرها وتموت، أو أن تفنى بضربة واحدة وتنقضى بفعل جائحة ما، وأن الحضارات الجديدة لا تحفظ على الدوام تراث القديمة. فمن ذا الذى يخاطر بالدفع جديًّا بأن الغرب اليوم قد استفاد بشكل غير مباشر بما تراكم من معارف الكلدانيين أو المصريين، ناهيك عن بعض الحضارات التى وصلت أسماؤها فحسب إلينا؟ ولكن لا حاجة بنا إلى

[5] *Fragment of Traits du Vide*.

الذهاب فى أغوار الماضى، فهناك علوم قد عاشت ودُرِسَت فى العصور الوسطى للغرب لم يبق منها أثر يُذكَر. ولو كانت فكرة باسكال عن الإنسان الجمعى الذى أسماه خطأً 'الإنسان الكامل *universal man* ' سوف تبقى، فلا مناص من القول بأنه لو كانت هناك فترة قد تذكرها فهناك فترات نسيها، أو بالحرى إنه ينسى شيئًا حين يدرس شيئًا آخر، إلا أن الحقيقة أشد من ذلك تعقيدا، حيث إن هناك أمورًا متزامنة حيث وجدت حضارات لم يمكن أن تتخلل بعضها بعضًا وظلت مجهولة لبعضها بعض. والحق أن هذه حال الحضارة الغربية حيال الحضارة الشرقية. والحكاية أن أصل الأوهام التى عبر عنها باسكال قد نزعت إلى الظن أنها الوريث والحامل الوحيد للواء الحضارة اليونانية الرومانية القديمة، وإلى سوء فهم أو تجاهل كافة الحضارات الأخرى، وهذا ما نسميه 'التحيز الكلاسيكى'. والإنسانية التى يتحدث عنها باسكال تبدأ باليونانيين وتستمر فى الرومان ثم تنقطع انقطاعًا يناظر انقطاع العصور الوسطى، والتى لا يملك إلا أن يراها فترة سُبَاتٍ كأهل القرن السابع عشر، ثم تأتى 'النهضة ' أى اليقظة إلى تلك الإنسانية التى تألفت فيما بعد من الشعوب الأوروبية جميعا. وهى خطأ فاحش ينم عن أفق محدود عندما أخذت الجزء كُلا. وقد ترامى نفوذها على أكثر من مجال، فالنفسانيون على سبيل المثال عادة ما يقصرون مشاهداتهم على نوع واحد من الإنسانية، وهى الإنسانية الغربية الحديثة، ومن ثم تمُطُّ النتائج التى تحصلت عليها على الإنسانية كلها بلا هوادة.

ويجب أن نتذكر أن باسكال لم يتصور أمرًا سوى التقدم الفكرى فى حدود مفاهيمه ومفاهيم عصره عن الفكر، وقد ظهرت فكرة التقدم قبل نهاية القرن الثامن عشر مع تورجو و كوندورسيه الذى يمتد إلى كل فروع النشاط، وقد كانت هذه الفكرة فى حينها بعيدة عن التصديق حتى إن فولتير تهكم عليها. ولا نملك هنا أن نطرح تاريخ تطور هذه الفكرة إبان القرن التاسع عشر فى خضم تعقيداته العلمية الزائفة التى انخرط فيها بعنوان 'التطور *evolution* '، وقد سعى البعض إلى تطبيقها لا على الإنسان فحسب بل كذلك على عالم الحيوان برمته. وصار عقيدة رسمية رغم وجود اختلافات مهمة، وتناولها التعليم كقانون لا يقبل المناقشة، فى حين أنها من أحط الفرضيات قاطبة، وينطبق ذلك بداية على مفهوم التقدم الإنسانى، والذى صار اليوم مقبولاً على عواهنه رغم أنه لا يعدو حالة من أحوال 'التطور'. وقد صادفت شيئًا من نجاحٍ وشيئًا من فشلٍ قبل أن تصل إلى هذا الوضع، وفى خضم النشاط المحموم للتقدم لم يتورع البعض عن إبداء ملاحظات جدية، فقد أقرَّ أوجست كومت الذى بدأ حياته تلميذًا لسان سيمون بجواز أن يكون التقدم مطَّردًا فى الزمن ولكن ليس فى المكان، وعنده أن مسيرة

الإنسانية يمكن أن تمثل فى منحنى مخروط مقارب *asymptote*، يضمر باطراد. ولا أسهل من تبيين أن الاضطراب الذى كان خلفية لنظرية خيالية أسماها كومت ’قانون الأحوال الثلاثة ‘، وفحواها افتراض أن غاية كل المعرفة الممكنة هى تفسير ظواهر الطبيعة. وكان يشبِّه القدماء بالأطفال شأنه شأن بيكون وباسكال، وقد عكف الذين حاولوا تحسين التعبير مؤخرًا على تشبيههم بالوحوش ’البدائية ‘، إلا أننا نعتبرهم متخلفين فحسب[6]، كما أن هناك بعض من تحدثوا عن ’إيقاع التقدم ‘ بعد ملاحظة الصعود والهبوط فيما علموا من تاريخ الإنسان، وربما كان أبسط وأوثق منطقًا فى هذه الظروف أن نمتنع عن الحديث عن التقدم برمته، ولكن حيث إن العقيدة الحديثة للتقدم لا بد أن تبقى بأى ثمن، فيُفتَرَضُ أن يكون التقدم موجودًا كنتيجة نهائية لكل مناحى التقدم وكل جهات التخلُّف. وقد تصلح هذه التحفظات والخلافات غذاءً للتأمل إلا أن قليلاً من يعلمون، فالمدارس المختلفة لن تحقق بينها اتفاقًا متبادلاً، إلا أنه يبقى مفهومًا أن التقدم والتطور لا خلاف عليهما، ويبدو أن المرء يفقد بدونهما لقب ’الإنسان المتحضر‘.

ويجدر ملاحظة أننا لو فحصنا فروع التقدم المنشود التى يعرض لها الحديث حاليًّا فأيها كان نقطة البداية لغيره كما يتخيل معاصرينا؟ وسوف يتضح أنهما نقطتين فحسب، هما ’التقدم المادى ‘ و’ التقدم الأخلاقى‘. وهما الوحيدان اللذان ذكر جاك بينفيل أنهما كامنتان فى فكرة ’الحضارة ‘، ونعتقد أنه مصيب. ومن المؤكد أن هناك من لا زال يتحدث عن ’التقدم الفكرى ‘، ولكنهم يرادفون هذا الاصطلاح ’بالتقدم العلمى ‘، كما ينطبق أكثر من كل شىء آخر على تنامى العلوم التطبيقية وتطبيقاتها. وهنا يبرز إلى الضوء انحطاط الذكاء مرة أخرى، والذى يخلُص إلى تماهيه مع أحط استخداماته، وهى التجريب على المادة لغاية الأغراض العملية فحسب. ومن أجل التدقيق فإن ما يسمى ’التقدم الفكرى ‘ ليس إلا ’تقدمًا ماديا ‘، ولو كان الذكاء هو ذلك فحسب فلا بد من قبول تعريف برجسون للذكاء، والواقع أنه لا يتيسر إقناع معظم الناس بأن الذكاء أمر غير ذلك، فالمعنى الديكارتى للعقلانية ليس إلا أحط جوانب هذه العقلانية صلة بوظائفها الأولية، وكل ما بقى منها متصلاً بعالم الحواس الذى جعلوا منه المجال الوحيد لأعمالهم، أما الذين يعرفون أن هناك أمرًا آخر ويصرون على استخدام الكلمات بمعانيها

---

[6] ورغم نفوذ ‘ المدرسة الاجتماعية ‘ فهناك من يتفقون معنا فى ‘ الدوائر الرسمية ‘ حول هذه النقطة ، ونذكر منهم جورج فوكار *Georges Foucart,* الذى التزم نظرية التخلف فى مقدمة كتابه *Histoire des religions et Methode comparative* وذكر عديدا من روادها. وقد وجه فوكار نقدا لاذعا للمدرسة الاجتماعية ومناهجها ، وقد أحسن فى الإشارة إلى ‘ أن الطوطمية وعلم الاجتماع لا يصح أن يختلطا بعلم الإنسان الجاد *ethnology*‘.

الحقة فلا مجال للقول 'بتقدم فكرى ' بل بالحرى عن تدهوره، وكى نكون أكثر دقة نقول 'عن الخراب الفكرى' أنه ضريبة 'التقدم المادى'، حيث إن هناك طرقًا للتقدم لا تتقابس معها، وهو التقدم الوحيد الذى ظهر إبان القرون الأخيرة كحقيقة واقعة، ويجوز التحدث عنه باعتباره 'تقدمًا علميًّا ' ولكنه ليس إلا تقدما صناعيًّا أكثر منه علميًّا. والتقدم المادى يسير فى اتجاه معاكس للفكر البحت، فمن يستغرق فى أحدهما لا مناص من أن ينأى عن الآخر. ولا بد من مراعاة أننا نقول الفكر البحت وليس العقلانية، فليس نطاق العقلانية إلا وسيطًا بين نطاق الحواس ونطاق الفكر الأعلى، ورغم أن العقلانية تتلقى ضياءً منعكسًا من البصيرة حتى لو أَنكَرَت أو اعتقدت أنها أسمى ملكات الإنسان فإنها تستقى الأفكار بمرجعية الحواس. وبتعبير آخر فالغاية من العقلانية وبالتالى من العلم الذى نتج عنها ينبثق مما كان فرديًّا رغم أنها ليست من النطاق المحسوس الذى تدركه الحواس، فيمكن القول أنه فيما وراء الحواس ولكنه لا يعلو عليها، فالكلى *universal* فحسب هو مناط البصيرة البحت، أى إنه متعال حتى إن العام ذاته يتوحد مع الفردى. وهذا هو التمايز الأصولى بين المعرفة الميتافيزيقية والمعرفة العلمية، وقد عالجناه بتفصيل فى موضع آخر[7]. وننبه عليه هنا مرة أخرى نظراً لغياب الميتافيزيقا تمامًا والنمو الفوضوى للعلم اللذين أصبحا من السمات اللصيقة بالحضارة الغربية فى حالها الراهن.

ويمثل مفهوم 'التقدم الأخلاقى ' الأمر الثانى الذى يسود العقلية الغربية، أى العاطفية، ولن يجعلنا حضور هذا العامل نغير فتيلاً من حكمنا على الحضارة الغربية بأنها مادية صرف. ونحن نعلم أن بعض الناس يسعون إلى إظهار العاطفية كنقيض للمادية حتى يجعلوا من تقدم إحداهما توازنًا لتوسُّع الأخرى، ويعتمدون توازنًا مستقرًّا بقدر الإمكان بين العنصرين المتكاملين. وهكذا يعمل الفكر الحدسى *intuitionism* الذى يربط بين الذكاء والمادة برباط لا ينفصم يأمل فى الخلاص منه بعون غريزة غامضة التعريف، وهذا هو فكر الذرائعية *pragmatism* على وجه اليقين، والتى جعلت المصلحة بديلاً عن الحقيقة، واعتبرت فيهما فى الآن ذاته من حيث الجوانب المادية والأخلاقية فحسب. ونرى هنا كذلك كيف تعبر الذرائعية بالكمال والتمام عن العالم الأنجلو ساكسونى، وهو أحد الأقسام التى تمثلها تمثيلاً تامًّا. والحق أن المادية والعاطفية لا تناقض بينهما، ولا تكاد توجد إحداهما بدون الأخرى، وتحققان جنبًا إلى جنب أقصى نموٍّ لهما، ويقوم برهان ذلك فى أمريكا، وقد سنحت لنا فرصة للتنويه عنه فى كتبنا عن الثيوزوفية والروحانية، فقد عاش أسوأ إسراف روحى زائف فسادًا بسهولة مذهلة

[7] مُدخل عام إلى فهم النظريات التراثية ، ج 2 ، باب 5.

أثناء وصول التصنيع وهوس 'الأعمال *business* ' إلى أعلى سمت لهما بما يقارب الجنون، فحين تبلغ الأمور هذا الحال فليست المسألة إذن توازنًا بين ميل وآخر ولكنها اندفاع لخلل توازن مضاعف يدفع أحدهما الآخر بدلاً من أن يوازنه. ويبدو سبب الظاهرة فى اختزال البصيرة إلى الحد الأدنى، فيصبح من الطبيعى أن تتولى العاطفية القياد، والعاطفة ذاتها بالغة الدنو من المرتبة المادية، فليس فى كل ما تعلق بعلم النفس إلا ما اعتمد على الجسد. ومن الواضح رغم أنف برجسون أن العاطفة هى التى ترتبط بالمادة وليس العقل. وقد يقول الحدسيون *intuitionists* إن الذكاء كما يفهمونه مرتبط بالمادة اللاعضوية، وهى الآلية الديكارتية على الدوام واشتقاقها الذى يحسبون، وتتعلق العاطفة بالمادة الحية التى تبدو عندهم أرفع شأنًا بموازين الوجود. ولكن سواءً أكانت حيَّة أم لاعضوية فهى المادة على الدوام، ولا يمكن أن يوجد فى نطاقها سوى ما كان محسوسا، ولا مهرب للعقلية الغربية والفلاسفة الذين يمثلونها من هذا التحديد. ولو استمر الإصرار على أننا نتعامل مع ميلين مختلفين فلا مناص من أن يكون أحدهما المادة والآخر الحياة، وقد يكون هذا التمايز طريقة مرضية لتصنيف الخرافات العظمى لزماننا، ولكننا نكرر القول أن كليهما ينتمى إلى المقام ذاته، ولا يمكن فصلهما عن بعضهما، فهما على المستوى ذاته، وليست علاقتهما هيكلية متراتبة، ويتبع ذلك أن 'أخلاقية'[8] معاصرينا ليست على الحقيقة إلا المكمل الضرورى للمادية العملية، وسوف يكون وهمًا محضًا لو سعينا إلى رفع أحدهما على حساب الآخر، فهما يسيران نعلاً بنعل ويتورَّمان بالتزامن فى الاتجاه ذاته، وهو ما يسمى بالاتفاق العام 'حضارة'.

وقد رأينا لماذا لا ينفصم 'التقدم المادى ' عن 'التقدم الأخلاقى '، وأن كليهما يجثم على أنفاس معاصرينا على حد سواء. ونحن لم نلاح فى وجود 'التقدم المادى ' بأى شكل كان، ولكننا نحتج على أولويته، والتى ندفع بأنه لا يساوى الخسارة الفكرية التى تسبب فيها، ولا يمكن التفكير بغير ذلك إلا لو كان المرء جاهلاً بالفكر الحق. ونأتى الآن إلى السؤال عن حقيقة 'التقدم الأخلاقى '، وهو موضوع يستحيل الجدل فيه بجدية، ففى نطاق العواطف يعتمد كل شىء على الذوق الفردى والأفضليات، فكل امرئ يسبغ صفة 'التقدم ' على ما يوافق ميله وهواه حتى يستحيل القول بصحة أيهما. والذين تتفق ميولهم مع ميول زمنهم سيسعدون بالحال الراهن له، وهذا ما يعبرون عنه بقولهم إن هذه الحقبة قد تقدمت عما سبقها، ولكن غالبا ما

---

[8] ونقول ' مادية عملية *practical materialism* ' لوصف ميل منهما وتمييزه عن ' المادية الفلسفية *philosphic materialism* ' والتى لا يعتمد عليها هذا الميل بالضرورة.

يكون رضاهم العاطفى هذا نسبيًا فحسب، إذ إن سياق الأحداث لا يسير دائمًا على ما يرومون، ولذا يرون إمكان التقدم فى حِقَبٍ لاحقة. وأحيانًا ما تخدع الظواهر الذين يعتقدون بحقيقة 'التقدم الأخلاقى' حسب الفهم السائد له، ولكنهم لا يفعلون أكثر من تعديل مُثُلِهم إلى مستقبل أبعد بعض الشيء، فهم كذلك مجبرون على الزحف من مشاكلهم بالحديث عن 'إيقاع التقدم'. أضف إلى ذلك أنهم يكافحون لكى ينسوا الدرس الذى لقنته التجربة، وهذا حال الحالمين الذين يحلمون فى كل حرب جديدة أن تكون آخر الحروب. والاعتقاد بالتطور المطّرد ليس إلا أغبى وأغلظ 'تفاؤل' أيًّا كانت صورته، فهو من أصل عاطفى حتى لو تطرق إلى الحديث عن 'التطور المادى'. ولو احتج البعض بأننا اعترفنا بوجود تطور مادى فإننا فعلنا ذلك بموجب ما تتطلب الوقائع، وهو ما لا يعنى بحالٍ تفويضًا له حتى يستمر فى مساره بلا نهاية، زد على ذلك أننا لا نظن أنه أفضل شيء فى العالم، فبدلاً من تسميته بالتقدم يجوز أن نسميه النمو، ولا تزعجنا كلمة التقدم ذاتها بقدر ما يزعجنا ارتباطها بفكرة 'القيمة' التى أصبحت لصيقة بها بلا هوادة. ويُؤدى بنا هذا لأمر آخر، وهو واقع ما يكتسى بتعبير 'التقدم الأخلاقى' الذى يغذى الوهم بها، وهذا الواقع هو نمو العاطفية التى تعيث قطعًا فى العالم الحديث أحببنا أم كرهنا، كما تعيث أيضًا بلا مراء نمو الصناعة والتجارة، وقد عالجنا سلفًا لماذا لا يسير أحدهما مع الآخر، وهذا النمو فى نظرنا متزيدٌ وغير طبيعى، ولن يُقصِّر فى أن يتبدى تقدمًا فى عيون الذين يضعون المشاعر فوق أى شيء آخر، وربما أمكن القول أننا قد سلبنا من أنفسنا الحق فى دحضه بموجب الأفضليات، ولكننا لم نفعل شيئا من هذا القبيل، وما قلناه سلفًا ينطبق على العاطفة وحدها فى تنوعها من فرد لآخر، ولو وضعت العاطفة فى موضعها الصحيح بالنسبة إلى الذكاء فسيختلف الحال تمامًا، فسوف يُراعى تراتُب المقامات. وقد قلب العالم الحديث العلاقات الطبيعية بين المقامات المتراتبة للأمور، ونقول مرة أخرى إن ذلك بخس للمقام الفكرى أو حتى مقام الاستبصار المحض، وهو زخم فى الآن ذاته لرفع مقام المادة والعاطفة، وهما ما يجتمعان كى يصوغا الحضارة الغربية الشاذة إن لم نقل الوحشية.

وقد كان ذلك ما بدت عليه الأمور بلا انحياز، وكانت هذه هى الطريقة التى ينظر بها أعظم حكماء الشرق إليها دون تحيز، فالتحيز على الدوام أمر عاطفى لا فكرى، ومنظورهم فكرى بحت. ولو كان الغربيون يجدون صعوبة فى فهم هذا المسلك فذلك لأنهم رهينة ميولهم التى تحضهم على الحكم على الآخرين بالقياس إلى أنفسهم، ويعزون إليهم أوجاعهم ويفرضون عليهم طرقهم فى التفكير ويحبسونهم فى آفاقهم العقلية الضيقة حتى إنهم فشلوا تمامًا فى إدراك المفاهيم

الشرقية. وليس ذلك الفشل متبادلاً، فحينما يواجه الشرقيون العلم الغربى وحين لا يمانعون فى بذل جهد لذلك فلا صعوبة عندهم على الإطلاق فى تفهم فروعه وخصائصه، إذ إنهم تعودوا على رؤيةٍ أرحبَ وتأملٍ أعمق، ومن يقدر على الكثير يستطيع القليل. ولكنهم عمومًا لايعانون من إغراءٍ لتكريس أنفسهم له، فعندهم أن العلم الغربى أمر لا قيمة له، وقد يجعلهم يقدمون على إهمال الأمور التى يرونها جوهرية. فالعلوم الغربية تحليل وتشتيت، والمعرفة الشرقية تركيب وتركيز، ولكننا سوف نعود إلى هذه النقطة. وعلى كلٍّ فما يسميه الغربيون حضارة سوف يسميه الشرقيون بربرية، ذلك أنها فاقدة الجوهر، أى دون أى مبدإ من مقام أعلى. فبأى حق يفرض الغربيون على الجميع ما يحبون وما يكرهون؟ ثم إنهم لا يجب أن ينسوا أنهم أقلية بين البشر فى العالم، وهذا البرهان الرقمى لا يعنى شيئا فى نظرنا، ولكن له بالضرورة معنى فى نظر من اخترع ’حق التصويت الشامل *universal suffrage* ‘ وآمن بكفاءته. ولو كانوا يسعدون بتوكيد تميزهم الوهمى فإن الوهم سينقلب عليهم، ولكن أخبث مثالبهم جلافة هى حمى البروزيليتية، وتتجسد فيهم روح الغزو فى إهاب ’الأخلاقية ‘ باسم ’الحرية *liberty* ‘، ويحاولون إجبار العالم كله على الاعتقاد به. ومن أغرب الأمور أنهم يتصورون حقًّا أنهم يتمتعون بسمعة طيبة بين الشعوب لأنهم قوة غاشمة، ويعتقدون أن العالم معجب بهم، فعندما يسحق انهيار هائل شخصًا فهل يعنى ذلك أنه سُحِق إعجابًا بهول الانهيار؟ والاختراعات الميكانيكية على سبيل المثال من أشد الأمور التى تترك عند الشرقيين انطباعًا عميقًّا بالتقزز، فضررها يبدو عندهم أكبر من نفعها، ولو وجدوا أنفسهم مضطرون إلى استعمالها فهم يستعملونها على مضض وأمل فى خلاص قريب، فلا تثيرهم هذه الأشياء ولن تثيرهم أبدًا، وما يسميه الغربيون تقدمًا لا غاية له إلا التغير وعدم الاستقرار، ويرون الاحتياج إلى التغير الذى ينتاب الزمن الحديث بمثابة برهان على الدونية، فلماذا يسعى من بلغ حال التوازن إلى التغير والخلل، تمامًا كما يتوقف المرء عن البحث عما وجد، ويصعب فى هذه الأحوال على الحقيقة أن يفهم الغرب الشرق، حيث تدفع الوقائع نفسها بتفسير مختلف تمامًا لكل جانب على حدة، فماذا لو عَنَّ للشرقيين أن ينتهجوا نهج الغرب واستخدموا طرائقه ووسائله فى فرض منظورهم الشرقى؟ ولكن لنطمئن إلى أن ذلك لن يحدث لأنه مناقض لطبيعتهم بأشد مما تناقضها الدعاية، فهذه الاعتبارات غريبة عليهم تمامًا، ويتركون الآخرين يظنون ما يظنون دون صلصلة ’بالحرية ‘، ولا يأبهون لما يَظُن الناس عنهم، وجُلُّ مرادهم أن يُترَكوا فى سلام، ولكن هذا بالضبط هو ما لا يسمح به الغربيون، ويجب أن نتذكر أنهم هم الذين سعوا إلى الشرقيين فى ديارهم، وتهجموا عليهم بطرق

تثير أشد الناس مسالمة. وهكذا تواجهنا الأوضاع الراهنة التى لا تملك أن تستمر بلا نهاية، وليس هناك إلا طريقًا واحدًا للغرب ليخفف من وطأته، وهى أن يستخدم اللغة المعتادة للسياسة الاستعمارية، وأن ينبذ فكرة 'الهضم *assimilation* ' ويسعى إلى 'الترابط *association* ' فى كل المجالات، وسوف يكون ذلك وحده تعديلاً لعقلياتهم، وفهم أمر أو أمرين من الأفكار المطروحة.

2

خُرَافَةُ العِلْم

تدَّعى حضارة الغرب ضمن ادعاءاتها أنها ’علمية ‘ بلا منازع، ويحسُنُ أن نوضح شيئًا يعين على فهم هذا المصطلح، ولكن ليس على منوال ما يجرى عادة، فهو أحد الكلمات التى يعزو إليها معاصرونا قوة غامضة لا رابط لها بمعناها. ’فالعلم *Sceince* ‘ شأنه شأن ’التقدم *Progress* ‘ و’ الحضارة *Civilization* ‘ هى كيانات يحسن أن تبقى بلا تعريف مثل ’الحق *Right* ‘ و’ العدل *Justice* ‘، وإلا فقدت نفوذها بمجرد فحصها عن قرب. وهكذا نجد أن ما سمَّاه الغرب ’انتصارات ‘ يفخر بها العالم الحديث ليست إلا قعقعة كلمات جوفاء تُكتَب بخطوط عريضة لا معنى وراءها، أو هى مجرد أمور لا قيمة لها، وقد سميناها ’إيحاءات جمعية *collective suggestions* ‘، فلا يمكن أن تكون الأوهام التى لقَّت رؤوس كثيرٍ من الناس أمرًا تلقائيًّا. وربما حاولنا فيما بعد إلقاء ضوء على هذا الجانب من المسألة، ولكنها ليست الآن مما نهتم ببيانه مباشرة، فنحن نلاحظ فحسب أن الغرب الحديث يؤمن بالأفكار المذكورة لو كان يمكن أن تسمى أفكارًا، فهى ليست كذلك بالمعنى الصحيح، إذ إن كثيرًا من الذين يجأرون بها بحماس واعتقاد ليس فى رؤوسهم أمر واضح يناظرها، والواقع أنه ليس فيها إلا التعبير عن أمانى عاطفية غامضة. وهذه هى الأوثان التى يعبدونها فى شكلٍ من أشكال ’دين العوام ‘ الذى لم يجر تعريفه، وهو أمر يستحيل إلا أن له وقعًا ووجودًا حقيقيًّا، وليس دينًا بالمعنى الصحيح ولكنه يحاول أن يحل محله، ويستحق أن يُسمى ’الدين المضاد *counter-religion*‘. وترجع أصول هذه الحال إلى بداية الحقبة الحديثة حين فشت الروح المناهضة للتراث فى ادعاء ’حرية الفكر *free inquiry* ‘، أى إنكار مقام المبادئ المذهبية وما يعلو على الآراء الفردية. وقد كانت الفوضى الفكرية نتيجة محتومة لهذا المسعى، ومن هنا تفشَّت طوائفُ أديانٍ زائفةٍ ونظمٍ فلسفيةٍ تبتغيا الفرادة بدعوى ’الأصالةِ ‘، ونظرياتٍ علميةٍ مغرورةٍ زائلة، أىٍ باختصار فوضى يصعب تصديقها إلا أنها محكومة بوحدة بعينها تمثل فى المنظور الحديث الذى يقبع وراءها جميعًا، وهو ليس إلا حالة غياب المبادئ التى تعبر عنها اللامبالاة بالحقيقة، والباطل الذى بدأ تفشيه منذ بداية القرن الثامن عشر الذى أطلقوا عليه ’التسامح *tolerance*‘. ولنبين ثانيًا معنى القول، فلسنا

نبوى لوم التسامح العملى للأفراد، ولكننا نلوم على التسامح النظرى الذى يدَّعى أنه قابل للتطبيق على كل الأفكار بلا هوادة، والاعتراف بالحقوق ذاتها للجميع بلا تمييز، وهو منطقيًّا ما يعنى تجذُّرَها فى مبدإ الشك *skepticism*. زد على ذلك أننا لا نملك إلا ملاحظة أن كل الإعلاميين *propagandists* الذين يُعَدُّون حواريى التسامح هم أقل الخلق تسامحًا، وهذا ما حدث واقعيًّا بشكل يبعث على السخرية، فالذين أرادوا الإطاحة بكل العقائد قد خلقوا لأنفسهم عقيدة جديدة، ولكنها عقيدة كاريكاتورية شوهاء نجحوا فى فرضها على العالم الغربى برمته، وتأسست تحت شعار 'حرية الرأى *freedom of thought* ' طغمة من أشد العقائد خرافية فى الأزمان كافة تحت قناع تلك الأوثان المتنوعة، والتى تناولنا بعضها فيما سلف.

وقد كان 'العلم ' و' العقلانية ' من بين الخرافات التى روجها الذين يدعون أنهم لن 'يتهاونوا مع الخرافات '، وقد يبدو من الوهلة الأولى أن العلم والعقلانية لا يقومان على العاطفة، إلا أن هناك نوعًا من العقلانية يتنكر فى الكيفية التى يرفعها بها سدنتها، والكراهية التى يكنونها لكل ما لا يوافق ميولهم أو ينبو عن مطال أفهامهم. وحيث إن العقلانية تناهز اختزال دور الفكر فمن الطبيعى أن تنمو مع العاطفية صاعًا بصاعٍ، وقد نوهنا عن ذلك فى الباب السابق، ولكن كليهما يمكن أن يُشَبَّه عند البعض بتيارات فكر بعينه بموجب الاصطلاحات القصرية المنظومية التى تتزيا بها، والتى قد تناقِضُ بعضها بعضًا، وهو ما يخفى الزمالة الأصولية بينها عن نظر المراقب السطحى. وقد بدأت العقلانية الحديثة مع ديكارت رغم سوابق لها فى القرن السادس عشر، ويمكن تتبع آثارها فى الفلسفة الحديثة برمتها فى النطاق الذى يوصف بالعلمى بالدرجة ذاتها. وتقدم لنا ردود فعل الحدسيين و الذرائعيين على هذه العقلانية مثالاً لأحد تلك الصراعات، وقد رأينا سلفًا أن برجسون قد اعتنق التعريف الديكارتى للذكاء بالتمام، وليس الجدل حول طبيعة الذكاء بل حول مقامه وأولويته فحسب. وقد طرأ فى القرن الثامن عشر أيضًا نزاع وعداوة بين عقلانية الموسوعيين وبين عاطفية روسُّو، غير أن الفريقين أسهما بالقدر نفسه فى دفع الحركة الثورية، وهو ما يبين أن جذور كلٍ منهما ضاربة فى الوحدة السلبية للمنظور المضاد للتراث. ولو ذكرنا هذا المثل فيما تعلق بما سبقه فليس ذلك بغاية عزو دافع سياسى خفى إلى برجسون ولكننا لا نملك إلا التفكير فى استخدام الدوائر النقابية لهذا المثل خاصة فى إنجلترا، كما تفشى فى دوائر أخرى رفع راية الروح 'العلمية ' بتبجيل أكثر من ذى قبل. والحق أن أحد الألاعيب الكبرى للذين 'يحكمون ' عقلية العالم الحديث تتلخص فى تعتيق ترياق للعوام حينًا من العقلانية وحينًا من العاطفية وحينًا من كليهما معًا بحسب الحال،

وتبرهن مهارتهم فى حفظ التوازن بين الكفَّتين على أنهم يدافعون عن مصالحهم السياسية أكثر مما يحافظون على أفكار جماهيرهم. والحق أن تلك المهارة قد لا تكون محسوبة على الدوام، ولا رغبة لدينا فى التساؤل عن صدق أى عالم أو مؤرخ أو فيلسوف، فهم غالبًا مؤشرات وضوابط ظاهرة فحسب، ويمكن ضبطهم أو التأثير عليهم دون علمهم، إلا أن استخدام أفكارهم لا يناظر نواياهم على الدوام، وسوف يكون من المبالغة إلقاء المسئولية عليهم أو لومهم على نتائج لم يتوقعوها على المدى الطويل. ولكن بافتراض أن تلك الأفكار تتوافق مع أحد هذين الميلين فقد تُستَخدَم بطريقة مثل التى ذكرناها توًّا باعتبار حال الفوضى الفكرية التى غرق فيها الغرب، ويتم كل حَدَثٍ عن استغلال حالة الفوضى ذاتها بكل الطرق الممكنة إضافة إلى ما يسهم فى تغذية الهياج الفوضوى لتحقيق مخطط محدد، ولا نريد أن نبالغ فى الإصرار على ذلك ولكننا نجد من الصعب أن ننكص عنه، فلا نملك الاعتراف بأن جنسًا بأكمله قد أصيب بجنون دام طوال عدة قرون، ولا بد أن هناك رغم كل شىء أمرًا يضفى معنى على الحضارة الحديثة، ونحن لا نؤمن بالصدفة، كما أننا على يقين من أن كل ما يوجد لا بد من سبب لوجوده، وعلى الذين يعتقدون بغير ذلك أن يطرحوا هذه الاعتبارات جانبًا.

ولنعكف الآن على فحص الميلين الرئيسين للعقلية الحديثة، وسوف نؤجل البحث فى العاطفية لنعود إليها مرة أخرى، وسوف نتساءل عن ماهية ذلك 'العلم ' الذى افتُتِنَ به الغرب؟ ويلخص قول هندوسى باختصار بالغ رأى الشرقيين الذين تماسوا مع علوم الغرب 'إن العلم الغربى معرفة جاهلة'[9] وليس فى هذه التعبير تناقض اصطلاحى، فهو يعنى معرفة لا حقيقة فيها حيث إنها فعالة فى نطاق نسبى، ولكنها معرفة محدودة بلا مراء، وتجهل الجوهريات كافة وتفتقد المبادئ شأن كل ما ينتمى إلى الحضارة الغربية. والعلم كما يفهمه معاصرونا ليس إلا دراسة الظواهر المحسوسة، والذى يجرى بطريقة لا يمكن أن يرتبط فيها بأى مبدإ أسمى، ويستقل بذاته فى إصرار بالغ عن كل ما يقع خارج مجاله، لكن ذلك الاستقلال قد أصبح ممكنًا فقط بواقع محدودية العلم ذاته. ولا يرضى بذلك بل يزيد عليه إنكار كل ما يجهل إذا لم يسهب فى إنكار احتمال معرفة أمر من هذا القبيل أصلاً، وهو ما يربو إلى الشىء ذاته، ويبلغ من الصفاقة حد ادعاء أنه ينطوى على كل ما يمكن أن يُعرَف بدءًا بافتراضٍ خاطئ حتى ولو

---

[9] ' إجهاض الحياة فى الغرب ' *P.Ramanathan, The Miscarriage of Life in the West* وقد كان المندوب العام لسيلان *Hibbert Journal, vn, i; quoted by Benjamin Kidd, The Science of Power, P95-*

بلا وعى فى معظم الأحوال، ويقول ’العلماء ‘ مثلما قال أوجست كومت إن الإنسان لم يَسعَ مطلقًا إلى معرفة شىء إلا ما يفسر ظواهر الطبيعة، ونقول ’بلا وعى ‘ بموجب أنهم حتمًا عاجزون عن فهم ما وراءها، ولا لوم عليهم فى ذلك ولكنهم يستحقون التقريع لمصادرة حق الغير فى تفعيل الملكات التى فقدوها هم. وشأنهم فى ذلك شأن الأعمى الذى لا ينكر وجود النور ذاته فحسب بل ينكر كذلك وجود حاسة البصر لسبب واحد هو إنه بلا بصر، والاعتقاد بوجود أمورٍ ’لا تُدرَك *unknowable* ‘ كما قال سبنسر يحوِّلُ عجزهم إلى سدٍّ لا ينبغى لأحدٍ أن يتجاوزه، أى أمر لم يُرَ ولم يُسمَع عنه من قبل لتحويل تهمة الجهل إلى منهج فكرى ومناط للإيمان، ويسمونها علناً ’إنكار العرفان ‘ باصطلاح ’اللاأدرية *agnosticism*‘. ولنراع أن هؤلاء الناس ليسوا شكاكين *skeptics*، ولو كانوا كذلك لكان فى مسلكهم شىء من منطق قد يَغفِر لهم، ولكنهم أشد المؤمنين ’بالعلم ‘ حماسًا وأشد المعجبين ’بالعقلانية ‘ زهوًا. وقد يبدو من الغريب وضع العقلانية فوق كل شىء والحضُّ على عبادتها حق عبادة، والتسليم فى الآن ذاته بأن العلم محدود جوهريًّا، وهو تناقض بيِّن، ورغم أننا نلاحظه فلن نتعرض لتفسيره، فهذا المسلك آية عقلية لا شأن لها بعقولنا، وليس من شأننا تبرير التناقضات التى تبدو كامنة فى ’النسبية *relativism* ‘ بكل صورها. ونقول نحن كذلك إن العقلانية محدودة ونسبية، ولكنها أبعد من أن تكون الذكاء بكامله ونعتبرها أحد أهدابه الدانية فحسب، كما نرى فى الذكاء إمكانات أخرى تذهب إلى أبعد من هذه العقلانية. ويبدو أن من يُسَلِّمون بجهلهم من الأوروبيين المحدثين والعقلانيين فى هذا الزمان يبادرون إلى ذلك بشكل أيسر من سابقيهم شرط ألا يكون لأحد الحق فى معرفة ما لا يعرفون، ويدَّعون محدودية المعرفة أصوليًّا، مما يبين فى الحالتين روح الإنكار التى تسيطر على العالم الحديث. وروح الإنكار هذه ليست إلا روح المنظومية، فالنظام عادة مفهوم مغلق، وقد أصبح متماهيًا مع روح الفلسفة ذاتها خاصة منذ عهد كانط ، والذى خاطر بمحاولة استبعاد كل المعرفة من حدود النسبية بالقول ’إن الفلسفة ليست وسيلة لامتداد المعرفة ولكنها نظام لتقييدها‘[10] وهو ما يربو إلى القول بأن مهمة الفيلسوف هى فرض الحدود الدنيا للفهم على الجميع، ولذا انتهت الفلسفة الحديثة إلى استبدال ’النقد الأدبى ‘ و’ نظرية المعرفة ‘ بالمعرفة ذاتها، وذلك أيضًا هو السبب الذى جعل رواد الفلسفة الحديثة يطلقون عليها ’الفلسفة العلمية *scientific philosophy* ‘، أى مجرد توفيق للنتائج العامة للعلم، والذين يَعتَبِرُون أن مجاله هو الوحيد الذى يمكن للذكاء أن يعالجه. ويمتنع فى هذه

---

[10] *Kant, Kritik der reinen Vernunft, ed. Hartenstein, P256.*

الأحوال تمييز العلم عن الفلسفة، فلم يمثلوا إلا مقامًا واحدًا من مقامات الذكاء على مستوى الواقع منذ مولد العقلانية، وقد حركتهم الروح ذاتها التى أسميناها الروح 'العلموية *scientistic*'.

ولا بد من الإصرار قليلاً على هذا التمييز الأخير، والذى نرغب فى الإشارة به إلى أننا لا نرى فيه ضررًا جوهريًّا فى نمو علوم بعينها حتى لو علَّقوا عليها أهمية عظمى، فهى معرفة نسبية تمامًا إلا أنها معرفة، ومن الصواب أن يوجِّه كل امرئٍ جهوده الفكرية نحو ما يُناسب مواهبه الطبيعية والوسائل التى يحتكم عليها. وما نحتج عليه هو القصر والطائفية اللتان ينتهجهما الذين انتشوا بما بلغه العلم حتى رفضوا الاعتراف بأى شىء آخر غيره، ودفعوا بأنه صحيح على طول الخط، وأن كل نظرية لا بد أن تخضع للمناهج التى تختص بها، كما لو كانت تلك المناهج مفطورة لدراسة أمور جامدة بعينها وتصلح معاييرها للتطبيق على كل شىء بلا هوادة. ومفهومهم للكلية محدود للغاية ولا يتجاوز نطاق العوارض، ولكن 'العلماء' سيدُهَشون لو قيل لهم إن هناك كثيرًا من الأمور لا تصلح مناهجهم لدراستها حتى دون أن نترك نطاق العوارض، والتى يمكن أن تصبح غاية لعلوم تختلف تمامًا عما يعلمون، وأنها ليست أقل حقيقية من علومهم وربما كانت أكثر منها فائدة. ويبدو أن أناس هذه الأيام قد قبلوا اعتباطًا عددًا محدودًا من الحقول التى انكبوا على دراستها بافتراض أنه لا وجود لغيرها، ومن الطبيعى أن يكرِّسوا اهتمامًا لتنمية تلك العلوم المخصوصة وأهملوا غيرها لانشغالهم بأمور أهم فى تقديرهم، ويخطر لنا التنمية الهائلة التى حظيت بها العلوم التطبيقية، وهى مجال تفوَّق فيه الغرب ولا يحلمن أحدٌ بملاحاة تفوقه، فى حين يرى الشرقيون أنها لا تعدو أمرًا لا يُحسَد عليه أحد، وأن ثمنها سيكون نسيان كل ما يعتبرونه جديرًا بالاهتمام الحق. ولا نتردد فى قول أن هناك علومًا شرقية بما فيها العلوم التجريبية لا يفقه الغرب عنها شيئًا، وهذه العلوم هى التى يطلق عليها اسم 'العلوم التراثية'. وقد كانت بعض العلوم فى العصور الوسطى فى الغرب تناظرها من بعض الأوجه. ولا شك أن بعضها قد أدى إلى تطبيقات مفيدة تحققت ببحوث لا تعلم عنها 'السلطة' العلمية فى أوروبا الحديثة شيئا. وليس هذا موضع الإسهاب فى هذه المسألة لكننا على الأقل نلتزم بتفسير السبب الذى جعلنا نقول أن هناك فروعًا من المعرفة العلمية قد نبعت من أصول تراثية، وسوف نبين ما يفتقده العلم الغربى بوضوح أكثر عما طرحناه من قبل.

وقد قلنا إن أحد سمات العلم الغربى هى ادعاء الاستقلال التام والاكتفاء الذاتى، ولا يصدر مثل هذا الادعاء إلا عن جهل بأن هناك معرفة من مقام أعلى من المعرفة العلمية أو حتى ما يعلو على العلم فى بنية المعرفة هى الميتافيزيقا، وهى معرفة صرفة متعالية فوق عقلانية،

فى حين أن تعريف العلم ذاته هو أنه معرفة عقلانية. والميتافيزيقا بالضرورة فوق عقلانية وإلا ما وُجِدَت، وليست العقلانية مجرد الإقرار بقيمة العقل، وهو أمر لم يلاحِه إلا الشكاكون *skeptics*، بل هى الدفع بأنه ليس هناك ما يعلو عن هذا العقل، أو ليس هناك معرفة يمكن أن تخرج عن المعرفة العلمية، وهكذا تعنى العقلانية إنكار الميتافيزيقا، والفلاسفة المحدثون قاطبة عقلانيون بشكل ضيق وصريح. والذين ليسوا كذلك عاطفيون وانفعاليون وليس ذلك أقل عداءً للميتافيزيقا، فالوصول إلى هذه الحال يعنى أنهم لا يعترفون إلا بالعقل الجدلى، وهم ينظرون إلى أمر أسفل من العقل لا أعلى منه. والفكر الحقيقى *intellectualism* بعيد عن العقلانية بمقدار بعده عن الحدسية الحديثة ولكن فى الاتجاه المضاد، ولو ادعى فيلسوف حديث فى هذه الظروف اهتمامًا بالميتافيزيقا فلا شك فى أنه يعنى بما يسميه أمر آخر غير الميتافيزيقا الصرف. ولا نملك إلا وصف هذه المحاولات 'بالميتافيزيقا الزائفة *pseudi-metaphysics*'، ولو صادف الفيلسوف المذكور بعض الاعتبارات المقبولة فى اهتماماته فلا بد أنها تنتمى قصرًا إلى مقام العلم ببساطة. وهكذا تصبح السمات العامة للفكر الحديث هى الغياب الكامل للمعرفة الميتافيزيقية، وإنكار كل المعرفة التى تخرج عن نطاق العلم الحديث، والتعسف فى قصر المعرفة العلمية ذاتها على مجالات مخصوصة واستبعاد كل ما سواها. وهكذا بلغ التدهور الفكرى فى الغرب أدنى انحطاط له عندما هجر الطرق التى سلكها الإنسان.

والميتافيزيقا هى معرفة المبادئ الكلية التى يَعتَمِدُ عليها بالضرورة كل شيء كان بشكل مباشر أو غير مباشر، وبدونها سوف تفقد كل المعارف مبدأ وجودها، ولو كسبت فى ذلك شيئا من الاستقلال لا كحق لها بل من حيث الأمر الواقع فإنها قد فقدت كثيرًا من عمقها ونطاقها، ولذا صار جُلُّ العلم الغربى سطحيًّا، وبعثر طاقاته بين شظايا لا تحصى من المعرفة، وتَخَبَّطَ فى معطيات وتفاصيل عن طبائع الأمور تجل عن الحصر، وأعلن أن تلك الطبائع لا مطال لها حتى يبرر عجزه فى هذا الصدد، ويشهد ذلك بأن اهتمامه عملى لا فكرى. وإن جرت محاولات لتوحيد هذه العلوم التحليلية فإنها تجرى بصورة اصطناعية لا تقوم إلا على فرضيات جامحة، وقَدَرُها أن تنهار على بعضها، إذ يتبين أن أية نظرية عامة لا تستطيع الدوام أكثر من نصف قرن فحسب، ثم إن الفكرة الغربية التى قد تجعل التركيب الهيكلى نتيجة للتحليل هى فكرة زائفة أصوليًّا، والحقيقة هى أن التركيب الهيكلى الجدير بهذه الصفة لا يمكن أن يُطالَ بالتحليل، فكل منهما ينتمى لمقام غير الذى ينتمى إليه الآخر. والتحليل بطبيعته يمكن أن يجرى بلا نهاية لو كان نطاق فاعليته شاسعًا بما يكفى دون أن يقترب فتيلاً من المشهد العام للنطاق بكامله،

فلا يثير الدهشة إذن أن يعجز عن الاتصال بأى مقام مبدئى أعلى منه. وتتجلى الطبيعة التحليلية للعلم الحديث فى التضخم المطّرِد فى عدد 'التخصصات *specialities* ' التى لم يكن لأوجست كومت بدٌّ من الإشارة إلى مخاطرها. وقد عكف كثير من علماء الاجتماع على تمجيد تلك 'التخصصات ' باسم 'تقسيم العمل'، وهى أكثر الطرق كفاءة فى تحقيق 'قِصَرِ نظرٍ فكرى *intellectual shortsightedness* ' صار من المؤهلات المطلوبة 'للعالِمِ ' كامل الأوصاف، وبدونه لن تستطيع 'العلموية ' ذاتها أن تطوله. وبمجرد أن يخرج 'المختصون' من نطاق تخصصهم عادة ما يتباهون بعبقريتهم النادرة، فلا أسهل من الاعتماد عليها بأمارة 'التخصص '، وقد أسهم ذلك فى ظهور الشطر الأعظم من النظريات البلهاء شرط تسميتها 'بالعلمية'. وقد كانت فرضية التطور على سبيل المثال من أوغل الفرضيات بطلانًا، وقد أسبَغَ العلم عليها مقام 'القوانين ' الثابتة. ورغم أن نجاحها كان مؤقتًا فإن طبيعة هذا العلم تجعل الخلاص منها ممكنًا بنظرية أخرى تُستقبَلُ بترحابٍ مماثل. والتركيب الزائف الذى انكب على محاولة استخراج الأسمى من الأدنى هو مقلوب غريب لمفهوم الديموقراطية لا يمكن أن يكون إلا افتراضًا تعسفيًّا، فالتركيب الحقيقى يبدأ من المبادئ ويشارك فى اليقين بها، ولكن يتعين أن تكون مبادئ معصومة لا فرضيات فلسفية على طريقة ديكارت. ويجوز القول على سبيل الاختصار أن إنكار المبادئ ورفض الارتباط بها يَحرِمُ هذه الفرضيات من أعلى ضمان وأفضل اتجاه يمكن أن يسندها فلم يعد فيها إلا معرفة التفاصيل، وبمجرد أن تسعى إلى درجة واحدة أعلى مقامًا تصبح مثارًا للشكوك ومجالاً للتردد. وقد انبنى على ما قيل توًّا عن العلاقة بين التحليل والتركيب أن نمو العلم كما يفهمه المحدثون لا يمتد وراء مجاله، وقد نتفاقم كمية المعارف المتشظية بلا نهاية فى مجالها ذاته، وليس ذلك بموجب بحث أعمق بل نتيجة التقسيم وتقسيم التقسيم الذى يتجه إلى دقة مطّردة، فهو حقًّا علم المادة والكثرة. وحتى لو كان فى الأمر امتداد حقيقى كما قد يحدث بشكل استثنائى فسوف يكون دائمًا فى إطار المرتبة ذاتها، وسوف يُحبَسُ العلم عن ارتياد مراتب أعلى، وقد انفصل العلم فى حاله الراهن عن مبادئه فى متاهة يستحيل اجتيازها وليست إلا وهمًا لا يقل فتيلاً عن متاهة بكاملها. وحينما نقول إن العلوم بما فيها العلوم التجريبية لها أسس تراثية فى الشرق فإننا نعنى أنها مرتبطة على الدوام بمبادئها على عكس العلوم الغربية، ولا يجوز لها التغاضى عن هذه المبادئ ولا يمكن نسيانها، ولا تستحق الأمور العرضية اعتبارًا إلا من حيث إنها نتائج وتجليات ظاهرية لما ينتمى إلى مقام أعلى. والحق أن هناك فارقًا عميقًا بين المعرفة الميتافيزيقية والمعرفة العلمية، إلا أنه ليس هناك

انقطاع مطلق بينهما، ويمكن أن نتخذ مثالاً من العالم الغربى ذاته، فلو اعتبرنا فى المسافة التى تفصل منظور القدماء وعلم الكون فى العصر الوسيط عن علم الطبيعة كما يفهمه المحدثون فلم يحدث قبل الفترة الحالية أن اعْتُبِرَت دراسة العالم المحسوس مكتفية بذاتها، ولا استحق العلم الحديث اسم المعرفة وهو على حاله من التغير والتعدد ما لم توجد وسيلة لوصله بشكل أو آخر بأمر مستقر ثابت. ويرى الشرقيون بناءً على مفهوم قديم لا زالوا يتمسكون به أن العلم لا يُمْتَدَحُ من أجل ذاته بل بمدى تعبيره فى نطاق بعينه عن حقيقة معصومة متعالية ومدى انعكاسها على هذا النطاق، وهذه الحقيقة يستقى منها كل شيء وجوده بالضرورة، وحيث إن فكرة التراث تجسيد لسمات هذه الحقيقة، فيبدو العلم بكامله امتدادًا للمذهب التراثى ذاته كأحد تطبيقاته، وربما كان ثانويًّا وعرَضيًّا لا جوهريًّا، وقد ينطوى على معرفةٍ دُنيا إلا أنها معرفة حقًّا نظرًا لارتباطها بالمعرفة الكلية الحقيقية الأسمى، والتى تنتمى إلى مقام البصيرة *intellect*. ومن الواضح أن هذه المنظور لا يتصالح مع الطبيعية العملية الكثيفة التى تحبس معاصرينا فى قوقعة العوارض حتى يمكن القول أنها شطر قليل الشأن من هذه القوقعة[11]. ونكرر أن الشرقيين لم يحولوا عن هذا المفهوم ولا يملكون أن يحيدوا عنه دون إنكار المبادئ التى تقوم عليها حضارتهم، ويبدو جليًّا أن العقليتين لا تتقابسان، ولكن حيث إن الغرب هو الذى تغير فربما يأتى زمان يتغير فيه إلى الأفضل حتى ينفتح لمفاهيم أوسع، وعندئذٍ سينتهى عدم المقابسة من تلقاء ذاته.

ونعتقد أننا عرضنا بوضوح كافٍ لتقويم الشرقيين للعلم الغربى. وفى إطار هذه الاعتبارات هناك أمر واحد يفسر الإعجاب الزائد والاحترام الخرافى الذى ينهال على ذلك العلم، وهو اتساقه التام مع الحضارة المادية. ولا مجال للتساؤل هنا عن الآراء التى استغرقت فيها تلك العقول فى قشور المظاهر وقد هالتها التطبيقات التى أدى إليها العلم فى استخدامات عملية ونفعية، وقد نمت الروح 'العلموية ' بفضل الاختراعات الميكانيكية، والتى أثارت منذ القرن التاسع عشر حماسًا مجنونًا حيث إن غاياتها تلخصت فى توفير راحة الجسد التى تمثل الأمل الطاغى للعالم الحديث. زد على ذلك خلق الطلب الذى أضاف وعيًا باحتياجات جديدة يُمكن أن تُشْبَعَ. وهكذا نجد حتى من هذا المنظور النسبى أن التقدم أمر وهمى صرف، وبمجرد انطلاقه على هذا المنوال يفقد القدرة على التوقف، حيث تُخْتَرَعُ على الدوام احتياجات لا بد أن تُرضى.

---

11 ونقول ' الطبيعية العملية ' لأن هذا التحديد مقبول عند الذين لا يدعون إلى الطبيعية بالمعنى الفلسفى على الخصوص ، كما أن هناك عقليات وضعية لا تنتمى بأى شكل إلى منظومة الفلسفة الوضعية.

وأيًّا كان الأمر فقد اختلطت تلك التطبيقات بالعلم ذاته، فهو الذى أضفى عليها فضلاً وسمعة رنَّانة، ولا ينشأ اضطراب كهذا إلا بين شعوب تجهل طبيعة الفكر البحت حتى فى دوائر العلم، وقد اعتادت على ما ينضح هذه الأيام من وسائل النشر كافة عما يسمونه 'علمًا ' وما تصحُّ تسميته 'صناعةً '، وصاحب 'السلطة ' النمطى هو المهندس الذى اخترع الماكينة أو صنع الماكينات. أما النظريات العلمية فلا بد من اعتبارها مستفيدة من هذه الحال أكثر مما كانت سببًا لها، فالعاجزون عن الفهم يقبلونها بثقة وانشراح كعقيدة ثابتة، وكلما ازدادوا عجزًا تيسر خداعهم، ذلك أنهم ينظرون إليها باعتبارها وثيقة الصلة بتلك المخترعات العملية التى يعجبون بها. والحق أن تلك الصلة ظاهرية أكثر منها حقيقية، ولا تقوم الفرضيات العلموية بأى دور فى تلك الاكتشافات والتطبيقات التى قد تتعارض حيالها الآراء، ولكنها على كلٍّ 'تغرق ' كما يعتقد الشرقيون الحقيقيون، وكل ما يمكن تحقيقه فى المرتبة العملية لن يبرهن على حقيقة أى افتراض كان، كما أن تمحيص فرضية بالتجريب ليس أمرًا معتادًا، ومن الممكن دائمًا أن تُفَسَّرَ الوقائع ذاتها بعدة نظريات، وقد يمكن استبعاد فرضيات معينة لدى اكتشاف أنها تناقض الوقائع، ولكن ما يبقى منها يظل افتراضيًّا لا غير، وليست هذه طريقة يمكن بها الوصول إلى اليقين. أما الذين لا يقبلون سوى الحقائق الجامدة ولا معيار لديهم للحق غير 'التجربة ' التى يقصدون بها مشاهدة الظواهر المحسوسة، فلا مجال أمامهم لاتباع طريق آخر، ولا مسلك لهم إلا أحد طريقين فإما أن يتَّخذوا مقولاتهم من معرفة أن النظريات العلمية مجرد فرضيات وينكروا أى يقين أسمى من برهان الحس، وإما أن يرفضوا التسليم بأنها فرضيات ويؤمنوا بشكل أعمى بكل ما ورد فى التعليم باسم 'العلم'. ولا شك أن المسلك الأول أكثر ذكاءً من الثانى حيث إن 'سلطات ' علمية بعينها ترفض استغفالها بالفرضيات التى نشأت عنهم أو عن زملائهم، ويصلون بذلك إلى ما يقرب من الشك الكامل، أو على الأقل إلى الاحتمالية، أى 'اللاأدرية ' التى لم تعد تنطبق على ما يجرى فيما وراء نطاق العلم فحسب بل تمتد لتشتمل على النظام العلمى ذاته، فيخرجون من ذلك المسلك السلبى بذرائعية واعية، لا يراعون الحق فى الفرضية بل فى مناسبتها على شاكلة هنرى بوانكاريه، أليس ذلك اعترافًا بجهل عُضال لا دواء له؟ وتتبع 'سلطات ' علمية أخرى المسلك الثانى الذى يمكن تسميته التعصب العقدى *dogmatic*، خاصة من اعتمدوا على مصداقية غيرهم من السلطات ويلتزمون بفكرة احتياج التعليم إلى الإيجابيات، ويبدون دائمًا واثقين مما يقولون، ويدارون على المصاعب وعدم اليقين، ولا يقولون شيئًا بطريقة توحى بالشك، وهو أسهل طريق لكى يُنظَرَ إليه باحترام، فيتولون

السلطة فى التعامل مع الجماهير، والتى يتسم سوادها الأعظم بعدم الكفاءة والعجز عن التمييز، وسواءً أكان يخاطب تلاميذَ أم جماهير. ويصير السلوك ذاته سُنَّة يُعمل بها عند الذين يتعلمون على المنوال ذاته بقدر أكبر قليلاً من التصديق، وهو كذلك سلوك الذين يُسَمَّون ’رجل الشارع ‘. ويمكن أن يطال المنظور ’العلموى ‘ بكماله فى ذلك التصديق الأعمى فى دوائر تحكمها عقليات تتصف ’بالابتدائية *primary* ‘ رغم أن هذا النمط ليس مقصورًا على من تعلموا تعليمًا ابتدائيًا.

وقد جاء ذكر ’الجماهير ‘ فيما تقدم، وهم أمر آخر من خصائص الحضارة الحديثة، ويمكن مشاهدة عوامل وأحوال عقليتهم التى نحاول وصفها، فهم أحد الصور التى تعبر عن الاحتياج إلى الدعاية التى تحرك العقل الغربى، والتى لا يفسرها إلا هيمنة العاطفة. فما من اعتبار فكرى يبرر البروزيليتية، التى لا يرى الشرقيون فيها إلا برهانًا على الجهل والغفلة، فهناك اختلاف كامل بين طرح الحقيقة ببساطة كما يفهمها المرء والحرص على عدم تشويهها وبين الرغبة فى إقناع الغير بقناعاتهم بأى ثمن كان. ولا يمكن أن تتحقق الدعاية والانتشار الجماهيرى إلا على حساب الحقيقة، وادعاء ’وضعها فى متناول الجميع ‘ بلا تمييز سوف يستتبعه حتمًا تشويه الحقيقة واختزالها، فلا مجال للقول بأن كل الناس قادرون على فهم شىء واحد بالتساوى، وليس لذلك علاقة بتعليم كثُرَ أو قَلَّ، فهى مسألة ’الأفق العقلى ‘ الذى لا يمكن تعديله، والذى يكمن فى الطبيعة الفردية للإنسان. ويذهب ادعاء ’المساواة *equality* ‘ على النقيض من كل الحقائق الثابتة، فهو إنكارٌ للتراتب الطبيعى فى نطاق الفكر كما فى نطاق الطبيعة، وهو حَطٌّ لكل المعارف إلى مقام الفهم المحدود للجماهير. فلم يعد الناس يُسلمون بأمر يخرج عن حدود الفهم الجماهيرى. والحق أن المفاهيم العلمية والفلسفية لزمننا تستحق الرثاء، فقد نجحت ’السلطات ‘ فى محو كل ما من شأنه عدم التوافق مع متطلبات الجماهير. وأيًّا كان ما يُقال فإن دستور أى صفوة لا يمكن أن يتصالح مع المُثُل الديموقراطية، التى تفرض أن يتجرع التعليم ذاته من خلا من الموهبة ومن كان موهوبًا سواءً بسواء، ولا مناص من أن تختلف النتائج باطراد رغم أنف التعليم، إلا أن ذلك نقيض لنوايا الذين أسسوا التعليم. وعلى كلٍّ فنظام التعليم الحالى هو على وجه التأكيد أقل النظم كمالاً، كما أن فوضى نشر شظايا المعرفة بلا تمييز أكثر ضررًا من نفعها، فلا مناص من أن يسهم فى خلق حال من الفوضى. وتحسب طرق التربية التراثية لهذه الفوضى التى بدأت تعم الشرق فى إهاب ’التعليم الإلزامى ‘ الذى ثبت ضرره أكثر من نفعه بّبون شاسع. ولم يكتفوا بأن التعليم المتاح للغربيين فيه القليل من المعرفة المتعالية التى تقلَّصت إلى أعمال دعاية جماهيرية تقتصر على معالجة أحطِّ جوانبه،

وحتى ذلك يجرى بتشويه متعمَّد بدعوى التبسيط، وتتفق هذه الأعمال جميعًا على أشد الفرضيات جموحًا فى الوهم بوقاحة تدَّعى بها صفة الحق الثابت، وتردفها بخَطَابَةٍ تُعجب الغوغاء. وتُستقى نصف المعرفة التى تخلفت عن هذه القراءات أو التعليم من مراجع تضاهى قيمتها المتدنية، وهى أسوأ كثيرًا من الجهل البسيط النقى، فأفضل للإنسان ألا يعرف شيئًا من أن يزحم دماغه بأفكار مغلوطة لا تُمحَى خاصة لو كان قد مُنِيَ بها فى حداثته. والإنسان الجاهل عنده على الأقل فرصة التعليم لو واتت الظروف، وقد يكون موهوبًا بحاسة طبيعية 'للمعقولية العامة *common sence* '، والوعى بقلة حيلته الذى اعتاد عليه، وهو ما يكفى لحمايته من نتائج حمق وَبيِل. ونجد على العكس منه نصف المتعلم الذى يمتاز بعقلية شوهاء، ويجعله ما يتوهم أنه يعرف راضيًا عن ذاته حتى يتصور أنه قادرٌ على الكلام عشوائيًّا فى كل شىء أيًّا كان، وكلما زاد عجزه زادت بلاغته، فكم تبدو الأمور بسيطة فى عين من لا يعرف شيئا!

ولو نحَّينا شرَّ الإعلام الجماهيرى جانبًا ونظرنا إلى العلم الغربى الحديث بجملته وباعتبار أشد جوانبه أصالة لبقيت فيه مسحة من الانحطاط فى دعاوى نشطائه كى يتمكنوا من تلقينه للجميع. ويرى الشرقيون انعدام أية قيمة وأى عمق حقيقى فى محتوى علم لا تستلزم دراسته مؤهلات خاصة، وأن العلم الغربى ظاهرى وسطحى فحسب. وبدلاً من قول 'علم جاهل ' حتى نصوره فلا ضير فى تسميته بالمعنى ذاته 'علم دنيوى '، وليس هناك فارق حقيقى من هذا المنظور بأكثر مما فى غيره بين الفلسفة والعلم، وقد كدح بعض الناس فى تفسير الفلسفة بأنها 'الحكمة الإنسانية '، والحق أنها كذلك شرط التحفظ الشديد على أنها حكمة إنسانية صرفة بأضيق معنى ولا غير، ولا تستقى من عنصر ينتمى إلى مقام أعلى من العقل الجدلى، وسنسميها 'فلسفة دنيوية ' حتى نتجنب كل الشكوك، ويربو ذلك إلى القول بأنها ليست حكمة على الحقيقة، ولكنها أوهام حكمة ظاهرة للعيان. ولن نتتبع هنا نتائج تلك السمة 'الدنيوية ' لجملة المعرفة الغربية الحديثة، ولكننا سوف نطرح فيما يلى ما بلغته من الضحالة والتصَنع، وسوف نذكركم بطرق التعليم التى تستهدف إحلال الذاكرة محل الذكاء. فواجب التلميذ أن 'يختزن ' كل ما أمكن بدءًا من التعليم الابتدائى حتى يتخرج من الجامعة بغرض اختزانها دون هضمها، وتعمل هذه الأشياء خصوصًا مع الذين لا تستلزم دراستهم فهمًا يذكر، فتُبَدِّلُ الحقائق بالأفكار، وتُسمَّى الدراسة معرفة حقة. وكل ما يلزم لتقريظ فرع من العلوم أو تبخيسه أو مديح منهج أو انتقاده هو ما إذا كان 'علميًّا ' أم لم يكن، وما يُعَدُّ رسميًّا 'مناهج علمية ' هى أحطُّ طرق التعليم قاطبة، فهى تستبعد كل ما ليس بحثًا من أجل البحث فحسب فى كافة تفاصيله، وتجدر

الإشارة إلى أن أسوأ المستغلين فى هذا المجال هم ’رجال الأدب *men of letters*‘. وقد طار صيت لافتة ’العلمية ‘ هذه وإن لم تكُ شيئًا أكثر من لافتة، وكانت نصر الانتصارات جميعًا للعقلية ’العلموية ‘، ناهيك عن التقدير الذى أسبغته الجماهير عليها بمن فيهم من يسمى ’مثقفين *intellectuals* ‘ باستخدام كلمة واحدة هى ’العلم ‘، ألسنا محقين فى تسميتها ’خرافة العلم‘؟

ولا تتردد البروزيليتية ’العلموية ‘ فى الغرب فى إطار ’التعليم الإلزامى ‘ والدعاية فحسب ولكنها تعيث فى كل أين شأنها شأن تنوعات البروزيليتية الغربية، فأينما حل الأوروبيون فى بلد طفقوا ينشرون ما أسموه ’فوائد العلم ‘ باتباع المناهج ذاتها دون أية محاولة لتطويعها، ولم يخطر ببالهم أن أهل تلك البلاد قد يكون عندهم تعليم من نوع آخر واعتبروا كل ما لم يأت منهم عدمًا وفراغًا، ثم إن ’المساواة ‘ لا تسمح لشعوب وأجناس أخرى أن تكون لهم عقلية تخصهم، زد على ذلك أن الميزة الرئيسة التى يتغياها أولئك الذين يفرضون التعليم الغربى دومًا ما تكون محو المعرفة التراثية. وحالما يتركون أوطانهم تتحول ’المساواة ‘ العزيزة على قلوبهم إلى مجرد تماثل *uniformity* كتوحيد الأزياء، أما باقى ما تنطوى عليه فلا يدخل فى باب ’تصدير السلع ‘، ولا أثر له إلا فى التعامل بين أوروبى وآخر، فهم يعتقدون أنهم أسمى من الناس جميعًا، ويعاملون الزنوج والبرابرة كما يعاملون الشرقيين المفكرين صاعًا بصاع، فهم جميعًا خارج الحضارة الوحيدة التى لها حق فى الوجود. كما أن الغربيين يحرصون عادة على تلقينهم شظايا أولية من معارفهم، وليس من الصعب تصور كيف يُقَدِّرُ الشرقيون تلك الشظايا بينما يعلمون أن أعظم ما يقدمه الغرب من معرفة لا يتميز إلا بالضيق والتفاهة الممهورة بعبقرية غليظة الوقع. وقد برهنت الشعوب ذات الحضارات على أنها تقاوم هذا التعليم بينما خضعت له الشعوب التى لا حضارة لها بشكل أيسر، وليس الغربيون بمنأى عن الحكم بأن الآخرين أفضل من الأولين، فهم على استعداد لإضفاء تقدير نسبى على أولئك القابلين ’للارتفاع ‘ إلى مستواهم حتى لو كان ذلك الارتفاع يستغرق قرونًا من التعليم الإلزامى. ولسوء الحظ فما يسميه أهل الغرب ’ارتفاعًا ‘ سوف يسمى فى بلد آخر ’غرقًا ‘، وهذا ما تعتقده الشعوب الشرقية حتى لو لم يقولوا ذلك صراحة، أو هم يستترون وراء صمت لا يُقهر تاركين ما لا يأبهون له من غرور الغربيين يفسر مسلكهم كيفما شاء.

ويعتنق الأوروبيون رأيًا عاليًا فى علومهم حتى إنهم يعتقدون بأن سحرها لا يُقاوَم، ويتخيلون أن الشعوب الأخرى لا بد أن تركع إعجابًا بأتفه اكتشافاتهم، وتؤدى هذه الحالة العقلية بهم إلى سوء فهم صارخ، وليست تلك الحال جديدة، حيث إننا وجدنا فى لايبنيتز

مثالاً مسليًّا لها، فقد خطط هذا الفيلسوف كما هو معلوم لتصنيف ما أسماه 'الخصائص الكلية *universal characteristics* '، وهو نوع من الجبر العام فى صورة تُطَبَّقُ على الأفكار من كل نوعٍ بدلاً من أن تقتصر على الكم فحسب، وقد استلهم هذه الفكرة من كُتَّابِ القرون الوسطى خاصة ريموند لول وتريستيميوس. وفى أثناء بحثه ذهِلَ من معنى الحروف الإيديوجرافية للكتابة الصينية، وخاصة الأشكال الرمزية التى تأسس عليه 'كتاب الأحوال *I Ching* '، وسوف نرى ما فهم من هذه الأشكال، ويقول كوتورا *Couturat*،

> لقد اعتقد لايبنيتز أنه وجد فى أعداده الثنائية التى تقوم على علامتى 1 و 0 صورة للخلق مِن عدم *ex nihilo*، وقد حاول أن يفسر بها أقدم المتون الصينية التى تُعزى إلى فو هسى، والتى لم يكن معناها معروفًا عند المبشرين الأوروبيين ولا الصينيين أنفسهم. ومن ثم عكف على هذا التفسير فى دراسة عن 'الدين فى الصين '، وظن أن من المناسب أن يبهر الصينيين بالعلم الأوروبى، ويبين لهم ضلوعه فى أمور التراث الجليل والحكمة الصينية المقدسة، ومن ثم عكف على البحث فى حساباته الثنائية، وأرسلها إلى جامعة العلوم فى باريس[12].

وها هو نص البحث المذكور.

> إن من المدهش أن هذا الحساب الثنائى الذى يتكون من *0* و *1* ينطوى على سر الخطوط التى رسمها الملك الفيلسوف فوهى، والذى يعتقد الصينيون أنه عاش منذ أكثر من أربعة آلاف عام[13]، ويعتبرونه مؤسس إمبراطوريتهم وعلومهم. ويعزى إليه أشكال خطية هى كل منتجات حسابه، ولكن يكفى هنا ذكر أن الثمانية *Cova* [14]، عدد 'أصولى '، ونضيف إلى ذلك أولاً أن الخط المتصل يعنى واحدًا، وثانيًا أن الخط المقطوع يعنى صفرًا، وربما اختلط على الصينيين معنى الثمانية بعد أكثر من ألف عام من خطوط فوهى، فكتبوا عنها حواشى وتفسيرات مضطربة حتى إنهم لا بد أن يتعلموا معنى الواحد من

---

12 *Leibnitz, La Logique, PP474-475*.

13 والتاريخ المحقق هو 3468 ق.م. بمرجعية تقويم لحساب أوضاع النجوم وحال السماء فى ذلك العصر ، ونضيف أن اسم *Fu Hsi* يعنى حقبة كاملة من تاريخ الصين.

14 وتعنى كلمة كوا *K'ua* شكلا ثلاثيا *trigram* يتكون من ثلاثة خطوط متصلة أو منقطعة ، وعدد الثلاثيات الناتجة عن تباديلها ثمانية.

الأوروبيين. وقد أرسلت طريقتى فى الحساب الثنائى بالصفر والواحد إلى الأب بوفيه الجيزويتى الفرنسى الشهير فى بكين منذ عامين، ولم يكن بحاجة إلى غيرها كى يدرك مفتاح أشكال فوهى، فأرسل إلىَّ فى 17 نوفمبر 1701 الشكل الدائرى الأعظم لهذا الملك الفيلسوف الذى يتكون من 64 شكلا[15]، وهو ما لا يترك مجالاً للشك فى صحة تفسيرنا، حتى يمكن القول أن هذا الأب قد حل شفرة فوهى بواسطة ما أرسلت إليه. وربما كانت هذه الأشكال أقدم آثار للعلم فى العالم. واستعادة معناها بعد آلاف السنين قد يبدو أمرًا غريبا... ويجعلنى هذا التوافق أُقِّدر عمق تأملات فوهى، فما نجده الآن يسيرًا لم يكن كذلك فى الأزمنة السحيقة... ويعتقد الصينيون حاليًا أن فوهى هو صاحب الحروف الصينية رغم تغيرها فى مسار الزمن، ومقاله عن الحساب يدفع بالمرء إلى الظن بوجود أمور أخرى لها علاقة بالأرقام والأفكار، ويحسن اكتشاف أساس الكتابة الصينية خاصة وأن الصينيين يعتقدون أن الأرقام هى التى أسستها. وقد حرص الأب بوفيه على التعبير عن هذه المسألة، وهو قادر على النجاح فى أمور شتى، إلا أننى لا أعلم ما إذا كانت الكتابة الصينية سوف تستفيد من الأبجدية التى أنوى تناولها، وهى تؤدى إلى أن استنتاج المعنى يصحُّ بالكلمات كما يصحُّ بحساب الأرقام، والتى سوف تكون الطريقة الأساسية لإنقاذ العقل الإنسانى.[16]

وقد حرصنا على عرض هذه الوثيقة العجيبة التى يمكن بها قياس حدود الفهم عند رجل عُدَّ من ألمع الفلاسفة المحدثين 'ذكاءً'. وقد كان لايبنيتز مقتنعًا مقدمًا بأن 'أبجديته ' التى لم ينجح فى

15 ويشير هنا إلى ' السداسيات *hexagrams* ' الأربع والستين للملك وين وانج، والسداسى شكل من ثلاثيتين من ستةِ خطوط ، وقد عجز لايبنيتز عن تفسير الأشكال السداسية والأشكال الثلاثية التى اشتقت منها، ولماذا صُفت فى شكل دائرة.

16 Explication de l' Arithmetique binaire, qui se sert des seuls caracteres o et 1, avec des remarques sur son utilite, et sur ce qu' elle donne le sens des anciennes figures chinoises de Fohy' , *Memoires de VAcademie des Sciences,* 1907 *(Oeuvres mathematiques de Leibnitz,* ed. Gerhardt, t.vn, PP226-227. See also *De Dyadicis:* ibid., t. vii, pp223-234. This text ends as follows: *Ita mirum accidit, ut res ante ter et amplius (millia?) annos nota in extremo nostri continentis oriente, nunc in extremo ejus occidente, sed melioribus ut spero auspiis resuscitaretur. Nam non apparet, ante usum hujus characterismi ad augendam numerorum scientiam innotuisse. Sinenises vero ipsi ne Arithmeticam quidem rationem intelligentes nescio quos mysticos signijicatus in characteribus mere numeralibus sibi fingebant.*

إنتاجها سوف تكون أفضل كثيرًا من الحروف الصينية الإيديوجرافية، وليس مناطقة هذه الأيام بأفضل منه حالاً، والمضحك أنه ظن أنه يسدى إلى فو هسى صنيعًا عظيمًا فى إسناده فضل تأليف ’مقال فى الحساب ‘ إليه والفكرة الأولى للعبته الصغيرة بالأرقام. ونكاد نرى ابتسامة الصينيين الذين قد يقرءون ذلك الخط، وهو ما سوف ينأى بهم عن تكوين ’فكرة مشرِّفة عن العلم الأوروبى ‘، ولكنهم سوف يدركون تمامًا حدوده الواقعية. والحق أن الصينيين لم يحدث أن ’فقدوا معنى ‘ أو بالحرى معانى الرموز المقصودة، إلا إنهم ليسوا مجبرين على تفسيرها لكل من هب ودبَّ خاصة لو أدركوا أنها ستكون مضيعة لأنفاسهم. ويعترف لايبنيتز بقوله ’وربما اختلط على الصينيين معناها ‘ أنه لا يفقه عنها شيئًا، وقد كانت تلك المعانى ذاتها هى التى حفظها التراث ولم نتوان التفاسير عن تداولها بحرص بالغ، فهى البحث عن ’الواحد الحق ‘ عندهم، زد على ذلك أنه ليس فيها ’أسرار ‘، ولكن برهان عدم الفهم قائم فى اتخاذ الرموز الميتافيزيقية ’أرقامًا عددية ‘ فحسب. وقد كانت الأشكال الثلاثية والسداسية تركيبًا يمثل نظريات لا تكفُّ عن النمو، كما أنها قابلة لتمثيل أحوال شتى لو رغب المرء فى تطبيقها على نطاق محدود. وكان من شأن لايبنيتز أن يندهش لو قيل له إن تفاسيره الحسابية كانت أيضًا من مكونات تلك المعانى التى أنكرها بلا علم، ولكنها تستخدم فى نطاق أمور ثانوية تابعة، فليست هذه التفاسير خطلاً بذاتها إذ إنها تأتلف تمامًا مع كل شىء آخر، ولكنها لا تكتمل ولا تقوم بما هى، وتصبح بلا معنى حينما تُعَتَبرُ بذاتها، وقد يجدها البعض لافتة للانتباه لتشاكلها الذى يربط المعانى الأدنى بما يعلو عليها اتساقًا مع ما نوهنا عنه من طبيعة ’العلوم التراثية‘. والمعنى الأسمى هو المعنى الميتافيزيقى البحت وليس ما عداه إلا تطبيقات متنوعة له، وهى مهمة على العموم ولكنها أقل أهمية بموجب عرضيتها. وهكذا يحتوى كتاب التحولات على تطبيقات شتى من بينها الحساب، كما أن بينها المنطق على سبيل المثال، وهو ما كان من شأنه أن يهدى لايبنيتز فى مشروعه لو انتبه إليه، كما أن بينها تطبيقات اجتماعية كانت أساسًا للكونفوشية، وكذلك تطبيقات فلكية كانت الوحيدة التى استطاع اليابانيون فهمها[17]، كما أن به تطبيقات فى العِرَافَةِ التى يعتبرها الصينيون أدنى طبقاته، ويتركون ممارستها للحواة الجوالين. ولو كان لايبنيتز قد تواصل مع الصينيين مباشرة لربما فسَّروا له الأمر، ولكن هل كان سيفهم؟ فحتى الأعداد التى استخدمها قد ترمز إلى أفكار من مقام أعمق من مقام الحساب، وقد لعبت

---

[17] وقد كانت الترجمة الفرنسية لكتاب التحولات Philastre *Annales du Muste Guimet* مرجعا متميزا قد استغرقت فى المعانى الفلكية بشكل زائد.

دورًا بموجب هذا التناظر فى تشكيل الإيديوجرامات ناهيك عن تعبيرها عن المذهب الفيثاغورى، وهو ما يبرهن على أن هذه الأمور كانت معلومة لدى قدماء الغرب. وربما قَبِلَ الصينيون الإشارة بصفرٍ وواحدٍ لتمثيل فكرتهم الميتافيزيقية عن يين *yin* ويانج *yang* التى لا شأن لها بمفهوم 'الخلق من عدم'، إلا إنهم يفضلون 'التمثيل الخطى *lineations*' الذى وضعه فوهسى، وتقع غايته الجوهرية المباشرة فى نطاق الميتافيزيقا. وقد أسهبنا فى معالجة هذا المثل لتصوير الاختلاف بين المنظومة الفلسفية والتركيب التراثى *synthesis*، وبين العلم الغربى والحكمة الشرقية، وليس من الصعب رؤية المنظور الذى يكمن فيه عدم الفهم وضيق الأفق[18] من واقع هذا المثل الذى يعمل كذلك كرمز. وقد أمسى ادعاء لايبنيتز فهم الرموز الصينية أكثر من الصينيين أنفسهم منهاجًا يُحتذى بين المستشرقين وعلى رأسهم الألمان، والذين ادعوا بمثل ذلك حيال كافة المفاهيم والمذاهب فى كافة الحضارات الشرقية ولا يأبهون لرأى الممثلين الحقيقيين لتلك المذاهب. وقد عالجنا فى سياق آخر حالة ديوسين *Deussen* الذى توهم أن من الحكمة أن يفسِّرَ شانكاراشاريا للهندوس ذاتهم بناءً على أفكار شوبنهاور، وهذه حقًّا آيات على الفهاهة العقلية ذاتها.

ولا زال لدينا ملاحظة أخيرة عن هذا الأمر، وهى أن الغربيين الذين يعلنون بوقاحة فى كل أين عن تفوقهم وعلمهم قد طاش سهمهم حينما وصف بعضهم الحكمة الشرقية 'بالكبرياء' بموجب أنها لا تخضع للمحددات التى تعودوا هم عليها، وأنهم لا يتسامحون مع من يخرج على هذه المحددات. وهذه إحدى المثالب الشائعة عند الغوغاء *mediocrity* الذين يصوغون الروح الديموقراطية. والحقيقة أن الكبرياء أمر غربى صرف، وقل مثل ذلك عن التواضع، ورغم التضاد الواضح بينهما فهما يسيرا معًا نعلاً بنعل مثالاً للثنائية التى تحكم نطاق العواطف وتبرهن على طبيعة المفاهيم الأخلاقية، فلن توجد فكرتا الخير والشر ما لم يتناقضا. والحق أن الكبرياء والتواضع كليهما غريب عن الحكمة عمومًا ولا يؤثران فيها فتيلاً، فهى فكرية صرفة وتنقطع تمامًا عن العاطفة، وتعرف أن الإنسان أصغر كثيرًا وأكبر كثيرًا مما تعتقد شعوب الغرب فى أيامنا هذه على الأقل، وكذلك تعرف أنها ما يجب أن تكون عليه حتى تقوم بدورها فى النظام

[18] وسوف نشير هنا إلى ما كتبناه عن تعدد معانى المتون التراثية خاصة ما تعلق بالإيديوجرامات الصينية فى كتابنا ' مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية ' ، الباب التاسع ، ونضيف إلى ذلك عبارة نقتبسها من فيلاستر *Philastre* ' ويندر فى اللغة الصينية أن يثبت تعريف معنى الكلمة أو الحرف *ideogram* ' بشكل مطلق ، فالمعنى يتمخض عن موضع الكلمة فى سياق العبارة ، ولكن ما يحكم ذلك جميعا هو استخدامها فى متن قديم ، وتفسيرها المقبول فى التراث... فلا قيمة للكلمة إلا فى إطار قبولها التراثى'. *I Ching, pt 1, p 8.*

الكونى. فالإنسان الفرد لا يحتل موضعًا استثنائيًّا بأى شكل، فلا هو فى القمة ولا فى القاع بمقاييس الكائنات، ولا يمثل فى بنية الوجود إلا حالاً بين أحوال أخرى تجلُّ عن الحصر، ويسمو بعضها عليه ويدنو بعضها عنه. ولا يصعب أن نبين فى هذا الجانب أن التواضع يحاذى نوعًا بعينه من الكبرياء. ويحاول الغربيون إعلاء شأن الإنسان بإضفاء أهمية زائدة عليه خاصة فيما تعلق بفرديته، وربما كان ذلك نوعًا من النفاق اللاواعى الذى لا ينفصل عن 'الأخلاقية *moralism*' التى يراها الشرقيون كأحد السمات العامة للغربيين. زد على ذلك أن موازنة التواضع ليست ممكنة على الدوام، كما أن هناك عددًا لا بأس به من الغربيين يتعبدون للعقل الإنسانى، وهم يعبدون ذواتهم بشكل مباشر أو غير مباشر فى العلم الذى يزاولونه، وهذا أشد أشكال العقلانية و' العلموية' تطرفًا، إلا أنه نتيجة طبيعية ومنطقية. والحق أن من لا يعرف ما وراء هذا العلم وهذا العقل قد يتوهم تساميهما المطلق، وكل من لا يعرف غير هذا النمط من الإنسانية التى يمثلها الغرب الحديث قد يجنح إلى عبادتها خاصة عندما تتدخل العاطفية، والتى بينَّا أنها لا تنفصل عن العقلانية. وقد كان كل ذلك من جرَّاء الجهل بالمبادئ الذى دمغنا به الخطيئة الكبرى للعلم الغربى، ولا نظن رغم احتجاج ليتريه *Littre* أن أوجست كومت قد حقق أى أثر فى الوضعية بانكبابه على تدبيج 'دين الإنسانية '، ولم تكن هذه 'الأسرارية' الخاصة إلا محاولة لصهر المَيْلَيَنِ اللذين يَسِمان الحضارة الحديثة. وقد كانت الأسرارية المادية الزائفة أوغَلُ خطلاً من ذلك، فقد ذهبت إلى القول بأنها سوف تمسك بالمادية حتى لو لم يكن هناك دافع عقلانى للتمسك بها بموجب أن من 'الأفضل عمل الخير' حتى بلا ثواب محتمل'. ويروِّجُ الذين تأثرت عقولهم 'بالأخلاقية' التى تسمى نفسها 'علمية' وليست إلا عاطفية صرفة لما يسمى 'دين العلم'. ورغم أن ذلك 'دين زائف' فإننا نعتقد أن من الأوفق أن نسميه 'خرافة العلم '، وهو اعتقاد لا يقوم إلا على الجهل حتى لو كان جهل 'السلطة '، وعلى تحيزات خائبة لا تستحق الاعتبار إلا كخرافات شعبية.

3

خُرَافَةُ الحيَاة

يلوم الغربيون الحضارات الشرقية على ثباتها واستقرارها، فهذه السمات عندهم تربو إلى الكفر بالتقدم، وهذا صحيح، ولكن لا بد للمرء من الإيمان بالتقدم حتى يَتبينَ موضعَ اللوم فى ذلك، فعندنا أن هذه السمات تشهد أن تلك الحضارات تنهل من مبادئ معصومة قامت عليها، وهو شطر جوهرى من التراث، ويرجع عدم استقرار الحضارة الحديثة إلى انعدام المبدإ، ولا يصح أن نتخيل أن الاستقرار الذى نقصده يذهب إلى استبعاد كل أصناف التغيير، ولكن هذه الحضارات لا تفعل إلا أن نتأقلم مع الأحوال بأقل قدر ممكن من التغير بحيث لا نتأثر المبادئ بأى شكل، ويظل التغير محصوراً فى دائرة تطبيقه فحسب، وهذه هى غاية كل 'العلوم التراثية '، أما الميتافيزيقا كمعرفة للمبادئ فهى مكتفية بذاتها، فهذه العلوم تغطى نطاق كل ما قد ينبثق عن المبادئ بما فيها المؤسسة الاجتماعية. كما سوف يكون من الخطإ أن نخلط بين العصمة والجمود، فهذه الأخطاء تشيع بين الغربيين نظراً لعجزهم عن تمييز المفاهيم من التصورات، ولأن عقولهم مشتبكة بالتمثلات التى تمليها عليهم الحواس، وهو أمر واضح عند فلاسفة على غرار كانط لا يمكن إلحاقهم 'بالعاطفيين '، فليس المعصوم هو ما لا يقبل التغير، بل مثل ما 'يسمو على العقل *supra-rational*' ولكنه ليس 'لاعقلانيّاً *irrational*'. وقد توفرت الأسباب التى تبعث على عدم الثقة فى الميل إلى ترتيب الأمور فى تناقض مفتعل وتفاسير اصطناعية تبدو منظومية ومخلة البساطة فى الآن ذاته، وتنتج من العجز عن الإقدام على حل التناقضات الواضحة فى تركيب حقيقى متناسق. إلا أن من الحقيقى كذلك أن هناك تعارضًا فعليًّا بين الشرق والغرب من وجهة نظرنا وكثير غيرها فيما تعلق بالأوضاع الراهنة على الأقل، فهناك افتراق كما لو كان بين ساق شجرة وفرع ينمو منه بالتباعد عن أصله، وحضارة الغرب فحسب هى التى ابتعدت عن حضارة الشرق طوال القرون الأخيرة حتى لم يعد بينهما عناصر مشتركة ولا اصطلاحات للمقارنة ولا أرض للتصالح.

ويحاول الغربى أو بالحرى الغربى الحديث الذى نقصده على الدوام أن يبدو قابلاً للتغير كما لو كان منذورًا للقلق والحركة الدائبة، كما يبدو ولا طموح له فى الخروج من هذه الحال، وتشاكل أزمته كائنًا فقد اتزانه وعجز عن استعادته، ولن يُسَلِّمَ بأن التوازن أمر ممكن أو حتى مطلوب، و يذهب إلى أن يجعل من عجزه أمرًا يدعو إلى الفخر. و قد أصبح يهوى هذه التحولات التى تنتابه وتبعث على سروره من أجل ذاتها دون أن تؤدى إلى أية غاية، وهى التى تشكل ما يسميه 'التقدم' كما لو كان يكفى أن يسير بلا اتجاه حتى يتأكد أنه يتقدم، ولا يحلم حتى أن يسأل نفسه عن غاية تقدمه، ويبعثر قوى عقله بين جحافل النتائج المحتومة التى لم يتوقعها، ويسميها 'إثراءً *being enriched*'، وهى كلمة أخرى من كلمات المادية الكثيفة التى تمثل العقلية الحديثة. واحتياجها إلى الحركة الظاهرة وحبها للجهد من أجل الجهد ذاته بصرف النظر عن نتائجه. وليست أمرًا طبيعيًّا للإنسان، ولكنها أصبحت كذلك عند الإنسان الغربى، وربما كان ذلك نتيجة التعود الذى قال عنه أرسطو إنه طبيعة ثانية، ولكن ما يفوق كل شىء آخر هو التنمية القصوى للعناصر السفلى وتهميش الملكات العليا، فمن لا يستطيع انتشال ذاته من القلق لن يملك إلا أن يرضى به شأنه شأن من توقف نموه عند النشاط العقلانى فيعتقد أنه متسامٍ يثير الإعجاب، فيصبح وادعًا فى مناخ ضيق أيًّا كان، ويركن إلى التعامى عن وجود ما يعلو عليه. وتنحصر أمانى الإنسان الغربى دون الإنسانية جمعاء بقصرٍ صارمٍ على العالم المحسوس وعلاقاته التى تشتمل على المشاعر وشطرًا لا بأس به من العقلانية، ولا نقصد هنا البدائيين الذين يصعب تقدير كيفية تفكيرهم. ولا شك أن هناك استثناءات تستحق الثناء ولكننا نقتصر هنا على العقلية العامة التى اتصف بها المكان والزمان.

ونعجب لخصيصة أخرى فى دوائر الفكر أو ما بقى منه لظاهرة الولع بالبحث من أجل البحث ذاته وصرف النظر عما إذا كان يؤدى إلى حلول من أى نوع، فى حين يسعى باقى بنى الإنسان إلى البحث من أجل الكشف والمعرفة، ويعتبر قول الإنجيل اِسْأَلُوا تُعْطَوْا. اُطْلُبُوا تَجِدُوا. اِقْرَعُوا يُفْتَحْ لَكُمْ، متى 7،7. حروفًا ميتة لا معنى لها عندهم، ويعنى 'الموت' كل ما يشكل نهاية محددة، كما يضفون اسم 'الحياة' على ما لا يربو عن قلق لا يثمر. ويتفشى هذا الذوق المريض 'للقلق العقلى بلا غاية' على أشده فى الفلسفة الحديثة، ولا يخرج الشطر الأكبر منه عن معالجات لمشاكل مصطنعة، والتى لم تكن لتوجد إلا بموجب سوء طرحها، ولا تدين بأصلها وحياتها إلا لزخم الفوضى اللفظية التى تسهم فى تفاقمها، ونظرًا للطريقة التى طُرِحَت بها هذه المشاكل المصطنعة فلا حل لها، ثم إنه لا وجود لمن يأبه لحلها، فقد صيغت حتى تغذى

جدلاً وحوارًا لا يثمر شيئًا ولا يؤدى إلى شىء فحسب، ولا يربو تبديل البحث بالمعرفة عن ترك غاية الذكاء الحقة، ولا غرابة فى هذه الظروف أن بعضهم يخنق فكرة الحقيقة، فالحقيقة لا تُدرَكَ إلا كغاية يُكدَحُ إليها، ولكن هؤلاء القوم لا يريدون نهاية لبحوثهم. ويتبع ذلك انعدام الفكر فى مسعاهم الفكرى حتى لو أخذنا الذكاء بمعناه الدارج لا بمعناه الأسمى، ولو كنا نتحدث عن 'الولع بالبحث ' فذلك نتيجة أن العاطفة قد تخللت نطاقات لم يكن لها أن تطرقها. ولا ننكر بالطبع وجود العواطف كحقيقة طبيعية ولكنّا ننكر امتدادها غير المشروع، فلا مناص من أن يعرف المرء كيف يضع الأمور فى نصابها ثم يتركها فى موضعها، إلا إن ذلك يستلزم فهم نظام الكون الكلى، وهو ما نأى عن مطال العالم الحديث حيث صارت الفوضى قانونا. وإنكار العاطفية لا يعنى إنكار العاطفة بأكثر مما يعنى إنكار العقلانية إنكار العقل، فليست العاطفية والعقلانية كلتاهما إلا نتائجَ سوء استخدام الكلمات، رغم أن الغرب الحديث يراهما طرفى نقيضٍ وبديلين لا مهرب له من الوقوع فى أحدهما.

وقد ذكرنا سلفًا أن العاطفة قريبة من عالم المادة، ولذا كان التقارب فى اللغة بين الحسى *sensible* والعاطفى *sentimantal*، رغم أنهما لا يختلطان تمام الخلط، فهما صيغتان من المرتبة ذاتها. ويواجه العقل الحديث الظاهر فحسب أو يكاد، أى الحواس والعواطف، إلا إن العاطفة تبدو باطنة بالنسبة إليه، فيسعى إلى المقابلة بين الحس والانفعال كنقائض، لكن كل ذلك لا يعدو أمرًا نسبيًّا، والحق أن 'التحليل النفسى ' ذاته لا يعى إلا الظواهر، أى التحولات السطحية الظاهرية للكائن، وما من شىء عميق حقًّا إلا الشطر الأعلى من الذكاء. وسيبدو ذلك مدهشًا للحدسيين فى أيامنا، والذين لا يعلمون عن الذكاء إلا شطره الأسفل الذى تمثله ملكات الحواس والعقل الاستدلالى وبالمدى الذى يعى به المحسوسات، ويعتقد أنها أكثر ظهورًا من العاطفة، إلا إنها تعنى فى الفكر المتعالى للشرقيين ارتباط العقلانية والحدسية بموجب كونهما من مقام واحد، وغاية جهد الحدسية محصور فى 'ظاهر ' الكائنات، ونتوهم فى الآن ذاته أنها قد طالت شيئًا من طبيعتهم 'الباطنة'. وليس فى كليهما ما يخرج عن المحسوسات، ويختلفان فحسب فى منهاج تناولها وكيفية اعتبارها وأى الجوانب منها أولى بالتقديم، ويجوز القول بأن أحدهما يُفضِّلُ جانبَ 'المادة ' وينزع الآخر إلى جانب 'الحياة'. والحق أن الفكر الغربى عاجز عن التخلص من الحدود التى حَدَّها، فقد عجز اليونانيون عن تحرير أنفسهم من الصور، ويبدو أن الغربيين المحدثين قد عجزوا بدورهم عن تحرير أنفسهم من 'المادة '، وحين يحاولون ذلك فلا مهرب لهم من نطاق 'الحياة'. والحياة والمادة كلتاهما حالة وجود يختص بها العالم المحسوس،

فهما على الرتبة ذاتها كما أشرنا سلفًا. ويتخذ الغرب الحديث العالم المحسوس مناطًا وحيدًا فريدًا للمعرفة سواءً أشاء أن ينتهج منظورًا أم آخر إلى أحوال الوجود، وينكب على الحفر فيه فى أى اتجاه عشوائى، إلا أن النطاق الذى يعمل فيه عقله يظل هو هو على الدوام، ولو تأتى لهذا النطاق أن يتضخم فإنه لا يصل إلى مدى حقيقى حتى باقتراض أن المظاهر ليست وهمية بالكامل. زد على ذلك أن هناك امتدادات متنوعة على مشارف العالم المحسوس تنتمى إلى الرتبة ذاتها من الوجود الكلى، وتعتمد على اختيار المرء لحالة أو أخرى من الحالات التى تشكل هذا العالم، وقد ينجح فى الوصول إلى أحد تلك الامتدادات، إلا إنه يظل حبيس نطاق خاص محدود. وحينما قال برجسون إن المادة هى مناط الذكاء الطبيعى فإنه يسبغ اسم الذكاء على ما يقصده نتيجة جهله بطبيعة الفكر الحق، ولكنه سيكون مصيباً فى تلك التسمية الخاطئة لو لم يقصد سوى الشطر الأسفل من الذكاء، أو بالحرى الغايات التى يتغياها الغرب اليوم من الذكاء. ولكن من الواضح أنه ينحاز جوهريًّا إلى ’الحياة ‘، فالدور الذى يقوم به مصطلح ’التطور الخالق *elan vital* ‘ فى نظرياته أمر معروف، ومعروف كذلك المعنى الذى يضفيه على ما أسماه ’الدوام البحت *pure duration* ‘، إلا إن الحياة مشتبكة تمامًا بالمادة فى أية ’قيمة‘ يعزوها إليها، ودائمًا ما يقصد العالم ذاته فى اعتباراته كافة سواءً أنظر إليه بعين ’العضوى *organicist*‘ أم ’الحيوى *vitalist*‘ أم ’الآلى *mechanist*‘. إلا إن العنصر الحيوى يفوق العنصر المادى عنده عندما يتناول العناصر التى يتكون منها هذا العالم، ومن الطبيعى حينئذ أن تتفوق العاطفة عنده على ما يسميه ذكاءً، أما الحدسيون فى ’تشوهاتهم العقلية‘ والذرائعيون فى ’تجاربهم الباطنة‘ فلا يخاطبون إلا القوى المظلمة للغرائز والعاطفة، والتى يعتبرونها أعمق ما فى الكائنات، وحينما يسترسلون فى أفكارهم أو بالحرى ميولهم إلى غايتها وينتهون إلى ما انتهى إليه ويليام جيمس بادعاء سمو ’اللاوعى ‘ بأشد الانحرافات التى تستعصى على التصديق عن التراتب الطبيعى الذى اتخذته فى تاريخ الأفكار على الإطلاق.

ويدين الحياة بما هى على الدوام طافح بالتغير والتعديل، ويصبح من المفهوم أنها لا بد أن تحتل الصدارة فى منظور الحضارة الحديثة، وهى بدورها غارقة فى التحولات والتبدلات حتى لو تناولناها من جوانب سطحية فحسب. وعندما يحتبس المرء على هذا المنوال فى الحياة والمفاهيم التى ترتبط بها لن يتمكن من معرفة شىء عما لا تطوله التحولات فى مراتب التعالى والمقامات المعصومة فى المبادئ الكلية، وفى حال كهذه تمتنع المعرفة الميتافيزيقية، ونعود مرة أخرى إلى الاستنتاج ذاته عن خصائص الغرب الحديث. ونقول هنا ’التغير‘ لا ’الحركة‘، فالتغير

كلمة أوسع نطاقًا من الحركة التى هى صيغة عضوية أو آلية للتغير فحسب، كما أن هناك مفاهيم تنطوى على صيغ أخرى لا يمكن أن تَرِدَ تحت عنوان الحركة، ويُنظر إليها باعتبارها 'حيوية' بطبيعتها باستبعاد الحركة بمعناها الدارج فى تغير الوضع فحسب. وهنا أيضًا لا تصح المبالغة فى تعارضات بعينها، فهى تبدو صورًا لوجهات نظر محدودة أو ما يقل أو يزيد شيئًا، فالنظرية الآلية *mechanistic theory* على سبيل المثال تدَّعى إمكان تفسير كل ما شرد وورد بمرجعية المادة والحركة فحسب، ولكن لو أننا نظرنا إلى فكرة الحياة بأوسع معانيها لرأينا أن الحركة ذاتها لن تعدو شطرًا منها، وسنرى أن من يناهضون نظرية أو يعادونها متساوون على الحقيقة مع نظرائهم من الفريق الآخر بأكثر مما يمكن أن يعترفوا به[19]، وليس بينهما إلا اختلاف يزيد أو يقل. وعلى كلٍّ فالمفهوم الذى يطرح ذاته باسم 'فلسفة الحياة *philosophy of life*' لا بد أن يكون أيضًا 'فلسفة المصير *philosophy of becoming*'، وتعنى التسمية أنها تحبس ذاتها فى حال الحياة فحسب، ولا تفلت منها كى تتغير وتصير، وهو ما يؤدى إلى حصر موضوعها فى الحياة وإنكار كل ما يمكن أن يخرج عنها أو يذهب ما ورائها، فقد تأطَّرَ العقل المنظومى بحيث يتخيل أنه قد أحاط بكل ما فى الكون الكلى، وهو إنكار رسمى لوجود الميتافيزيقا. وقل مثل ذلك عن التطورية *evolutionism* فى كافة صورها التى تتراوح بين المفاهيم الآلية بما فيها 'التحولية *transforism*' الكثيفة حتى نظريات برجسون، ولا مجال فيها لموضع مثل حال الصيرورة حتى فى شطره المحدود. وليست التطورية بقضها وقضيضها إلا حال تغير يسانده وهم عن اتجاه ونوعية التغير، والتطورية والتقدمية هما الشىء ذاته من حيث النية والغاية، إلا إن المصطلح الأول مفضّلٌ فى أيامنا هذه لأنه يترك انطباعًا 'بالعلمية *scientific*'. والتطورية بمجملها منتج من نواتج المبادئ الحديثة العظمى لخرافتى العلم والحياة، ويرجع نجاحها إلى أن العقلانية والعاطفية يجدان فى رحابها كل رضًا وتكريم، ويرجع تنوع الصور التى تتزيا بها هذه النظرية إلى تغير التناسبات بين النزعتين. ويرى التطوريون التغير فى كل أين حتى فى الذات العلية لو أقروا بها، وليس بيرجسون استثناءً حين يتصور اللّٰه 'مركزًا تنبثق منه العوالم باستمرار، وليس بشىء إلا استمرارية الانبثاق'، ويضيف إلى ذلك 'إن اللّٰه ليس ما صنعوه منه بل هو الحياة المستمرة والفعل والحرية'[20]، أى إنه ليس إلا تلك الأفكار عن الحياة والفعل التى تملك معاصرينا حرفيًّا، وتحشر نفسها حشرًا فى نطاق يسعى لأن يكون تأمليًّا، أى

[19] ويناظر ذلك ما ذكرنا فى موضع آخر عن الصراع بين طريقين تابعين للاعتقاد بواحدية الكون *Monism*، وكان أحدهما روحانى والآخر مادى.
[20] التطور الخالق، ترجمة د. محمود قاسم، دار المعارف.

إنهم يكبتون التأمل لصالح الفعل، وهو ما يجتاح كل أين ويلتهم كل شيء. ويتسقُ هذا المفهوم للذات العلية الذى هو حال سيرورة لا تعالى فيه مع فكرة أخرى عن حقيقة الخلق، والتى ليست شيئًا إلا حدودًا للفكر تخلو من أية حقيقة وليست أمرًا استثنائيًّا فى الفكر الحديث، وقد تبنَّى الذرائعيون مفهوم الرب المحدود كى يناسب دوافع 'الأخلاقيين *moralists* ' وليست اختراعًا يخصهم، فكل ما يدَّعون تطوره ليس إلا أمرًا محدودًا بالضرورة. وتَطرحُ الذرائعيةُ ذاتها باعتبارها 'فلسفة الفعل '، والتى هى إقرار فرضى بأن الإنسان بحاجة إلى نُظُم عملية ومادية وعاطفية، وتعنى إذن الخلاص من الفكر البحت، وحيث إن الأمر كذلك فلماذا العناء فى تدبيج نظريات يقفو بعضها أثر بعض؟ وهذا أمر يعصى على الفهم، ولو كانت الذرائعية ونظرية الشك التى تختلف عنها فيما تعلق بالعمل فحسب تبغيان الاتساق مع شعاراتهما فسوف يكون عليهما أن تقصرا ذاتهما على الميل العقلى، والذى لا تملكا أن تبرره منطقيًّا دون كذب، ولكن لا شك أن من الصعب الاحتباس فى هذه الحدود الضيقة. وأيًّا كان ما بلغه الإنسان من تدنٍ فكرى لن يملك إلا العقلنة فى النظام حتى ينكر العقل على الأقل، أضف إلى ذلك أنَّ الذرائعيين لا ينكرون ذلك كما يفعل الشكاكون، ولكنهم يسعون إلى اختزالها لتقتصر على الغايات العملية الصرف، وشأنهم شأن الذين سعوا إلى اختزال الذكاء بأكمله إلى العقلانية، ودون أن ينكروا عليه وظيفة التنظير، فسقطوا إلى درجة أدنى على درج الانحطاط. وتذهب الذرائعية فى إنكارها إلى أبعد مما ذهب مذهب الشك البحت، والذى لا ينكر وجود حقيقة خارجنا بل ينكر قدرتنا على إدراكها فحسب، أما الذرائعيون فقد قلدوا سفسطائيين يونانيين ربما كانوا يهزلون فى إنكار الحقيقة ذاتها.

وتسير الحياة والفعل جنبًا إلى جنب فى نطاق واحد، وتنتمى الحضارة الغربية بالكامل إلى هذا النطاق الذى يضيق يومًا عن يوم. وقد ذكرنا فى دراسة أخرى منظور الشرقيين إلى محدودية الفعل وثماره، وكيف أنهم يضعون المعرفة مقابلاً معكوسًا للفعل، وفكرة 'اللافعل *non-action* ' فى الشرق الأقصى وفكرة 'التحرر *deliverance* ' عند الهندوس لا يمكن أن يصل إليها العقل الغربى المعتاد، والذى يعجز عن تصور أن يحلم الإنسان بالتحرر من الفعل، ناهيك عن تحقيق ذلك فى الواقع، زد على ذلك أن الفعل يُعتبرُ عادة من حيث صوره الظاهرية القحة التى تناظر الحركة الطبيعية فحسب، ومن هنا تضخمت الرغبة فى السرعة المحمومة التى تميز بها العالم الحديث الذى يتكون من أفعال من أجل الأفعال ذاتها، ولا يسمى ذلك إلا قلقًا وهمًّا، فحتى فى خضمِّ العمل على المرء أن يراعى تراتبًا ويميز أمورًا. ولا أيسر من

بيان كيف لا يتسق ذلك مع كل ما تعلق بالتأمل والتركيز، أو بصيغة أخرى ما تعلق بالوسائل الجوهرية للمعرفة الحقة، فليست إلا انتصارًا للتشتت فى قلب كل شىء رأسًا على عقبٍ بدرجة يصعب تصورها، فهى الدمار المحقق لكل ما بقى من الفكر الحق ما لم ينهض فى وجه هذه الميول القاتلة شىء يوقفها. ولحسن الطالع ينتج ذلك الشر رد فعل عليه، وحتى المخاطر الطبيعية التى ينطوى عليها ذلك النمو السرطانى قد تؤدى إلى مخاوف حميدة، وحقيقة أن نطاق الفعل لا يسمح إلا بإمكانات محدودة للغاية حتى لو بدا أنها على غير ذلك يجعل من المستحيل أن تستمر بلا نهاية، وسوف تفرض قوة الأمور عليها تغيير الاتجاه عاجلاً أم آجلاً. إلا إننا لا ننوى الآن الاعتبار فى مستقبل قد يكون بعيدا. وما نرى الآن هو الحال الراهن للغرب، وكل ما نرى برهان دامغ على التقدم المادى والتخلف الفكرى منتسجين معًا بإحكام، ولا رغبة لدينا فى الحديث عن أيهما كان سببًا للآخر، خاصة ونحن نتعامل مع كُلٍّ معقد تتغير فيه العناصر المختلفة أو تتبادل المواقع. ودون أن نحاول تعقب العالم الحديث منذ بدايته كما ينبغى لو كان علينا طرح المسألة بكاملها، إلا إننا نكتفى الآن بقول أن بخس الفكر البحت وضموره كان نتيجة محتومة للتقدم المادى الذى تجاوز حدودًا بعينها، ولكن بمجرد بداية هذه الحركة فإنها تمتص كافة ملكات الإنسان شيئًا فشيئًا، ويغدو الفكر واهنًا شيئًا فشيئًا حتى يصل إلى الحال المزرية التى نراها اليوم، وربما جاء الزمان بأسوإ منها رغم ما يبدو من صعوبة ذلك. وليس توسع العاطفية غريبًا عن التقدم المادى، إذ ينتمى كلاهما أصوليًّا إلى المقام ذاته، ونعتذر لتكرار العودة إلى هذه المسألة ما لم تُفهَم على وجه صحيح حتى نتمكن من إدراك ما يدور حولنا. ويكافئ تفشى العاطفية تخلف الفكر، وسوف يتفاقم ذلك ما لم يحده أمر حاسم أو يعيد توجيهه، وحيث إن 'العلموية' لا تملك القيام بهذا الدور وهى على قلة حصانتها لعدوى العاطفية، وليس لديها ما تقدم إلا شبهًا زائفًا للفكر.

وقد كانت ما تسمى 'الأخلاقية' من أشد الأعراض وضوحًا لتغلغل العاطفية، وهى ميل إلى إرجاع غاية كل شىء إلى أمور فى المقام الأخلاقى، أو أن تخضع كل شىء لها على الأقل، وخاصة ما يعتبر منها فى نطاق الذكاء. والأخلاقية بذاتها عاطفية بالضرورة، وتمثل منظورًا عرَضيًّا ونسبيًّا بقدر الإمكان، ناهيك عن أن أحدًا لم يعتنقها إلا الغرب، لكن 'الأخلاقية' كما يجرى تعريفها ليست إلا شططًا لهذا المنظور فضلاً عن أنها حديثة الظهور. وأيًّا ما كان أساس القانون الأخلاقى *moral code* أو مدى الأهمية التى تُعزى إليه فليس إلا قاعدة للعمل بها، فالذين لم يعد لهم اهتمام سوى الفعل بحاجة إلى تضخيمه، ومن ثَمَّ يربطون

أنفسهم به بشكل أشد، حيث إن الاعتبارات التى من هذا القبيل تُتَّخَذ باسم الفكر فى حقبة تدهور فيها الفكر. ويفسر هذا مولد 'الأخلاقية'. وقد بدأ ظهور أمر من هذا القبيل فى نهاية الحضارة اليونانية، ولكنه لم يتضخم كما بدا فى التناسبات التى سادت ذلك العصر، ولكن بدءًا من كانط وما تلاه تشبعت الفلسفات الغربية 'بالأخلاقية ' بما يعنى أنها قدَّمت الأمور العملية على الفكرية، وقد جرى اعتبار الأمور العملية من زاوية مخصوصة إلى أن سيطر هذا الميل تمامًا على فلسفات الحياة والفعل التى تحدثنا عنها. وقد ذكرنا التملكات التى انتابت أشد الماديين صلافة، والتى ظهرت فى إهاب مصطلح 'الأخلاقية العلمية *scientific morals*'، وتمثل الميل ذاته تمام التمثيل، وقد تُسمى 'علمية ' أو 'فلسفية ' تبعًا للمذاق الشخصى، ولكنها ليست إلا تعبيرًا عن 'العاطفية ' التى لا يختلف معنى إحداها بدرجة تذكر عن معنى الآخر. والمدهش فيها جميعًا أن المفاهيم الأخلاقية فى أيٍّ من الدوائر الاجتماعية تتشابه بشكل فائق رغم اختلاف أسسها وصيغ دعاواها حتى تبدو أحيانًا نقيضة لبعضها بعضًا. وهذا ما يبرهن على اصطناع تلك النظريات التى يحاول بها الإنسان تبرير قواعد عملية بعينها، وهو ما يراه المرء عادة فيما حوله، والتى لا تربو عن أفضليات مخصوصة عند من يقولون بها أو يعتنقونها، وغالبًا ما تلعب التحيزات السياسية دورًا معتبرا. ولم نعد بحاجة إلى برهان على ذلك سوى ظهور ما يُدعى 'أخلاقيات العوام *lay morals* '، ولا يهم ما إذا وصف 'بالعلمية ' أم 'الفلسفية ' فى إقامته نقيضًا لأخلاق الدين. كما أن المنظور الأخلاقى لا وجود له إلا لأسباب اجتماعية لا غير، وتدخُّلُ السياسة فى النطاق ذاته ليس مما يُستَغْرَب، وربما كانت أهون وقعًا من النظريات 'العلمية ' القحة التى يدفعون بها للغاية ذاتها، ألم تكن العقلية 'العلموية ' ذاتها اختراعًا لخدمة مصالح سياسية؟ كما ينتابنا الشك فى أن نشطاء التطورية أبرياء من نوايا خفية مماثلة. ونضرب مثلاً آخر فى 'علم الأديان ' الذى اتخذ سلاحًا للتعارض لا علمًا سويًّا، وهو من الحالات التى نوهنا عنها سلفًا عندما تُتَّخَذُ العقلانية قناعًا للعاطفية.

ولا يقتصر اجتياح 'الأخلاقية' على نطاق 'العلماء' والفلاسفة فحسب، فلا بد من اعتبار تدهور فكرة الدين من واقع الطوائف التى لا تحصى التى طلعت من البروتستنتية، وهى صور الدين الوحيدة التى تُعَدُّ حديثة بمعنى خاص، وتتسم باختزال متزايد للعناصر المذهبية لصالح العناصر الأخلاقية والعاطفية، وهذه الظاهرة إحدى وقائع تهافت الفكر الحق، وليس من قبيل الصدفة أن تتزامن حقبة الإصلاح مع النهضة التى كانت بداية حقبة الحداثة، وقد أصبح المذهب لا شيئًا فى فروع من البروتستنتية المعاصرة كما حدث بالتوازى مع العبادات التى

ضمُرَت حتى لم يبق منها إلا الجانب الأخلاقى فى 'البروتستنتية الليبرالية'، والتى ليست إلا 'أخلاقية' صريحة تحت لافتة دينية، ولم يعد من الممكن أن تسمى دينًا بالمعنى الصحيح بموجب تخلل العناصر الثلاثة فى تعريف الدين، ولم يبق منه إلا جانب واحد فحسب. ويجب أن يجرى تصنيفها بعد أن وصلت إلى هذه المرحلة كفلسفة مخصوصة أو طريقة قصرية للتفكير، ثم إن غالبية ممثليها نشطاء 'لأخلاقيات العوام'، والتى تتشكل مستقلة بذاتها، كما أنهم معروفون بارتباطهم بها صراحة مما يبين انتماءهم الحقيقى. وقد فضلنا أن نطلق عليها اسم 'الدين الزائف' كما نسمى به كل طوائف 'الروحانيين الجدد *neo-spiritualist*'، والتى تولد وتزدهر فى البلاد البروتستنتية، فالروحانية الجديدة والبروتستنتية الليبرالية تتضحان من الميول ذاتها التى تشكل هذه العقلية. وقد احتل 'التَدَيُّن' محل الدين نظرًا لكبت الفكر البحت أو غياب الدين ذاته فى حالة الأديان الجديدة، أى بمجرد أمل عاطفى غامض لا ثبات فيه، ولا يعدو ذلك التدين بالنسبة إلى الدين إلا كما يعنى الظل بالنسبة إلى الجسد. ونرى هنا آثار 'التجربة الدينية' عند ويليام جيمس، والتى توجهت إلى 'العقل الباطن' على سبيل التعقيد، كما توجهت أيضًا إلى 'الحياة الباطنة *inner life*' بالمعنى الذى يضفيه عليها المحدثون، فليست الحداثة إلا محاولة لطرح العقلية المذكورة داخل الكاثوليكية ذاتها باستثناءات فردية دائمًا ما توجد منعزلة عن كل المؤسسات.

وتعيث 'الأخلاقية' بين الشعوب الأنجلوساكسونية بأقصى ما تملك من شدة كما تعيث فيها الصور المتطرفة لحب الفعل، وهو ما يبين اندماج الأمرين ببعضهما كما أسلفنا. وفى المفهوم الحالى تهكم غريب عن الإنجليز فيما عُرِفَ بارتباطهم بالتراث، والذين يعتقدون بذلك يخلطون بين التراث والعادات، ومن الغريب حقا أن تذهب بعض الكلمات إلى مدى شاسع نتيجة سوء الاستعمال حتى خلط البعض بين التراث وبين العادات الاجتماعية وحتى المواضعات الحديثة دون معنى حقيقى. أما نحن فنرفض أن يُسبَغَ هذا الاسم على جوانب آلية للصور الظاهرة، وليست تلك إلا 'خرافات' بالمعنى اللغوى. فالتراث الحق منظور لشعب أو جنس أو حضارة، وينبثق عن أصول أشدَّ غورًا وعمقًا، والحقيقة أن المنظور الأنجلوساكسونى مناهض للتراث شأنه شأن الفرنسى والألمانى، ولكنه يبدو مختلفًا بعض الشىء، حيث إن الألمان يميلون إلى 'العلموية' وينزع الفرنسيون إلى 'الدراسة الجامعية'، وقليل ما يهم إذا سادت 'العلموية' أم 'الأخلاقية'، فسوف يكون كلاهما بحثًا مصطنعًا للتمييز بين مَيْلين مختلفين يشكلان جانبين للنظرة الحديثة التى تنتشر بين شعوب الغرب بنسب متفاوته، ويبدو اليوم أن الميل 'الأخلاقى'

هو صاحب اليد العليا رغم أن أعوامًا قليلة مضت منذ شوهد تفوق 'العلموية'. إلا إن خسارة أحدهما ليست مكسبًا للآخر، فهما قابلان للتصالح دومًا رغم كل التغيرات، ويربط بينها العقل العام الذى يسع أصنامًا أخرى كالتى تحدثنا عنها. وقد حدث تَبَلُّرٌ للعناصر المختلفة التى تناهض التراث فى المنظور الحديث حول فكرة 'الحياة' وما جرَّ جرَّها مثلما حدث تبلُّرٌ مماثل حول فكرة 'العلم' فى القرن التاسع عشر وفكرة 'العقلانية' فى القرن الثامن عشر. ونحن نتحدث عن أفكار فى حين يجدر بنا أن نتحدث عن كلمات، حيث إن كل ذلك راجع إلى التأثير المنوِّمِ للكلمات. وما يدعى أحيانًا 'أيديولوجية' أو 'فكرانية' ليس إلا لعبًا بالكلمات، ويجوز هنا أن نتخذ كلمة 'خرافة' التى أردفناها من قبل بمعناها اللغوى، أى 'خرافة الأيديولوجية' وهو ما يعنى شيئًا يعيش على ذاته بعد أن فقد غايته الحقة. والحق أن الغاية الوحيدة للكلمات هى التعبير عن الأفكار، ويؤدى إضفاء قيمة على الكلمات ذاتها بغض النظر عن الأفكار إلى فشل فى ربط الكلمات بأى فكرة كانت، ويترك المرء نفسه لتأثيرها بمجرد جرْسِها هو أمرٌ من قبيل الخرافة على الحقيقة. وتكون 'الاسمية أو الأسمائية *nominalism*'[21] بمختلف مراتبها هى التعبير الفلسفى عن إنكار تلك الفكرة التى تحاول تبديلها بكلمة أو صورة تخلط بين المفهوم ورمزه الحسى، والحق أنها لا تبقى على شىء سوى الرمز. وهكذا تضرب الأسمائية فسادًا فى الفلسفة الحديثة رغم أنها لم تكن إلا استثناءً، ولذلك معنى عميق. ونضيف أن الأسمائية ترتبط بالتجريبية عن قرب، أى بالميل إلى التجريب على الحواس خصوصا، وهى أصل كل معارفهم وغايتها. ونعود على الدوام إلى القول بأن إنكار كل ما هو فكرىٍ يكمن فى قاع هذه الميول والآراء جميعًا كعنصر مشترك، فهو على الحقيقة جذر التشوهات العقلية كافة، وهو إنكار لازم كمنطلق فى كل ما يسهم به العالم الحديث من تشويه المفاهيم.

وقد كنا حتى الآن بصدد طرح مشهد عام للأحوال الراهنة فى العالم الغربى من حيث العقلية، ولا بد أن تكون البداية هنا فعليها يعتمد كل ما بقى قوله، ولن يكون هناك تغير مهم دائم ما لم يبدأ بالتأثير على العقلية العامة. والذين يدفعون بعكس ذلك لا زالوا ضحايا الوهم الحديث، ولا يرون إلا التجليات الظاهرة، ويأخذون النتائج أسبابًا ويدَّعون أن ما لا يرونه لا وجود له. وقد كان ما سمى 'المادية التاريخية *historical materialism*' ميلاً إلى عزو كل شىء

[21] مذهب يدفع بأن المعانى لا تحصل فى العقِل إلا إذا أُعطِيت أسماءً ، وأن الأسماء إشارات للمعانى فى العقل ، وليست سوى أصوات تخرج بالنَفَسِ ، وإذا جُرِّدت المعانى من إشاراتها فالأفكار هى الأسماء. وتقول الاسمية العلمية بأن العلم ليس إلا مصطلحات محكمة الصياغة ، أى أسماء يتَّفَّق عليها ، عن د. عبد المنعم الحفنى ، المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة.

إلى حقائق اقتصادية، وهو مثل ناصع للوهم. وقد بلغت الأمور حالاً تضخمت فيه وقائع ذلك النظام فى التاريخ المعاصر، واكتسبت فيه أهمية لم يسبق لها أن وصلت إليها فى الماضى، إلا أن الدور الذى لعبته لن يكون قاصرًا عليها فحسب. أضف إلى ذلك أن الذين 'يحكمون' يعلمون جيدًا أن فاعليتهم تتوقف على قدرتهم على ابتداع تيارات من الأفكار الزائفة، ولا يقصِّرون فى ذلك حتى لو كانت خطلاً محضًا، إلا أنها ذات طبيعة عقلية، وتُبذَر فى عقل الإنسان حتى يحين أوان تحققها، وحتى لو ألقينا بالفكر جانبًا فلا بد أن تقتنع العقول بعدم وجوده وتحول أعمالهم إلى اتجاه آخر. ولا يعنى هذا أننا من الذين يدفعون بأن العالم يسير بالأفكار مباشرة، فهذه صيغة أخرى من الصيغ التى أسىء استخدامها، ومعظم من قال بها لا يكاد يفقه معنى 'فكرة' حتى لو اختلطت تمامًا بالكلمة فحسب. ونقول بصيغة أخرى إنهم ليسوا سوى 'فكرانيين *ideologists*' فحسب، وينتمى أسوأ الحالمين إلى هذا الصنف، والذين كان لهم دور مميت يبعث على الأسى فى أحداث السنوات الأخيرة باسم 'الحق' و' العدالة'، ولا زالت نتائجه تعيث من الفساد ما يجعلنا أكثر إصرارًا على ما نقول. ولكن السُذَّجُ ليسوا وحدهم، فهناك على الدوام من يقودهم دون علمهم، ويستغلهم لتحقيق مصالح وضعية، وعلى كلٍّ فما يهم أكثر من أى شىء آخر أن نعرف كيف نضع الأمور فى نصابها، فالفكرة الصرف ليس لها علاقة مباشرة بالأفعال، وليس لها نفوذ مباشر على أمور الظاهر التى تتعاطاها العاطفية، إلا أن الفكرة هى المبدأ، والمبدأ هو المنطلق الجوهرى لكل شىء، وبدونه لن يكون لأى شىء أساسًا سليما. وإن لم تهتدِ العاطفة بالفكرة فلن تتمخض إلا عن الخطل والفوضى والغموض، ولا جدال فى أننا لا نملك محو العاطفة، ولكننا يجب أن نحصرها فى حدودها المشروعة، وقل مثل ذلك عن كل الأمور العرضية. ويبدو أن إصلاح الفكر الحقيقى هو الطريق الوحيد إلى إصلاح فوضى العقلانية التى تجتاح الغرب حتى لو اقتصرت على صفوة قليلة العدد. ولا يمكن لغير ذلك تشتيت جحافل الأوهام التى تُعَطِّلَ العقول فى الغرب، والتخلص من الخرافات الهزلية التى لا تقوم على أساس، شأن كافة الأفكار العشوائية التى لا غاية لها إلا التهكم الذى لا أصل له. والحق أن كل ما طرحناه لا يصف منظورنا فحسب بل يصدق أساسًا على ما يستحق الاعتبار، فالحكم الذى أصدره الشرقى على الغرب حين حاول مد اهتمامه بالغرب فيما يتجاوز مقاومته السلبية للعدوانية فإن الغرب لا يفهم، ذلك أنها تنطوى على قوة باطنة لا يحتكمون على ما يناظرها، ولا تملك أية قوة غاشمة أن تنتصر عليها. وهذه القوة فيما وراء الحياة، وتسمو على الفعل وعلى كل ما يحدث، ولا شأن لها بالزمن، وهى تنهل من عصمة أسمى، ولو استطاع

الشرقى احتمال الهيمنة المادية للغرب فذلك لأنه يعرف طبيعة الأمور النسبية الزائلة، ولأنه يعى الأبدية فى أعماق كيانه.

4

إرْهَاب وهمى ومَخَاطِر حَقِيقِيّة

رغم التقدير العظيم الذى يضفيه الغربيون على أنفسهم وعلى حضارتهم إلا أنهم يعلمون أن سيطرتهم على العالم كله ليست أمرًا مؤكدا، وربما وقعوا فى قهر أحداث لم يكن بمقدورهم أن يتوقعوها سلفًا ناهيك عن منعها. إلا أن ما يرفضون رؤيته هو أن السبب الرئيس للمخاطر التى تتهددهم تكمن فى طبيعة الحضارة الأوروبية، فلم يسبق حضارتهم سابق فى الاعتماد على النطاق المادى إلا كان نجاحه عابرا، وقد كان التغير هو القانون الجوهرى لذلك النطاق القلق، والذى يُنذِرُ بأوخم العواقب فى كل أين، وسوف تتوالى تلك العواقب بالسرعة التى جرى بها التغير الذى يتغيا سرعة أعظم فأعظم، فالتزيُّد فى التقدم المادى يجر وراءه مخاطر جائحة من نوع ما، والظن أن التقدم فى إنتاج وسائل الدمار والدور المتنامى الذى تلعبه صناعة الحرب وتوقعات المستقبل التى لا تُطَمئِن تتحول إلى يقين باستحالة إنكار هذه الجائحة. زد على ذلك أن أخطر الآليات التى تصنع للقتل ليست أهمها. ولو بدأنا من النقطة التى وصلت إليها الأمور الراهنة فلا حاجة بنا لخيال واسع كى نتصور الغرب يحطم ذاته بذاته، وسواءٌ أ كانَ ذلك بحربٍ ضاريةٍ عملاقةٍ لن تبدو منها الحرب الأولى إلا كَمًّا مهملاً أم كانت نتائج الآثار غير المنظورة لسوء إدارته بحيث يدمر قارة بأكملها لا مجرد مصنع أو مدينة. ولا شك أن هناك أملاً فى أن تبادر أوروبا أو حتى أمريكا فى انتشال ذاتها واستعادة ضبطها لنفسها قبل الوصول إلى تلك النهايات، وقد كانت المصائب الصغرى نُذُرًا لهم عما يمكن أن يعمل على وقف المسار المترنح الذى يؤدى حتمًا إلى متاهة. كل ذلك ممكن خاصة إذا اقترن الخوف بخيبة آمال عاطفية تجعل الجماهير تصحو من وَهْم 'التقدم الأخلاقى'. وقد يسهم تضخم العاطفية أيضًا فى توكيد هذا الأثر الحميد، والحق أنها ملزمة بذلك لو أن الغرب لو ترك لحاله سيبحث عن رد فعل ضرورى آجلاً أم عاجلاً. إلا إن هذه الوسائل لن تكفى حتى تُجبِرَ الحضارة الغربية على تغيير اتجاهها حتى لو كان على الفور، وحيث إن التوازن يعزُّ فى مثل هذه الأحوال فسوف يكون هناك سبب مقبول للرعب من البربرية كنتيجة طبيعية لإنكار الفكر.

وسوف نترك الحديث مؤقتًا عن مستقبل قد يبدو بعيدًا، فمن الواضح أن الغربيين لا زالوا

يؤمنون بأن التقدم أو بالحرى ما يسمونه 'التقدم' قادرٌ على الاستمرار بلا نهاية. ومن ثم يعكفون على وهم أهمية ذواتهم ويبشرون بازدهارٍ يعم العالم بما يفرضه ذلك التقدم بالقوة لو احتاج الأمر على الشعوب التى ارتكبت خطيئة الكفر بوثن 'التقدم' التى لا تُغتَفَر. وقد نوهنا سلفًا عن جنون الدعاية الذى انتاب الإعلام ومخاطره على الكافة وعلى الغربيين على وجه الخصوص، والذين أثاروا الرعب والكراهية فى كل أين نتيجة جنون الانتصار الذى لم يسبق أن تورَّم إلى هذه الحد، ولم يعد بدٌّ من الاختباء وراء أقنعة للنفاق مثلما حدث فى 'الأخلاقية الحديثة'. كما أن الغرب ينسى أنه لم يحتل فى التاريخ زمنا يُقاس بتاريخ الحضارات الشرقية التى وصلت إلى كمالها[22] ولا يعدو الغرب عند الشرقيين طفلا يتيه فخراً بما عرفه من شذرات العلم الأوَّلِىّ، ويعتقد أنه قد ملك الحكمة حتى إنه يسعى لتعليمها لشيوخ ضليعين فى الخبرة. وقد لا تكون هذه الغلطة ضارة بل مسلية إذا لم يكن الغرب يحتكم على قوة غاشمة، ولم يكن استعمالهم لها سيقلب الأوضاع، فهنا يكمن الخطر الحقيقى عليهم وعلى كل من يتماسُّون معهم. والحق أن الغربيين لا يستطيعون تصور ذواتهم فى موضع الآخرين بموجب تفوقهم العقلى أو حتى الجسدى، ولا شك أن الشعوب الأوربية قد تكونت من عناصر غريبة عن بعضها ولا يكونون جنسًا واحدًا بالمعنى الصحيح، وهم أقل الناس ثباتًا على خصائصهم العرقية، وهم كذلك أول من يتخلى عنها عندما ينشأ اختلاط بينهم وبين الأجناس الأخرى، وأينما كان ذلك الاختلاط فإن الأوروبى فى عجزه عن احتواء الآخرين يبادر إلى أن يُحتوى فيهم. أما من الناحية الفكرية فإن الاعتبارات التى طرحناها توًّا تجعل من غير اللازم أن نُصِرَّ عليها، فالحضارة التى لا تكف عن الحركة ولا تراث لها ولا مبادئ تحكمها لا تملك أن تؤثر على الذين امتلكوا هذه الأمور ذاتها، فالغربيون عاجزون عن فهم الأمور الغريبة عليهم، ويصمدون على ذلك بواقع عجزهم العقلى، فى حين يصمد الشرقيون على موقفهم بفضل فكرهم البحت.

وهناك حقائق لا مناص عن تكرارها مرارًا حتى لو لم يستسغها كثير من الناس، فكل المميزات التى يزين بها الغربيون أنفسهم وَهْم صرف باستثناء التميز المادى، فهو واقعى تمامًا ولن يفكر أحد فى ملاحاته، ولكن لا يحسدهم عليه أحد فى الآن ذاته، والمشكلة هى أنهم يسيئون استخدامه، فمن كان شجاعًا بما يكفى ليرى الأمور كما هى عليه فإن الغزوات الاستعمارية لا تملك أن تؤسس ذاتها على شىء غير القوة الغاشمة شأنها شأن أى غزو مسلح، ولنقل إن شعبًا

[22] ويجوز القول بأن هناك حضارات غربية قديمة ، ولكن الحضارة الحالية ليست وارثة لها حتى إن ذكراها درست وفقدت ، ولا مبرر لأن نشغل أنفسنا بها هنا.

يجد نفسه مزدحمًا فى وطنه عليه أن يتوسع على حساب من كان أضعف من أن يُقاوم اجتياحه. ولا نرى حتى احتمالا كيف يمكن منع ذلك من الحدوث، ولكن على الأقل نمتنع عن ادِّعاء أنها مصالح 'حضارة' طاش سهمها. وهذا ما نسميه النفاق 'الأخلاقى'، وهو أمر لاواعٍ فى جماهير الناس يجعلهم وادعين فى قبول كافة الأفكار أيًّا كانت، ولكن ذلك لا يسرى على كل الناس، ولا نملك تصديق أن رجال الدولة على وجه الخصوص ضحية احتيال اللغة التى يتحدثون بها. فحين تستعمر دولة أوروبية بلدًا حتى لو لم يكن فيها إلا قبائل بربرية، فلن يقنعنا أحد بأن غايتهم 'تحضير' هؤلاء المساكين الذين لا رغبة عندهم فيه بأى قدر كان، ويتبع هذا الاكتشاف المكلف أعمال الخدمات العامة كافة. ولا بد أن يكون المرء ألمعيًّا كى يدرك أن الدافع مختلف تماما، وليس إلا الأمل فى أرباح دسمة. والغاية الرئيسة أيًّا كانت الأسباب المعلنة هى استغلال البلاد وسكانها فى الآن ذاته، فهم لن يحتملوهم لو ظلوا يعيشون بطريقتهم حتى لو كانوا مسالمين. وحيث إن كلمة 'استغلال *exploit*' تبدو كلمة قبيحة فإننا نتحدث عن 'تنمية موارد البلاد'، وهو الشىء ذاته بحذافيره، ولكن تغير الكلمة هو كل ما يلزم كى نحمى العامة من الصدمات، وعندما يتم الغزو بنجاح يطلق الأوروبيون العنان لقوى البروزيليتية التى يحتاجون إليها. وتدفع كل أمة بطريقتها المخصوصة فى العمل، فيقوم به بعضهم بقسوة وبعضهم باعتدال، والواضح أن الثانى أكثر ذكاءً من الأول. والنتائج المتحصلة لا تعدو أن حضارة قوم بعينهم ليست مصنوعة لآخرين لهم عقليات مختلفة، فربما كان الضرر هينًا فى حالة المتوحشين إلا أن التقمص الظاهرى بالحضارة الغربية يجعلهم أكثر ميلا لتقليد شرورها أكثر مما قد يكون فيها من خير. ولا نية لدينا فى الإصرار على هذا الجانب من المسألة ونطرحها بشكل عرضى فحسب، إلا أن الخطر الأكبر هو أن الأوروبيين حين يجدون أنفسهم وجهًا لوجه مع شعوب متحضرة، فإنهم يعاملونهم كما يعاملون المتوحشين ويجعلون من أنفسهم كائنات لا تُحتمل، ونحن لا نتحدث فقط عن فاقدى النزاهة الذين يشكلون المستعمرين والإداريين فحسب ولكن الأوروبيين جميعًا بلا استثناء. ولا بد أن تكون عقول الذين لا يكفون عن الكلام عن 'الحق' و'الحرية' فى حال غريب عندما ينكرون على حضارات غير حضارتهم حقها فى وجود مستقل، وهو كل المطلوب فى معظم الأحوال. وهناك كثير من الشرقيين لا يمانعون فى أن تحكم بلادهم إدارات أجنبية شرط ألا تتعرض لمؤسساتهم التراثية، فهم قليلا ما يأبهون للعوارض المادية، وإذا خاطر الأوروبيون بذلك أصبح حكمهم لا يُطاق. فالغربيون أشد عداوة للروح التراثية ذاتها عن أى أمر آخر، وكلما زادت خشيتهم منها كلما

فشلوا فى فهمها فلا نظير لها عندهم، ويخافون من كل ما دار وراءهم، وتنتهى كل محاولاتهم فى هذا الشأن إلى لا شىء، ففيها قوة لا يستطيعون التكهن بمداها، ولو أدى إهمالهم إلى مشاكل فلا يلومون إلا أنفسهم. ثم لماذا يسعون إلى إجبار كل الناس بالاهتمام بما يهتمون به قصرًا دون غيره؟ وأن يضعوا المصالح الاقتصادية فوق أية مصلحة أخرى؟ أو يتبنون نظامًا سياسيًّا يفضلونه على كل ما عداه حتى لو كان أفضل النظم عند بعض الشعوب فإن ذلك لا يجعله كذلك عند الكافة؟ وأغرب ما فى الأمر أنهم يدَّعون الحقوق ذاتها للشعوب التى قهروها وكذلك الشعوب التى استطاعوا التغلغل فيها بما يبدو احترامًا لاستقلالها، والحق أنهم يعملون لفرض هذه الادعاءات على بنى الإنسان جميعا.

وإن لم يكن الأمر كذلك لما قامت عداوة فى وجه الغربيين، ولكانت العلاقات بينهما طبيعية مثل التى تقوم بين شعب وآخر. وسوف يقبلهم الناس بما هم عليه بخيرهم وشرهم، ورغم الأسف الذى قد يتبدى لعدم وجود علاقات فكرية حقيقية فلن يحاول أحد تغييرهم، فالشرقيون لا يأبهون للبروزيليتية الغربية بشَرْوَى نَقير، وحتى الشرقيون المنغلقون على كل ما كان غريبًا عنهم مثل الصينيون على سبيل المثال لن ينزعجوا لو سكن بينهم أفراد أوروبيون لأغراض تجارية ما لم يعلموا أنهم يُعرِّضون أنفسهم لاجتياح يتبع ما بدا فى أول الأمر لا غبار عليه. والصينيون هم أكثر الشعوب فى العالم مسالمة، ونقول 'مسالمة *pacific*' وليس 'ادعاء السلام *pacifist*'، فلا حاجة بهم إلى الطنطنة بنظريات إنسانية بليغة، وليس ذلك إلا لأن طبيعتهم تنفر من الحرب وليس إلا. ولو كان ذلك يُعَدُّ ضعفًا بمعنى نسبى إلا إن الجنس الصينى فيه قوة من نوع آخر تعوض ذلك الضعف، ولا شك أن الوعى بها يجعل هذه الحال العقلية المسالمة أمرًا ممكنًا، وهو جنس موهوب بقوة استيعاب حتى إنه استطاع هضم الغزاة الذين توالوا على تاريخه، وقد أنجزوا ذلك بسرعة لا تُصَدَّق كما يذكر التاريخ. وليس هناك ما هو أكثر خطلا من الإرهاب الوهمى عن 'الخطر الأصفر' الذى اخترعه ويليام الثانى، والذى رمز إليه فى أحد صوره 'الأسرارية' التى كان يمضى وقت فراغه فى رسمها. وقد استلزم الأمر جهلا مثل الذى أصاب الغربيين بالعجز عن رؤية كيف يختلفون عن باقى بنى الإنسان كى يتخيل الصينيين وقد حملوا السلاح وزحفوا لغزو أوروبا[23]، ولو حدث غزو صينى فلن يكون إلا نفوذًا سلميا، إلا أن ذلك خطر بعيد الاحتمال. ولو كان للشرقيين عقلية تضاهى الغربيين فإن

[23] وقد تبين من مسار الأحداث التى جرت منذ نشر هذا الكتاب لأول مرة 1924 حتى ترجمته 2001 أنها تناقض هذا الرأى ، ولكن لا بد من الوعى هنا بأن ' الصين الثورية' هى التى أنكرت تراثها ذاته ومن ثم لجأت إلى العنف. *SP, Ed.*

الحماقات الكريهة التى اتُّهِموا بها علناً فى كل مناسبة تُعَدُّ دافعًا كافيًا لإعلان الحرب على أوروبا، ويكفى الغرب ما هو أهون من ذلك كثيرًا لكى يبرر التدخل المسلح، ولكن الشرقيين لايأبهون لهذه الأمور. ولم يجرؤ أحد على حد علمنا أن يذكر حقيقة الأحداث التى جرت عام 1900، وها هى باختصار، فلم تكن مناطق سكنى الأوروبيين فى بكين خاضعة للسلطات الصينية، وقد اجتمعت طغمة من اللصوص فى المبانى المجاورة للجالية الألمانية فى حماية الإرسالية اللوثرية للتبشير، وقد اعتادوا الانتشار فى المدينة لكى ينهبوا ما استطاعوا، ثم يعودون بغنائمهم إلى حيث لا يملك أحد أن يتبعهم، فهم واثقون من حصانتهم، ولما فاض الكيل بسكان المدينة هددوا بالهجوم على حى الجالية الألمانية للقبض على اللصوص المحتمين بها، وأراد الوزير الألمانى أن يمنع ذلك فانكب على تفريع المتظاهرين ولكنه قُتل فى الهياج، وتشكلت على الفور حملة للانتقام فى كل الأحياء الأوروبية بما فيها الإنجليزية، وانساقوا فى تأييد ألمانيا حتى إن شبح 'الخطر الأصفر' قد وجد غرضًا يخدمه. ومن نافلة القول أن اللصوص قد فازوا بأرباح طائلة نتيجة ذلك التدخل خاصة من وجهة النظر 'الاقتصادية'. ولم تقتصر الأرباح التى تمخضت عن هذه المأساة على الدول الأوروبية ككل، فنحن نعرف أشخاصًا وُضعوا فى أعلى المراتب مقابل خدمتهم العسكرية المتميزة. ولا حاجة للكلام عن 'الخطر الأصفر' الذى يقبع فى أقبية المستوطنة الألمانية.

وربما دفع البعض بأن اليابانيين كذلك ضمن الجنس الأصفر وهم على وجه اليقين شعب محارب، وهذا صحيح إلا أن اليابانيين كانوا خليطًا تفوقت فيه العناصر التى أتت من شعوب الملايو، ولا ينتمون إلى الجنس الأصفر بالمعنى الصحيح، ولا مناص من أن يختلف تراثهم عن الصينيين. ولو كانت اليابان اليوم تطمح إلى الهيمنة على آسيا بكاملها لتنظمها بطريقتها فذلك بسبب الشنتوية، وهى تراث يختلف تمامًا عن الطاوية الصينية ويعلى من شأن الحرب بتقديس شعائرى، وقد تماس مع مفهوم القومية الذى تعلمه من الغرب، فلم تكن مهارة اليابانيين إلا فى التقليد، فتحولوا إلى إمبراطورية على غرار ما يوجد فى بلاد شتى، ولو عكف اليابانيون على هذه المهمة فسوف يلقون على الأرجح مقاومة بالقدر الذى يلقاه الأوروبيون. والحق أن الصينيين لا يكنون كرهًا لأحد مثل كرههم لليابانيين، ولا شك أن ذلك راجع إلى أن جيرانهم اليابانيين يبدون لهم خطرين وعدوانيين، ويخشونهم مثلما يخشى المرء كل من يتوقَّع منه إزعاجا، ولا يلقى ما يسمى 'التقدم' الغربى تقديرًا فى الشرق إلا فى اليابان، وتتضخم قيمة هذا التقدير نظرًا لأنهم يعتقدون أن التقدم سوف يعينهم على إنجاز طموحاتهم التى نوهنا عنها،

ورغم ذلك فإن سباق التسلح حتى لو اقترن بأعظم طرق القتال لا يتغلب قطعًا على قوى بعينها من مقام آخر. وقد فهم اليابانيون ذلك من تجربتهم فى فورموزا، كما أنهم لا يجدون فى كوريا فريسة سهلة. والحق أن انتصار اليابان السهل فى فورموزا الذى لم يعلم عنه معظم الصينيين شيئًا إلا بعد نهاية الحرب ترجع إلى ظروف عرضية، فقد كان هناك عناصر تعادى حكم أسرة مانشو، وكانوا يعلمون تمامًا أن هناك قوى أخرى سوف تتدخل قبل أن تستفحل الأمور. وتكتسب كثيرًا من أحداث الحروب والثورات فى بلاد كالصين أوجهًا مختلفة بحسب بعدها أو قربها، والغريب أن بعد المسافة يُضخم الموضوع، فتراه أوروبا أمرًا جسيمًا فى حين يتضاءل فى الصين إلى مجرد أحداث محلية.

ويعمل الوهم البصرى ذاته حينما يضفى الغربيون أهمية قصوى على الأقليات المضطربة التى تتكون من شخصيات لم يسمع بها مواطنوهم أصلا ويجرى تجاهلهم على كل حال. ونشير هنا إلى أفراد قلائل مثل الذين يظهرون فى البلاد الشرقية فى هذا الزمن، والذين تعلموا فى أوروبا وأمريكا تعليمًا أفقدهم حاسة التراث، ولا يعرفون شيئًا عن حضارتهم، ويظنون أن من الصواب تطبيق أشد طرق 'الحداثة' تطرفا. وهؤلاء 'الشباب' الشرقيون كما يسمون أنفسهم لن يتمكنوا من فرض سلطان حقيقى على الشرق، وهم دُمًى لا تعى ذاتها تلعب دورًا لا تعرف عنه شيئا، وتتحرك بسهولة نظرًا لأنها جادة للغاية، كما يحدث حينما يستعيدون صلاتهم بجنسهم أن يستعيدوا احترامهم بالتدريج، ويعرفوا أن ادعاءاتهم كانت نتيجة جهلهم فحسب، وينتهون كشرقيين مرة أخرى. وهذه العناصر مجرد استثناءات من مرتبة دنيا، وتصنع جلبة تكفى لكى يصبحون أخبارًا ساخنة فى بلاد أخرى، فيلفتون أنظار الغربيين الذين يتعاطفون معهم، وينسون الجماهير الصامتة التى لا وجود لهذه الأقلية بالنسبة إليها. ولا يأبه الشرقيون الحقيقيون للشهرة بين الأجانب، وقد راعتنا أخطاء لهذا السبب فى سهولة اختيار الغربيين لكاتب أو آخر بلا كفاءة ولا سلطة كمرجع للفكر الشرقى، كما أنهم غالبًا ما يكونون على قوائم رواتب سلطة أوروبية ويروجون لأفكار غربية فجة. وتؤخذ كلماتهم على عواهنها بناءً على أسمائهم الشرقية وما من سبيل لمقارنتهم بغيرهم، فتعزو آراء هذه القِلة إلى مواطنيهم كافة، والتى غالبًا ما تنأى بشوط واسع عن الفكر الشرقى، وتقتصر منتجاتهم بالطبع على الجمهور الأوروربى أو الأمريكى، ولا يسمع أحد فى الشرق عنهم.

ولا يسترعى التقدم المادى انتباهًا فى معظم بلاد الشرق سوى فى حالة الاستثناءات المذكورة وكذلك المفهوم العام فى اليابان حيث إن من المعلوم أن له ميزات قليلة وسوءات

كثيرة، ولكن الشرقيون يقفون منها على مسلكين مختلفين، وقد يبدو فى الظاهر أنهما متعارضان إلا أنهما نابعان من المنظور ذاته. فهناك من لن يحتمل السماع عن التقدم المزعوم بأى ثمن، ويلجأون إلى قوقعة المقاومة السلبية ويعيشون كما لو كانت لم توجد قط، ويرى الجانب الآخر أن هذا التقدم ليس إلا ضرورة لا تسر وقد فرضتها ظروف لن تدوم، ويفضلون قبولها مؤقتًا على مضض لسبب واحد بسيط هو الآلات التى يضعها تحت تصرفهم كوسائل لمقاومة الهيمنة الغربية والتعجيل بنهايتها بشكل فعّال، ويسرى هذان التياران فى شرق آسيا والصين والهند والبلاد الإسلامية. وإذا كان يبدو فى الاتجاه الحاضر غلبة التيار الثانى على الأول فمن العجلة استنتاج وجود تغير عميق فى نمط الوجود الشرقى، فليس الخلاف إلا على مسألة التوقيت فحسب، ولن يقوم على هذا الأساس تجديد حقيقى للعلاقة بين الشرق والغرب بل على العكس تماما. ورغم أن بعض الشرقيين يسعون إلى دفع التنمية الصناعية فى بلادهم حتى تتمكن فى المستقبل من الصراع مع الأوروبيين دون احتياج لمواردهم، ويقابلونهم على الساحة ذاتها التى يمتد إليها نشاطهم، إلا أننا ندفع بأنهم لم يتخلوا عن شىء من جوهر حضارتهم. زد على ذلك أن التنافس الاقتصادى يمكن أن يتحول إلى صراع ما لم يتم التفاهم فى مستوى آخر من منظور أعلى. إلا أن هناك شرقيين قلائل قد توصّلوا إلى النتائج التالية، حيث إن الغربيين قطعًا لا يُحاسَبون بالفكر فلا داعى لذكره، ولكن علاقات الصداقة يمكن أن تجرى بشكل اقتصادى صرف مع بعض الناس فى الغرب. وهذا وهم بدوره، فإما كان التفاهم فى نطاق المبادئ من أول الأمر بما يسهل حل المصاعب الثانوية بشكل آلى، وإما لا حقيقة للاتفاقات من أى نوع كان، وعلى الغرب أن يخطو الخطوات الأولى فى تجديد العلاقات الفكرية حيث إن سوء الفهم كان مصدرًا لكل المصائب.

وقد يحسُنُ بالغربيين أن يتعودوا على رؤية السبب فى أخطر سوء تفاهم حدث فى التاريخ فى أنفسهم، وأن يتخلصوا من فكرة ذلك الإرهاب الساحر الذى كان 'الرعب الأصفر' مَثَلهُ المتطرف. وقد ارتفعت كذلك مخاوف 'الإسلامية *Pan-Islamism*' بدون اعتبار للحقائق، ولا شك فى هذه الحالة من وجود أساس للمخاوف، فالعالم الإسلامى وسيط بين الشرق والغرب، ويجمع فى ذاته خصائص من كليهما، فهم مثلا أشد إقبالا على الحرب من الشرقيين الأقحاح، ولكنهم فى النهاية لا يبالغون فى ذلك. والإسلامية الحقة مبدئيًّا تسليم بمبادئ، وهى بالضرورة مذهبية، ويعنى اتخاذها شكل الحركة السياسية أن الأوروبيين قد تآمروا على أنفسهم فى كل حال، ولا شأن لها 'بالقومية *nationalism*' التى لا تتفق مع مفاهيم الإسلام. والحقيقة فى

معظم الأحوال وفى شمال أفريقيا خصوصا، كانت السياسة الثابتة 'للمخزن *association*' هى احترام الشريعة الإسلامية بكاملها، وهو ما يعنى قطع الطريق على كل محاولات 'الهضم *assimilation*'، وربما كانت تكفى لدرء مخاطر محتملة. ولنأخذ مثلا فى الشروط التى يجب توفرها للحصول على 'الفَرْنَسَةِ *Frensh naturalization*' والتى تربو إلى الكفر الصراح بالدين الإسلامى، كما أن هناك أمور شتى من القبيل ذاته، ولا شك أن هناك كثير من المشاكل والقضايا التى يمكن تجنبها بفهم حقيقى للواقع. ولنقل مرة أخرى أن الأوروبيين عاجزون عن الفهم تماما. ولا يجب أن يغيب النظر عن أن الحضارة الإسلامية فى كل عناصرها الجوهرية تراثية صرفة، وشأنها شأن الحضارات الشرقية جميعا، وهذا سبب كاف ليمنع 'الإسلامية' من الارتباط بالحركات البلشفية أو غيرها، وهو ما يخشاه شخص أو شخصان لا يعلمان شيئًا عن الحقيقة. ولا نرغب فى تناول البلشفية الروسية فى سياقنا، فهى أمر صعب فيما يخصنا هنا، ولا شك أن الحقيقة تختلف عما تواتر عنها عموما، وأكثر تعقيدًا مما يعتقد نشطاؤها ومناهضوها على السواء، ولكن من المؤكد على وجه اليقين أنها تناهض التراث، وهى بالتالى منظور غربى حديث تماما. ومن العبث الفائق ادعاء أن العقلية الألمانية أو حتى الروسية تناقض منظور الغرب على الحقيقة، ولا نعلم ماذا تعنى الكلمات عند الذين يدفعون بهذا الرأى، وكذلك عند الذين يدفعون بأن البلشفية 'آسيوية' المنشإ، والحق أن ألمانيا هى أشد الدول ميلا إلى دفع المنظور الغربى إلى أقصاه، أما الروس رغم ملامحهم الشرقية فهم بعيدون عن الفكر الشرقى بأقصى ما يكون. ونضيف إلى ذلك أنه حين نتحدث عن الغرب فإنه يشتمل على اليهودية، والتى لم تسهم إلا بما كان فى اتجاه غربى فح ربما ساعد فى تشكيل العقلية المعاصرة عموما. والحق أن الدور الذى لعبه الإسرائيليون فى البلشفية سبب خطير الشأن للشرقيين عمومًا والمسلمين خصوصًا لعدم الثقة بهم والابتعاد عنهم، ونحن لا نتحدث عن نمط المهيجين من حركة 'الأتراك الشباب' ومن جرَّ جرهم، وهم غرماء الإسلام بالمعنى الكامل، ومعظمهم من أصل يهودى، ولا سلطة لهم من أى نوع. كما أن البلشفية لا تملك النفاذ فى الهند بموجب أنها نقيضة لكل مؤسسات التراث، وخاصة نظام الطبقات، ويرى الهندوس من هذا المنظور أن آثارهم المدمرة لن تزيد عن آثار الإنجليز التى ارتكبوها بكل الطرق الممكنة، وحيث فشل واحد فلن يلقى الثانى نجاحًا يذكر. أما الصين فقد نضب تعاطفها تمامًا مع كل ما كان روسيا، زد على ذلك أن المنظور التراثى مستقر فيها أكثر من البلاد الشرقية الأخرى، ولو كانت أوضاع أمورٍ بعينها مسموحًا بها مؤقتًا فذلك لأن قدرة الجنس الصينى على الامتصاص هى التى تنقلب

لصالحها فى النهاية رغم الفوضى العابرة. والحق أن ذكر وجود عصابات مرتزقة قليلة فى روسيا لا يتخيرون عن اللصوص، وأن الصينيين كانوا سعداء بالخلاص منهم على نفقة جيرانهم حتى نضفى بعض المصداقية على أسطورة اتفاقات يستحيل وجودها، وحين يدَّعى البلاشفة أنهم كسبوا أبطالا بين الشرقيين فإنما يفاخرون كذبًا أو يخدعون أنفسهم، والحقيقة أن بعض الشرقيين يرى فى بلاشفة روسيا وغيرهم وسيلة تعينهم على سيطرة قوى غربية أخرى، ولكن لا خلاق لهم بالفكرة البلشفية ذاتها، كما أنهم عندما يفكرون فى اتفاقية أو تحالف مؤقت يبدو مقبولا فى ظروف خاصة فذلك لأنهم يعلمون جيدًا أن تلك الأفكار لن تتمكن من التجذر فى بلادهم وإلا ما أظهروا لها ترحيباً بأقل درجة. وقد يمكن لدولة أن تقبل معاونين لا ينتمون إلى فكرها من واقع سيرورة الأحداث، ولا تشعر تجاههم باحترام ولا تعاطف، والبلشفية عند الشرقيين الحقيقيين لا تتخير عما يأتى به الغرب، ولن يكونوا سوى قوة غاشمة بأى طريق كان، ولو كانت تلك القوة تخدم أغراضهم مؤقتًا فسوف يرضون بها، ولكن يمكن أن نطمئن إلى أنهم سوف يتخذون الخطوات اللازمة للتخلص منها بمجرد أن تفرغ جعبتها. أضف إلى ذلك أن الشرقيين الطامحين إلى الإفلات من الهيمنة الغربية لن يوافقوا قطعًا على وضع أنفسهم فى موقف قد يؤدى إلى سقوطهم تحت نفوذ غربى آخر، ولن يكسبوا شيئا من التغير حيث إن طبيعتهم تناقض كافة المبادرات المحمومة، وسوف يفضلون على الدوام انتظار ظروف سانحة حتى لو كانت بعيدة عن أن يعرضوا أنفسهم للمخاطر.

وتفسر هذه الملحوظة الأخيرة لماذا لم يحلم الشرقيين الذين يطمحون إلى التخلص من النفوذ البريطانى باستغلال حرب 1914 لهذا الغرض، فقد كانوا يعلمون تمامًا أن ألمانيا حال انتصارها سوف تفرض عليهم حمايةً مُقَنَّعةً عليهم أن يتجنبوها بأى ثمن. ويعلم الشرقيون الذين يعرفون الألمان عن قرب أنهم لن يتفقون معهم بأكثر من اتفاقهم مع الإنجليز، وقل مثل ذلك عن الروس، إلا أن ألمانيا بمؤسساتها الرهيبة تثير من المخاوف أكثر مما تثيره روسيا. ولن ينحاز الشرقيون قَطُّ إلى أية قوة أوروبية تسعى إلى إخضاعهم، أما القوى الأخرى فسوف يتمسكون بالحياد حيالها. ونحن نتحدث بالطبع من منظور سياسى فحسب، وبالمدى الذى يخص الجماعات والدول، وسوف تظل هناك على الدوام حالات فردية من التعاطف أو الكراهية خارج هذه الاعتبارات، فعندما نتحدث عن عجز الفهم الغربى فإننا نعتبر فى العقلية العامة فحسب لا فى الاستثناءات المحتملة. كما أن تلك الاحتمالات نادرة للغاية، إلا أن الذين يرغبون فى إقامة علاقات سليمة بين الشرق والغرب كما هو حالنا فلا بد من بداية لدعم هذا الاتجاه بكل

الوسائل الممكنة أيًّا كانت كفاءتها. وأول هذه الوسائل لمن يستطيع فهمها توضيح الأحوال اللازمة لهذا الإصلاح.

وقد نوهنا سلفًا إلى أن هذه الشروط الفكرية سلبية وإيجابية فى نفس الآن، فلا بد من تحطيم التحيزات كافة حيث إن كلاًّ منها عقبة بذاتها، وهذه الغاية جوهرية فى كافة الاعتبارات التى طرحناها، ثم لا بد من إصلاح الفكر الحق الذى فقده الغرب، والذى يمكن أن تعمل الدراسة القويمة الجادة للفكر الشرقى على استرجاعه. أى إنه لا بد من إصلاح المنظور الغربى تمامًا على الأقل فيما تعلق بالغاية الأسمى التى يتعين الوصول إليها، والتى لا يمكن إلا أن تقتصر على صفوة محدودة، ولا يحتاج الأمر إلى أكثر من ذلك لكى تثمر جهودها عاجلا أم آجلا نظرًا للنفوذ الذى يمكن أن تبثه هذه الصفوة فى العالم الغربى حتى دون السعى إليها مباشرة. وغالب الظن أن هذا الاحتمال هو الوحيد الذى قد ينقذ الغرب مما يعتقد أنه مخاطر حقيقية، وهى ليست ما يعتقد الغرب أنها كذلك، وسوف تتضخم لو استمر الأمر على منواله الحالى. كما سوف تكون الطريق الوحيد للحفاظ على كل ما يستحق البقاء من الحضارة الغربية، أى ما قد يكون بقاؤه متناسبًا مع الذكاء الطبيعى بدلا من ترك كل شىء فى مهب جائحة توقعناها فى بداية هذا الباب دون أن نتطرق إلى أى تكهن كان. أضف إلى ذلك أن الصفوة لو كانت فكرية حقًا بالمعنى الصحيح سوف تكون هى الوحيدة القادرة على منع البربرية من العودة لو توفر الوقت للتأثير بعمق على العقلية العامة، وسوف تنقذ الغرب من أن يُمتص بكامله فى حضارات أخرى. وهو احتمال أهون بكثير من سابقه، ولكن ستتمخض عنه بعض مساوئ لبرهة من الزمن بفعل الثورات الإثنية التى سوف تقود هذا التغير. ولا بد أن نوضح موقفنا عند هذه النقطة قبل الاستطراد، إننا لا نعادى الغرب ذاته بل المنظور الحديث فحسب، والذى نرى فيه سبب دمار الفكر الغربى، ولا أحب إلينا من إعادة تأسيس حضارة غربية حقيقية على أسس طبيعية، فتنوع الحضارات الذى عاش على الدوام منتجًا طبيعيًّا للتنوع العقلى الذى تتميز به الأمم، ولا يجُبُّ تنوع صورها إمكان الاتفاق على المبادئ، فالمعية والاتساق لا تعنى التماثل، والاعتقاد بغير ذلك يعنى الارتكاس إلى النظريات الحالمة للمساواة التى نشجبها. فالحضارة الطبيعية كما نفهمها قادرة على النمو دون أن تشكل خطرًا على غيرها من الحضارات بناءً على وعيها بموضعها الطبيعى بينها، وسوف تعرف كيف تلتزم بها دون أية عداوة، ولن تعانى من عدم ادعاء تَسَنُّم القيادة، وتستنكف البروزيليتية. ولن نخاطر بادعاء أن الحضارة الغربية سوف تتساوى فكريًّا مع الحضارات الشرقية، فالغرب القديم كما يقدمه التاريخ

لا يبدو مساويًا لها، اللَّهم سوى فى مدارس أسرارية لا نملك الحديث عنها بأية درجة من اليقين، إلا إن هناك بعض الأمور التى لا تُهمَل، والتى يخطئ معاصرونا تمامًا بتجاهلها. أضف إلى ذلك لو أن الغرب وصل إلى تحقيق علاقات فكرية مع الشرق فلن يكون هناك ما يمنع أن تميز بتلك الأمور أثناء استكمال ما ينقصها، وأن تستفيد من الدروس أو الإلهامات التى يمكن بها التفاهم مع الغير دون التخلى عن الاستقلال، وعلى الأخص دون ركون إلى الاستعارة منهم فحسب، وتعلم كيف تُلائِمُ بين حضارتها وما اكتسبته من غيرها حتى تظل متسقة مع عقليتها. وننوه مرة أخرى إلى أن هذه احتمالات بعيدة ونحن ننتظر عودة الغرب إلى تراثه، وربما لا يوجد طريق آخر للإعداد لهذه العودة والحفاظ على ما كان جوهريًّا فيها أكثر من مجرد التشاكل مع الصور التراثية التى لا زالت تعيش حتى اليوم، وهذا أمر يمكن دراسته مباشرة. وسوف يقترب الغرب بفهم الحضارات الشرقية إلى طرقه التراثية التى أنكرها باندفاع، فى حين أن العودة إليها فى ذاتها ستؤدى إلى تأسيس علاقة مع الشرق. وهذان أمران مرتبطان ببعضهما أيًّا كانت وجهة النظر إليهما، فهما مرغوبان على حد سواء إن لم يكونا جوهرين. وسوف يتضح ذلك فيما سنعرض له، ولكن لا بد من فهم أننا لا ننتقد الغرب من أجل النقد، ولا بغرض فضح تدنيه الفكرى بمقارنته بالشرق، ولو كان العمل الذى يتعين أن نبدأ به يبدو سلبيًّا فى معظمه فذلك لأن الأرض يجب أن تُمَهَدَ أولا قبل البناء عليها. ولو أن الغرب نبذ تحيزاته فسوف يكون أكثر من نصف العمل قد اكتمل، فلن يتعثر تكوين الصفوة الفكرية، ولن يجد الذين يحتكمون على الملكات اللازمة حواجز من الأحوال الراهنة لكى يتقدموا فى تنمية مواهبهم بدلاً من أن تختنق بالتركيبات أو قل الانحرافات العقلية التى تفرض نفسها حاليًّا على كل من لا يجد فى نفسه شجاعة لكى يضع ذاته خارج نطاق ومراتب المواضعات. كما أن الاعتبار فى بلاهة التحيزات المذكورة سوف يكشف عن بعض الفهم الإيجابى، وربما كان الوصول إلى هذه الدرجة أصعب من السير فيها بعد الوصول، فالذكاء المحكم والحقيقة أيًّا كان مقامها لا بد أن تُدرَكَ بيسر عن كافة غوامض 'الحكمة الدنيوية' التى يعجب شأنها العالم الحديث.

كَيفَ يُمكِنُ تَجَاوُزُ الاخْتِلاَفِ

1

مُحَاوَلاتٌ لَم تُثْمِر

إننا لا نأتى بجديد فى اعتبارنا لفكرة تجديد العلاقات الفكرية بين الشرق والغرب، كما أننا لا نرغب فى تحسينها فى عيون الناس، فليس التجديد إلا احتياجا للتغيير من أجل التغيير فحسب، وقد كان زرع فكرة 'الأصالة' بمعنى الفرادة التى نتجت عن الفكر الفردى الذى يقارب الفوضى سمات تنتمى قصرًا إلى العقلية الحديثة كعلامات ظاهرة لمناهضة التراث. والحق أن فكرة التجديد لا بد قد خطرت لكثير من الغربيين، وهو ما لا يَجُبُّ قيمتها وأهميتها، ولكن وجب علينا مواجهة واقع أنها كانت بلا جدوى، وأن المعارضة قد اشتدت مع الوقت كنتيجة محتومة لخروج الغرب عن مساره. كما أن الغرب وحده مسئول عن بُعْدِ الشقة المتزايد، إذ إن الشرق لم يختلف قط جوهريا، وقد تهافتت كل المحاولات التى لم تضع فى حسبانها تلك الحقيقة. وكان الخطأ الأكبر لهذه المحاولات أنها اتجهت إلى خطوط بعكس الاتجاه الذى يؤدى إلى نجاح، وعلى الغرب أن يتقرب إلى الشرق حيث إنه هو من شردَ، وسوف تذهب محاولاته فى جعل الشرق يتقرب إليها أدراج الرياح، فالشرق لا يجد سببًا لكى يغير اليوم ما لم يغيره من قرون خلت، ولم يكن شك فى أن الشرقيين سوف يستبعدون التلاؤمات التى تتسق مع المنظور التراثى عن التفاهم، ولكن إذا جاء من يقترح تغييرها فذلك يربو إلى انقلاب نظام المؤسسة بكاملها، فلا مناص من أن يُرفَضَ رفضًا صريحا، كما أن المشهد الذى يطرحه الغرب لهم ينأى تمامًا عن أن يكون سببًا صالحًا لاقتناعهم. فلو كان الشرقيون مضطرين لقبول قدر من التقدم المادى إلى حد ما فلن يصل إلى أن يكون تغيرًا أساسيا، وقد سبق القول بأنهم يقبلونه كأهون الشرور لا كأمر جوهرى، ولن يجدوا فيها إلا دافعًا لكراهة الذين أجبروهم على استخدامه والخضوع له. وهم أبعد ما يكون عن التفريط فيما يعتبرونه غاية وجودهم، وسوف يتحوصلون عليه فى أعماقهم أكثر من ذى قبل، وسوف يتباعدون ويعتزلون.

والحضارة الغربية هى أصغر الحضارات سنًّا، وتقتضى قواعد الأدب لو كانت مقبولة فى علاقة الشعوب ببعضها وعلاقة الناس ببعضهم بأن يتخذ الأصغر الخطوة الأولى نحو من يكبره سنًّا، والحق أن الغرب هو الذى سعى أولا إلى الشرقيين ولكن بمقاصد مختلفة، فلم يسع لكى يتعلم منهم كما يجدر بالصغار أن يسعوا إلى الكبار، ولكن ليحاربهم بوسائل قهر كى يصبئوا عن تراثهم وطرق تفكيرهم، ويعظهم بأمور لا تغنى ولا رغبة لهم فى سماعها. ويُصدمُ الصينيون الذين يراعون آداب السلوك بهذه البروزيليتية الغليظة التى جاءت لتقتحم وجودهم، والتى تربو إلى ما هو أخطر شأنًا فى نظرهم، وهو هتك قواعد الضيافة والأدب الشرقى، ولنفهم جيدًا أنها ليست مجرد شكليات ظاهرية لا تعنى شيئًا بل لها أسباب عميقة حيث إنها تعكس حضارة تراثية بكاملها، إلا أن هذه الأسباب قد اختفت فى الغرب مع تراثه، ولم يبق منها إلا خرافات، ناهيك عن تجديدها الذى يترى مع 'الموضة' ونزواتها التى لا مبرر لها، وهو ما يبلغ حد التشويه. ولكن لنعد إلى البروزيليتية التى لا تعنى شيئًا عند الصينيين سوى ما يستوجب آداب السلوك، ولكنها برهان على الجهل وعدم الفهم، وأمارة على انعدام الفكر لأنها تقوم بالضرورة على العاطفية، فلا مناص من الدعاية لفكرة تنطوى على انحياز عاطفى بلا فكر على حساب نقائها. أما الأفكار الصرفة فكل ما يلزم هو طرحها على المؤهلين لفهمها، ودونما قلق على اعتناق قناعات الغير. ويؤيدُ كل ما يقول الغربيون أو يفعلونه هذا الحكم الذى جلبته البروزيليتية على رأسهم، وكل ما يدفعون به من حقائق لا نتوانى عن المثول برهانًا على انحطاطها.

وكل من اتخذ سمتًا لا ينحاز لا مناص من أن يعترف بأن الغرب ليس عنده ما يُعَلِّمُه للشرق إلا فى النطاق المادى البحت، ونكرر أن الشرق لا مصلحة له فى ذلك، فقد امتلكت ما لا تطوله الاعتبارات المادية التى ليست شيئًا على الإطلاق، وليس الشرق فى حلٍّ من التفريط فيها فى مقابل غرور عوارض لا تثمر. وقد رأينا فيما سلف كيف تقوم التنمية الصناعية والاقتصادية على الشحناء والبغضاء بين الناس حتى إنها لا تجد أرضًا تقوم عليها علاقات تفاهم أيًّا كانت، ما لم يدفع أحد بأن على الطرفين أن يتقاتلا على النصر، والأرجح أن التفاهم سوف يجرى على اللعب بالكلام. وحين نتحدث عن استعادة العلاقات الوثيقة فذلك يعنى الاتفاق لا المنافسة، كما أن الذين رأوا أن الغاية الوحيدة من احتمال التنمية الصناعية والاقتصادية فى بلادهم يعترفون باليأس من نتائجها. وليست الراحة التى توفرها الاختراعات الميكانيكية للعلاقات الظاهرية بين الشعوب هى التى ستدفع بالتفاهم المتبادل، فهذه الميزات

سوف تجر وراءها أذًى أشد وصراعًا أنكى، أما التفاهم الذى يجرى على مصالح تجارية صرفة فلا محيص من العلم كيف يقدرها الغرب ويعلى من شأنها. إن المادة بطبيعتها هى مبدأ الفرقة والتشتت، ولا يأتى منها ما يصلح أساسًا لوحدة دائمة، كما أن التغير هو قانون عالم المادة. ولا نقصد صرف النظر تمامًا عن المصالح الاقتصادية، ولكن على المرء أن يضع الأمور فى نصابها كما كررنا دوما، ونصاب هذه المصالح يأتى فى نهاية الاتفاق لا بدايته. وليس ذلك للقول بأن تلك المصالح تمهد الطريق لطوباويات عاطفية على شاكلة 'عصبة الأمم'، فلا زالت تلك الأمور قليلة الثبات لو كان الثبات أمرًا محتملا، حتى لو كانت قائمة على الحقيقة القاسية الغليظة التى لا يمكن إنكارها على النطاق المحسوس، كما أن العاطفة ذاتها ليست أكثر ثباتًا ولا دوامًا حيث إنها مرتبطة بالمقام المادى فحسب. والحق أن 'الإنسانياتية *humanitarianism*' بكل أحلامها ليست إلا رداءً تَتَكَّرَ به نفاق 'الأخلاقية'، ولا نميل إلى تصديق عدم انحياز حواريى 'الحضارة' نظرًا لأن عدم الانحياز ليس من فضائل السياسة. ولن يكون الاقتصاد ولا السياسة وسائل للوصول إلى اتفاق، وعلى سبيل الاستطراد بالمناسبة فسوف يُستدعيان إلى المشاركة فى أرباح الاتفاق إذا حدث اتفاق أصلا، ولو أن تلك الوسائل قد وجدت فلا يمكن إلا أن تكون من جذور عميقة بعيدة الغور هى الذكاء وليست من قبيل المادة أو العاطفة. ونقصد هنا الذكاء بمعناه الحق الكامل، ولا نأبه لتلك الفكرانية الزائفة التى يصر الغرب على دفعها إلى الشرق لسوء الحظ، فهى كل ما يستطيع تقديمه ولا يعرف غيره حين يسعى إلى مصالحه ذاتها. وما يعتبره الغرب مُناسبًا للتقدم به إلى الغرب لا يمس الفكر الشرقى بأدنى درجة من واقع افتقاده لكل ما هو جوهرى.

ويظل العلم الغربى حتى إن لم يكن مشتبكًا مع الصناعة بلا فكاك، وحتى لو اعتبرنا فى كافة نواحيه العملية فلا زال فى عيون الشرقيين 'معرفة جاهلة' ذكرناها سلفا، ذلك أنه لا يتعلق بأى مبدإ أعلى منه. وحيث إنه مقصور على عالم الحس الذى يعتبره غاية فريدة قصوى فذلك يحرمه من أية قيمة توقعية حتى لو كان وسيلة تُمَهِّدُ لمعرفة أعلى، وسوف يشعر الشرقيون بوجوب احترامه رغم أنهم يعلمون أنه وسيلة تقريبية ملتوية نظرًا لخلوه مما يمكن أن يتلاءم مع عقلياتهم، ولكنهم سيعلمون أنه ليس الوسيلة المطلوبة. فهو علم مقدور له بواقع تركيبه أن يُنتج حالة عقلية سميناها 'العلموية *scientism*' ترتكز على إنكار كل المعارف الأخرى وسواءً أكانت غاية بذاتها أم اقتصرت نتائجها على نطاق التطبيقات، وهى أدنى المقامات جميعًا حيث تغتصب كلمة 'معرفة' التى يفهمها الشرقيون بمعناها الكامل، فإنها لن تستخدم بعد ذلك إلا بامتداداتها

غير المشروعة. ولا تعدو النتائج النظرية التى تتمخض عنها مهما كان تقدير الغربيين لها إلا من صغائر الأمور عند الشرقيين الذين ينظرون إليها كَلُعَبِ أطفال لا تلفت انتباه الذين يستطيعون استخدام ذكائهم فى أمور أسمى، أى الذين يحتكمون على ذكاء حقيقى، فكل ذكاء آخر لا يعدو انعكاسًا شاحبًا له. وكل ما هنالك من 'أفكار عليا' مطلوب من الشرقيين أن يتفهموها عن الغربيين على شاكلة لايبنيتز الذى أتى ذكره سلفا. وقل مثل ذلك لو أنها تقدمت بأشد منتجاتها أصالة وليس مجرد 'شيوعها' الفج، وليس الأمر هو أن الشرقيين عاجزون عن فهم أو تقدير هذه المنتجات بل إنهم يُقَوِّمونها حق قيمتها بمعيار يفتقد الغربيون ما يشاكله. وليس فى العلم الغربى عمق أيًّا كان فليس أكثر من ظاهره السطحى، ولا أسهل من أن يفهمه كل من حاول إدراكه. ولا جدال فى أن كل علم يناسب عقلية الأمة التى أنتجته، ولكن الأمر فى هذه الحالة بذاتها أنه ليس هناك ما يساوى تلك المصاعب التى يصادفها الغربيون الذين يحاولون اختراق 'العلم التراثى' للشرق، وترجع تلك المصاعب إلى أن العلم التراثى ينبع من مبادئ لا تخطر ببال المغامرين، وإلى أنهم يتبعون وسائل بحث غريبة تمامًا عن الغرب، ذلك أنهم يجتازون إلى ما وراء الحدود الضيقة التى تحدُّ المنظور الغربى. وإن كان نقص القدرة على التأقلم من صفات الطرفين فإنه يتخذ صورًا بينة الاختلاف، وتبدو كما لو كانت عجزًا عن الفهم لا دواء له مهما كان الجهد الذى يبذلونه، ورغم وجود استثناءات فردية فهى شديدة الندرة، فالشرقيون الذين يدرسون العلم الغربى لا يبالون به وليس امتناعه على الفهم، وهو ما يجعلهم أقل ميلا لتكريس جهودهم له فى حين يمكن إنفاقها فى أمر أفضل. وهكذا لا يجوز الاعتماد على الدعاية العلمية، ناهيك عن أية دعاية أخرى لكى نُقَرِّب الشرق والغرب، فالأهمية التى يعزوها الغربيون إلى علومهم يوحى للشرقيين بانطباع سلبى عن عقليتهم، وإذا كانوا يعتبرون هذه الأمور فى نطاق الفكر فذلك لأن الفكر لا يعنى الأمر نفسه عند كليهما.

وقل مثل ذلك عن الفلسفة الغربية رغم أن محنتها أشد وطأة من حيث إن تجشؤاتها ليست أعظم ولا أكثر حقيقية من منتجات العلم، ولا تحتكم على القيمة النفعية له حتى بشكل نسبى ثانوى، ومن هذا المنظور لا نملك إلا أن نضع الفلسفة وكل ما ارتبط بها داخل العلم، فكلها ذات طبيعة افتراضية صرفة. كما أن الفكر الحديث لا يفصل بين المعرفة العلمية والفلسفية بفاصل عميق، فعلى العلم أن يتبنى كل ما تصل إليه الفلسفة التى ليست إلا شطرًا منه أو صيغة له، وقد حافظوا على استقلالها بحكم العادة فحسب، ولأسباب تاريخية لا لأسباب منطقية، ولو كانت الفلسفة تدَّعى ادعاءات أفخم من ادعاءات العلم فذلك لسوء طالعها حيث لا تتأسس

على أى شىء، وليس فى الفلسفة الغربية فى حالها الراهن أمر مشروع غير الوضعية، وهى الثمرة الطبيعية للعقلانية ’العلمية‘،وإلى جانبها الذرائعية التى ألقت بكل النظريات جانباً ولم تُبْقِ سوى على العاطفية النفعية، وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى وجهًا لوجه مع الميلين المسيطرين على الحضارة الغربية. ويرى الشرقيون على العكس أن البدائل المتاحة لا معنى لها، فما يهمهم حقًّا وصدقًّا هو أمر وراء مطال تلك الاصطلاحات، كما أن مفاهيمهم فيما وراء المسائل الاصطناعية للفلسفة ومذاهبهم التراثية فيما وراء كل النظم. وتلك المخترعات الإنسانية قد أملاها عقل فردى فشل فى فهم حدوده وتوهم أنه أحاط بالكون الكلى وأنه قادر على إنشائه من جديد كما يحلو لنزواته، والتى تقوم جميعا على نفى كل ما كان فيما وراءها. ويربو ذلك إلى إنكار المعرفة الميتافيزيقية التى تسمو على العقل، والتى هى المعرفة الفكرية الصرف والمعرفة بما هى. ولا تملك الفلسفة الحديثة الاعتراف بوجود الميتافيزيقا الحقة دون أن تدمر ذاتها، أما ’الميتافيزيقا الزائفة‘ التى تشتمل عليها فليست إلا تركيباً مفتعلا لفرضيات عقلانية وعلمية بالضرورة، ولا تقوم على أى أمرٍ جدّى. وعلى كل فإن نطاق تلك الفرضيات محدود للغاية، ولا تذهب العناصر التى تُشَكِّلُ ذلك الخليط إلى ما وراء نطاق العلم المعتاد والأوهام المنظومية الصورية التى تنتظمها جميعًا ولا تؤهلها لاستحقاق النظر الشرقى. ولا تروج فى الشرق تلك الصيغة التى تُعرَف عمومًا بالفلسفة، ولا تشيع بينهم تلك الروح المنظومية ولا الفكر الفردى، ولو أنهم افتقدوا فضائل الفلسفة فإن لديهم فى ’علومهم التراثية‘ كل ما يمكن أن تنطوى عليه من فكر لا يحول، ولا يضل عن مقاصده بأية خلطةٍ نظريةٍ كانت، بل يسمو عليها بما لا يقاس، فالمعرفة الميتافيزيقية بنطاقها غير المحدود هى مبادئ كل ما عداها. ولذا يبدو لهم الفلاسفة بكل أطروحاتهم وتعسفاتهم وغموضهم الفارغ واضطرابهم الدائم وجدلياتهم التائهة كما لو كانت لُعَبًا صبيانية، وقد ذكرنا فى موضع آخر رأى معلم هندوسى حضر لأول مرة طرحًا لمفاهيم فلاسفة أوروبيين بعينهم، وكان تعليقه أن كل ذلك جدير بصبى فى الثامنة من عمره. وهكذا نرى كيف أن الفلسفة لا يُعتَمَدُ عليها أكثر من العلم المعتاد لاستحقاق تقدير الشرقيين، فهى لا تترك حتى انطباعًا إيجابيًّا لديهم، ولا يصح تصور أنهم سوف يتبنون تلك الطرق فى التفكير التى لن يكون غيابها أمرًا يدعو إلى الأسى، والتى يشكل ضيقها أشد المخاطر على الذكاء، والشرقيون كما نوهنا لا يرون فيها إلا فكرًا زائفًا يلجأ إليه من عجز عن النظر إلى أعلى منه وما بَعُدَ عنه، وقد قضى عليهم تركيبهم العقلى وتعليمهم بأن يظلوا جاهلين بالفكر الحق.

ولا زال أمامنا حديث عن ’فلسفات الفعل *philosophies of action*‘، والتى لا تفعل

إلا الإسهام فى التخلص النهائى من الذكاء. وربما كان من الأفضل لو اطَّرَحَ المرء صراحة كل مظاهر الفكر الذى يستغرق به فى خداع ذاته بتنظيرات متهافتة بلا نهاية، ولكن لماذا الإصرار على اختراع نظريات بعد ذلك؟ فادعاء أن الفعل لا بد أن يتقدم على أى شيء آخر ليس إلا عجزاً عن الوصول إلى منظور بحت، وهو سلوك يناهز موقف الثعلب من العنب فى الحكاية الشهيرة. وأيًّا كان الأمر فلا مجال لأن يخدع الشرقيون أنفسهم بتلك المذاهب، فعندهم أن التأمل أسمى من الفعل، كما أن مذاقهم ينفِّرُهم من الفعل والبحث فى نسيج المادة والتقدم، ولن نكون بحاجة إلى العودة إلى مسألة احتياج معاصرينا 'للتفلسف' فى هذا الشأن، وهو ما يبرهن على أن الفلسفة كما يفهمونها قد تكون أى شيء إلا الحكمة الحقة والمعرفة الحقة. وحيث وردت هذه السانحة فسوف ننتهزها لدفع أى سوء فهم محتمل، فليس القول بأن التأمل أسمى من الفعل مثل القول بأن على الناس جميعًا أن يهجروا الفعل ويقعدوا للتأمل، فعلى المرء فى المجتمع الإنسانى المركب من طبقات أن يتكفل بالوظيفة التى يرى أنه مؤهل لها بطبيعته وميوله، فهذا هو المبدأ الذى قامت عليه مؤسسة الطبقات فى الهند. ولا يعنى أن الغرب لو استعاد بنيته التراثية المبنية على مبادئ حقة فإن الجماهير الغربية سوف تهرع إلى التأمل فقط، ولا هى حتى سوف تُلزَم بذلك على غرار الجماهير الشرقية، فبداية كهذه جديرة بالشرق فحسب، إلا أن الغرب له أحوال خاصة فى المناخ والمِزاج الطبيعى كانت تنفر من التأمل وسوف تظل على حالها، ولا شك أن النزوع الفكرى سوف ينتشر أكثر من انتشاره اليوم، إلا أن الفكر البحت سوف يكون شاغلا طبيعيًّا لصفوة قليلة، ومهمتهم ليست إلا الفكر فحسب. ومن شأن ذلك وحده ضمان تحقق حالٍ يناقض الحال القائم تمامًا وما صار فيه من احتلال الثروة المادية مقام السمو الحق، ذلك أنها تناظر الاهتمامات الرئيسة للغربيين المحدثين الذين انحصر بصرهم فى الحياة الدنيا فحسب، وهى 'التميز' الوحيد الذى يمكن لعقلية الدهماء الديموقراطية أن تنصاع له. وسوف يجعل تحولٌ مثل ذلك قياس مدى التغير أمرًا ممكنا للحضارة الغربية بحيث تستعيد طبيعتها مرة أخرى لتضاهى الحضارات الأخرى بدلا من إثارة النزاعات والقلاقل فى العالم.

وقد قصدنا أن نمتنع عن ذكر الدين ضمن الأمور التى يتعين على الغرب أن يقدمها للشرق، فرغم أن 'الدين' أمر غربى إلا أنه ليس حديثًا، كما أنه أصبح هدفاً شاخصًا لعداوة العقلية الحديثة ولددها، فهو الأمر الوحيد الذى حافظ على صبغة تراثية. ونحن بالطبع نقصد الدين بمعناه الصحيح لا التشويه والتقليد اللذَينِ وُلِدا على عين منظور الحداثة، واللتان حملتا وسمه حتى إنهما لم يتميزا عن 'الأخلاقية' الفلسفية. أما عن الدين الحق فإن الشرقيين يُجِلُّونَهُ بناءً على صبغته

التراثية، كما أن الغربيين لو كانوا أشد تمسكًا بدينهم فلا شك أن الشرق سينظر إليهم بمنظور أفضل. ومن المهم أن نتذكر هنا أن التراث لا يتخذ الصورة الدينية السطحية فى الشرق باستثناء المسلمين، ففى المسلمين أمر غربى فى شرقيتهم. واختلاف الصور الظاهرية إذن ليس إلا تلاؤمًا مع عقليات مختلفة، وحيث لا يتَّخِذُ التراث تلقائيًّا صورة الدين فذلك يعنى أنه لا حاجة به لذلك، والمشكلة هنا هى رغبة الغربيين فى أن يتبنى الشرقيون صورة أديان لم تُصَغ لهم، ولا تناظر متطلبات عقلياتهم رغم أنهم يُسَلِّمون بتساميها فى الغربيين إن وُجِدَت، ولذا يشجع كثير من الهندوس الأوروبيين على العودة إلى الكاثوليكية حتى إنهم يساعدونهم فى فهمها دون أن يجذبوا هم إليها. ولا جدال فى أن الصور التراثية ليست متساوية تمامًا نظرًا لتبنّيها وجهات نظر مختلفة، ولكن تساويها المقارب يجعل من استبدال تراث بآخر أمر لا نفع منه، وسوف يؤدى إلى تلاؤمات خاطئة على الأقل فيما تعلق بالتعبير، وهو أمر لا يعنى التناقض ولا المخالفة. وإذا لم يكن عند الشرقيين دين بالمعنى الغربى للكلمة فعندهم منه ما يلائم عقلياتهم، وعندهم فى الآن ذاته ما يربو على ذلك فى منظورهم الفكرى فى الميتافيزيقا البحتة، والتى يُعتَبَرُ اللاهوت منها بمثابة ترجمة جزئية مصطبغة بعاطفية لصيقة بالفكر الدينى بما هو، وإذا كان عند الجانب الآخر قدر أقل من العاطفية فذلك لأنهم لا حاجة بهم إليها. وما قلناه توًّا يفسر اعتقادنا أن من الأفضل للغرب أن يعود إلى تراثه بما فيه من ثغرات فى نطاق الفكر البحت يمكن حلُّها لو آن الأوان، وهى مسألة تتعلق بالصفوة فحسب، فلا يملك الدين أن يحتل موقع الميتافيزيقا إلا أنهما يتقابسان تمامًا، ويقوم برهان ذلك فى العالم الإسلامى فى المنظورين المتكاملين للمذهب التراثى فى صورة البرانية والجوانية. ولنضف إلى ذلك أن الغرب حتى لو استنكف العاطفية بمعنى سيادة الانفعال على العقل فإن الجماهير الغربية ستحتاج إلى الرضا العاطفى ولن يوفره لهم إلا الدين، كما أنهم سيحتاجون إلى نشاط وعمل ظاهرى لا يشعر به الشرقيون بتاتًا. فلكل جنس مزاجه الخاص، ورغم أن تلك عوارض بذاتها إلا أن صفوة قليلة فحسب هى التى تملك تجاهلها. أما الرضا الذى ذكرناه فإن الدين الحق للغربيين هو الذى يستطيع توفيره وليس الإسراف فى التغيير الذى يصبح فيه الناس ضحية 'للأسرارية الزائفة *speudo-myscticism*' عند بعض معاصرينا، والتى ليست أكثر ولا أقل من تديُّن منحرف، وهى أحد أعراض الفوضى العقلية التى انتابت العالم الحديث، والتى قد تكون سببًا فى حتفه ما لم يُعَالَج بدواء ناجع قبل أن تستفحل الأمور.

وهكذا نجد فى بعض تجليات الفكر الغربى ما يستهجنه الشرقيون، ونتصف كلها بالحداثة،

كما أن بعضها قَيِّمٌ ولكنه لا يناسب إلا الغرب فحسب رغم أن الغربيين المحدثين يميلون إلى بخسها أو إنكارها بموجب أنها تمثل أمرًا أسمى مما يدركون. ولا مجال إذن للقول من أى منظور كان أن تأسيس علاقة حقيقية سوف يكون على حساب بخس العقلية الشرقية، وعلى الغرب أن يسعى إلى الشرق، ولن يكون صدق النوايا كافيًا لكى تكون العلاقة حقيقية وفعالة، فكل ما يلزم قبل أى شىء آخر هو الفهم. والغربيون الذين عكفوا على محاولة فهم الشرق بدرجات مختلفة من الجدية والصدق قد وصلوا عمومًا إلى نتائج بائسة، فقد أقحموا تحيزاتهم العقلية التى تقيدهم فى صلب دراستهم، خصوصًا وأنهم 'متخصصون' قد ركنوا إلى عادات فكرية مخصوصة لا يملكون التخلص منها. وقد عاش كثير من الأوروبيين بين الشرقيين فى اتصال مباشر، وندر منهم من استطاع استيعاب بعض الأمور وفهمها، ولم يكتبوا قط شيئًا عما عرفوه نظرًا لتحررهم من الأفكار المسبقة 'للمتخصصين' واحتفظوا به لأنفسهم، حيث إن عدم الفهم الذى يسم معظم الغربيين الذين سيتحدثون إليهم سوف يدفع بإثنائهم عن المحاولة لأنهم ليسوا 'متخصصين'، ومن ثم ينطوون على أنفسهم انطواء الشرقيين. ولم يستطع الغرب بأكمله أن يستفيد من هذه الاستثناءات الفردية، أما الأعمال التى تناولت الشرق ومذاهبه فلم يكن ينبغى لمعظمها أن يتم أصلا، فالجهل أفضل كثيرًا من الأفكار الزائفة. ولا نبغى تكرار ما قلناه تفصيلا عن أعمال المستشرقين، إلا أن غرضها كان تضليل الغربيين الذين يقرأون لهم ومنعهم من تصحيح أخطائهم من مراجع متاحة من ناحية، ومن ناحية أخرى يطرحون على الشرقيين سوء عملهم بحيث يكوِّنون عندهم فكرة لا تسر عن الفكر الغربى. وبصدد الحالة الأخيرة فإن إنتاجهم يؤكد أن معرفة الشرقيين للغرب قد أدَّت بهم إلى التمسك بتحفظهم على نحو أشد، إلا أن الجانب الأول أشد خطرًا خاصة لو كان على الغرب أن يبادر إلى استعادة العلاقات الفكرية. والواقع أن كل من كان له معرفة مباشرة بالشرق يستطيع استخلاص ذرَّات عالقة من الحقيقة فيما يسمى بدراسات لا يعرف الكاتب عنها شيئًا بعد أن استملاها بدون فهم، وقد يقع على كلمة صحيحة بضربة حظ لا غير، وهو ما يشيع فى الأعمال الإنجليزية على الأخص، والتى دُرِسَت بأمانة ودون انحياز منظومى بقدر الإمكان، بيد أنها لا تلتفت إلى مسألة التفاهم الحق، وغالبًا ما يستطيع القارئ المذكور أن يستعيد المعنى من الركام الشائه، وعلى كل فهو محصن فى تناوله لهذه الكتب حتى لو لم ينتفع بشىء منها، لكن الأمر يختلف عند الآخرين. فليس لدى القارئ العادى وسائل لمراجعة المعانى، ولا يملك إلا أن يختار أحد طريقين، فإما أن يعتقد أن المفاهيم الشرقية هى حقًّا ما فعلوه بها ومن ثم يشعر باحتقار مفهوم لها يسهم فى

تضخيم تحيزاته الغربية، وإما رأى أن هذه الأفكار لا يمكن أن تكون بهذا العبث والضحالة لكنه لا يعلم ماهيتها، ويصيبه اليأس من فهمها ويفقد كل اهتمام بها. والنتيجة المحتومة لكل ذلك اتساع الشقة المطَّرد. ونحن نشير فحسب إلى من اهتم بهذه الأفكار، وسنجد بينهم من يمكن أن يفهم لو توفرت له الوسائل، أما الذين ينظرون إليها على سبيل حب الاستطلاع أو من أجل منحة دراسية فلا نأبه لهم. زد على ذلك أن معظم المستشرقين يقصرون أنفسهم على الجوانب التاريخية أو اللغوية التى لا تهم كثيرًا، والتى اتضح عدم جدواها للغاية التى نبتغيها، ولكن الخطر الحقيقى لكافة المنح الدراسية هو نشر 'قصر النظر الفكرى' الذى يَحُدُّ المعرفة على البحث فى التفاصيل وبعثرة الجهد الذى يحتمل أن يكون مفيدًا فى اتجاهات أخرى. والأخطر من كل ذلك ما ينشره المستشرقون الذين يدَّعون القدرة على فهم المذاهب وتفسيرها، فيجعلون منها مسخرة يصعب تصديقها، حتى إنهم يدعون فهمها أكثر من الشرقيين أنفسهم كما رأينا فى حالة لايبنيتز، والذى توهم أنه اكتشف المعنى الحقيقى الذى خفى عن الصينيين منذ عهد فو هسى دون أن يطرف له جفن، ودون أن يحلم بقبول رأى السلطات المشروعة فى هذه الحضارة التى يسعى إلى دراستها، وكان أحرى به أن يبدأ بها بدلا من التصرف كما لو كان منوطًا به إحياء غابر الحضارات.

وينم ذلك الادعاء عن اعتقاد الغربيين بتفوقهم حتى لو أخذوا آراء الغير فى اعتبارهم، ويغبطون أنفسهم على ذكائهم بحيث يسلمون مقدمًا بفهمهم فحوى النظريات أكثر من الذين صاغوها، ومن استطاع أن يثق فى نفسه كل هذه الثقة فلا مناص من أن يفلت منه أى تعليم حقيقى. ونجد بين التحيزات التى تحافظ على استمرار هذه الحالة العقلية ما أسميناه 'التحيز الكلاسيكى' الذى أشرنا إليه فى سياق اعتقاد الغرب بوجود 'حضارة' واحدة مطلقة، وليس هذا التحيز فى واقع الأمر إلا صورة لهذا الاعتقاد، حيث إن الحضارة الغربية الحديثة تعتبر ذاتها وريثة الحضارة اليونانية الرومانية، وهو صحيح إلى حد ما، ويسلمون بأن من الأفضل ألا نعلم شيئا عما وراءها[24] بناءً على الإيمان بأن غيرها لا يمثل إلا مجالا للبحث الأثرى، وهكذا

[24] وقد ألقى مسيو براك *Bracke* فى اجتماع غرفة الوكلاء الفرنسيين كلمة أثناء مناقشة إصلاح التعليم، ولفتت هذه الفقرة انتباهنا 'إننا نعيش فى حضارة اليونان والرومان، وليس لدينا غيرها، فالحضارة اليونانية الرومانية هى الحضارة بلا كذب'.

'We are living in the civilization of Greece and Rome. For us there is no other. The civilization of Greece and Rome is, for us, Civilization with a capital letter.'

تربع القانون الذى قضى بأن ما من أفكار فى أى مكان تستحق الاهتمام خارج هذا النطاق، ولو أطلت فكرة أو أخرى فلا بد أنها كانت موجودة أيضًا عند قدماء اليونانيين والرومان. وربما كان ذلك لا بأس به لو كان ذلك هو كل شىء ولم تكن اقتباسات من مصادر كلاسيكية كتبت لزمنها، وأولئك الذين يفكرون على هذا المنوال واقعون فى قهر هذا التحيز، وهناك كذلك الذين يظهرون التعاطف مع المفاهيم الشرقية ثم يعكفون على محاولة موضعتها فى إطار الفكر الغربى بأى ثمن كان، وهو ما يربو إلى تشويهها بالكامل، وهو بذاته برهان على أنهم لا يفقهون عنها شيئا. فلم ير البعض فى الشرق على سبيل المثال إلا الدين والفلسفة، وهما لا وجود لهما فى الشرق على وجه اليقين، وقد كان للمستشرقين الألمان قصب السبق فى مضمار الفهم الزائف، فهم أصحاب أغلظ ادعاءات لاحتكار تفسير المذاهب الشرقية. فقد تفتقت أذهانهم الضيقة عن اعتبار الفلسفة ناتجة عن الشرق بل شيئًا أشبه بفلسفتهم ذاتها، فى حين أن الشرق ذاته لا علاقة له أصلاً بهذه المفاهيم. ومن الثابت أنهم لن يسلموا بعدم الفهم، ولن يقدروا على اختزال كل شىء فى نطاق عقولهم وهم على اعتقادهم بأنهم يسبغون شرفًا على الذين وصفوا أعمالهم بأنها 'جديرة بصبى فى الثامنة'.

زد على ذلك أن الفلاسفة فى ألمانيا لهم اليد الطولى فى هذا الأمر، ولا بد أن يُحَمَّلَ شوبنهاور على وجه الخصوص أوزار الطريقة التى يفسر المستشرقون بها الشرق، وكم من الخلق حتى خارج ألمانيا يلهجون بذكره وتلميذه هارتمان فى دراسة 'التشاؤم البوذى *Buddhist pessimism*' الذى اعتقدا أنه أساس المذهب الهندوسى! كما أن هناك عددًا لا بأس به من الأوروبيين بلغوا من الجهل حدَّ توهم أن الهند بوذية، ولا يتوانون عن الحديث العشوائى كما نتوقع فى هذه الأحوال، ناهيك عن أن إضفاء أهمية لا تُستَحَقُّ على الانحراف البوذى الذى حدث فى الهند راجع إلى العدد الغفير من المستشرقين الذين 'تخصصوا' فى دراستها، والذين وجدوا طرقًا شتى لتحريف ذلك الانحراف فى المنظور الشرقى. والحق أنه ليس هناك مفهوم شرقى 'متشائم' بما فيها البوذية، كما أنه ليس هناك 'تفاؤل' كذلك، لكن ذلك يبرهن على أن التسميات والتصنيفات لا تنطبق على الواقع بأكثر من التى صيغت للفلسفة الأوروبية، فالأمور ليست كذلك عند الشرقيين، ويستلزم النظر إلى الأمور من منظور 'التفاؤل والتشاؤم' عاطفية غربية، فهى العقلية ذاتها الذى استوحاها شوبنهاور فى بحثه عن 'العزاء' فى 'الأوبانيشادات'،

....

وقد كانت هذه الكلمات وإجماع التصفيق الذى استُقبِلَت به مبررا كافيا لما كتبناه عن ' التحيز الكلاسيكى' فى موضع آخر.

فى حين أن السكينة العميقة التى يجدها الهندوس فى التأمل الفكرى البحت نائية عن هذه العوارض. ولو استرسلنا فى ذكر الأخطاء من هذا النوع فلن ننتهى، فيكفى مثل واحد منها للبرهان على انعدام الفهم الجماعى، ولا نريد أن نُصنّفَ هنا سجلاً لكبوات المستشرقين الألمان وغيرهم، والتى انتهت دراسات الشرق فيها إلى اتخاذ أساسٍ ملفقٍ بعيد عن المبادئ الحقة. وقد ذكرنا شوبنهاور لأنه عينة ممثلة فحسب، وقد أشرنا سلفًا إلى ديوسين *Deussen* الذى فسر الهند بمفهوم شوبنهاور، ونشير كذلك إلى ماكس موللر *Max Muller* الذى حاول أن يكتشف 'بذرة البوذية' فى المتون الفيدية ذاتها التى هى أساس الأرثوذكسية الهندوسية، والتى حاول تفسيرها بمذهب لاأرثوذكسى. ويمكننا الحديث على هذا المنوال بلا نهاية فى بيان التحيزات فى سمة أو أخرى، ولكننا سوف نتوقف عند مثال أخير يعبر عن التحيز العتيد، وهو أولدنبرج *Oldenberg* الذى بدأ بإزاحة كل النصوص التى تتناول المعجزات باعتبارها إضافات لاحقة، ولم يفعل ذلك باسم 'النقد التاريخى' بل بمقتضى أن الهندوجرمانيين *Indo-Germans* لا يؤمنون بالمعجزات. وليقُل ما شاء باسم الألمان المحدثين، والذين اخترعوا ما يسمى 'علم الأديان *science of religions*'، إلا أن جرأته قد تجاوزت كل الحدود فى ربطه الهند بنطاق إنكاره للتراث. وقد سبق القول أن فرضيات 'الهندو جرمانية' التى لا يكاد أن يكون لها وجود دون أسباب سياسية، فقد تحول الاستشراق والفلسفة الألمانية إلى لعبة للطموحات القومية، وهو ما لا يعنى أن ممثليها جميعًا غير أمناء بالضرورة، فليس من السهل رؤية الحدود فى العمى الذى جعل العاطفة تحتل محل الذكاء. أما عن المنظور المناهض للتراث الذى يقبع فى قاع 'النقد التاريخى' وكل ما جرَّ جَرُّه فهو غربى لحم، ويراه الغرب حديثًا صرفًا، ولا مجال لأن يُعتبر أى قدر من الإصرار هنا زائدًا عما يجب، حيث إن مناهضة التراث التى يعافها الشرقيون التراثيون بالضرورة ستجعل منهم لاشيئًا حيث إن كل ما يصنع حضارتهم تراثى بالضرورة. وهذا المنظور إذن هو الذى يجب التخلص منه قبل أى شىء آخر لو كان هناك أمل فى التفاهم معهم[25].

ونشهد للمستشرقين 'الرسميين' بالأمانة على الأقل نظرًا لافتقادهم سمات فكرية أخرى، فليس فى أعمالهم عن ضلوع الغرب فى المذاهب الشرقية إلا أحلام يقظة وتُرَّهات ثيوزوفية لا تعدو نسيجًا من أغاليط غليظة، وزادها سوءًا وسائل التدليس المنحطة التى استعانت بها. وقد

25 ولا نملك الحديث بإسهاب عن آخر محاولات الاستشراق الزائف التى ازدهرت فى ألمانيا، وهى تأسيس كونت كيسرلنج *Count Keyserling* 'مدرسة الحكمة' فى دارمشتاد، ولكن يبدو أن مفاهيمها الأساسية هى 'فلسفة الحياة'، والتى هى أمر غربى صرف بدورها، ولدينا أسباب للظن بأن كونت كيسرلنج ليس منبتَّ الصلة عن حركة الثيوزوفية أو مشتقاتها، وعلى كل فالمعلومات التى وصلتنا عنه من مصادر هندوسية لا تسر.

خصصنا لهذا الموضوع كتابًا كاملا[26]، وقد عاش هولاء الناس حتى بَشِموا وفقدوا الحق فى طلب إجازة من الشرق، وقد لجأنا إلى أوثق الحقائق التاريخية رسوخًا حتى نلفت النظر إلى وجودها على الأقل، وهى أنهم يذتوون تأسيس العلاقة بين الشرق والغرب على طريقتهم فحسب. وبعيدًا عن تيارات السياسة التحتية التى تلعب دورًا رائدًا فى هذه المنظمات المناهضة للتراث تحت قناع تراث زائف *pseudo-tradition* كان وليدًا لوهم محض، ويعطى نفسه الحق فى تلك النظريات الحائلة الذى انتسجت من مفاهيم التطوريين تحت قناع شذرات من المقتبسات من حضارات شتى، وليس فيها إلا ما كان غربيًّا حتى إن المصطلحات الهندوسية تستخدم فيها بما يناقض معناها تمامًا. ولو كانت هذه المفاهيم تنطوى على أية عناصر تصلح لتقارب متبادل فسوف يكون كل شيء على حساب الشرق، وسوف يكون هناك تنازلات من الجانب الغربى يطلب فى مقابلها أن يتخلى الشرق عن كل أفكاره الجوهرية تمامًا، وكذلك عن كل المؤسسات القائمة عليها. لكن الشرقيون وعلى الأخص الهندوس المستهدفون بشكل أساسى لن ينخدعوا، وسيفهمون الميول الحقيقية وراء هذه الحركات، فلا نتوقع إغراءهم بكاريكاتير شائه لمذاهبهم حتى بافتراض عدم وجود دوافع أخرى لديهم تستدعى الاعتراض. أما عن الغربيين الذين يحتكمون على قدر من الفهم العام رغم أنهم ليسوا أذكياء على الحقيقة فلا يأبهون لهذه التزيدات، ولكن الجانب المؤسف هو اقتناعهم السهل بأن هذه الأمور شرقية حقا فى حين أنها ليست كذلك. لكن الفهم العام *common sense* ذاته قد أصبح نادرًا فى الغرب هذه الأيام، وفقدت العقول توازنها شيئًا فشيئًا بما أدى إلى تفشى الثيوزوفية وكل المحاولات الأخرى التى نجمعها تحت اسم 'الروحانية الجديدة *Neo-Spiritualism*'. وفى حين لا نجد أثرًا 'للتراث الشرقى' عند الثوزوفيين فإن الغيبيين *occultists* لا علم لهم 'بالتراث الغربى' ذاته. ونقول مرة أخرى بعدم جدية أيهما إلا أن المفاهيم الغامضة فى دعوى 'التوفيق بين الأديان *syncretism*' التى انداحت فيها المفاهيم القديمة تحت تفاسير تعسفية باطلة يبدو أنها صيغت خصيصًا قناعًا للتطرف الحداثى. ولو كان بها شيء 'قديم' فليس إلا مجرد واجهة خارجية، وتبدو كل المفاهيم فى الحضارة القديمة والوسيطة للغرب غائبة عن أفهامهم مثلما يغيب مفهوم الثيوزوفية عن الشرقيين. ولا جدال فى أن الغرب لن يستعيد تراثه على يد الغيبيين بأكثر مما يمكن أن يلتحق بالفكر الشرقى، ويرتبط الأمران ببعضهما بأكثر مما يبدو رغم آراء

---

[26] *Theosophy: History of a Pseudo-Religion.* راجع كذلك الباب الأخير من كتابنا ' مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية' ، تراث واحد.

بعض من لا يرون إلا النزاع والعداوة حيث لا نزاع ولا عداوة، وبعض الغيبيين يستنكفون عن ذكر الشرق الذى لا يعرفون عنه شيئًا باستثناء الصفات الجارحة التى تفصح عن حقد دفين، وربما كذلك عن غَيرَةٍ لأن الشرقيين يحتكمون على معرفة لا أمل لهم فى النفاذ إليها. ونحن لا نلوم الثيوزوفيين ولا الغيبين على عجز فهمهم فليسوا مسئولين عنه، ولكن دع واحدًا من الغربيين العقلاء من المنظور الفكرى يعترف بالمعرفة الشرقية علنًا دون أن يتلبس بقناعٍ شرقى، ودع أيًّا من المحدثين الذين يتفاخرون بها يُقدِمُ بشجاعة على التسليم بها دون معونة من حضارة غير حضارته. وحين نشجب هذه الأمثلة من نفاق هذه الحركات فإننا نفكر فحسب فى قادتهم لا فيمن استغفلوهم، ولكن لنتذكر أن اللاوعى غالبًا ما يصاحب الخبث، وقد يكون من الصعب تمييز الدور الذى يقوم به كلاهما، ألا يعتبر النفاق 'الأخلاقى' لاواعيًا فى معظم الأحوال؟ كما أن الفارق ضئيل بين النتائج التى تتمخض عن كليهما، وهى كل ما نرغب فى التحسب له حيث إن اللاوعى ليس عذرًا للتهوين من خبثها، فقد دارت العقلية الغربية فى كل المسالك من جراء القلق الغامر الذى ينتابها، وسكنتها أسوأ الكوابيس التى تجتاح الخيال المحموم، فهل هى حقًّا 'بداية النهاية' للحضارة الغربية؟ ولا نية لدينا فى الاندفاع فى فرضيات متعجلة، لكن هناك على الأقل علامات تغذى التأمل عند القادرين عليه. فهل يستطيع الغرب أن يتمالك نفسه فى وقت مناسب؟

وسوف نقول ما يلى ونحن متمسكون بحقائق الواقع لا توقعًا للمستقبل، إن كل المحاولات التى اتُخِذَت بصدد جمع الشرق والغرب قد سلكت سبيل المنظور الغربى، وكان هذا هو السبب فى فشلها. ويصدق ذلك على الدعاية الغربية الصريحة التى تنتهجها تلك المحاولات كما تصدق على المشروعات التى يدَّعون أنها مبنية على دراسة للشرق، والجهد المبذول فى فهم مذاهب الشرق لا يذكر بالمقارنة إلى الجهد المبذول فى اختزال مفاهيم الشرق إلى مستوى المفاهيم الغربية، وهو ما يعنى تمزيقها إربًا إربا. ولا وجود إلا لوعى جارف بضرورة بخس الشرق، حيث يعيث افتراض أن ما كان عند الشرق لا بد منطوٍ فى حضارة الغرب بطبيعة الحال، وهذا غير صحيح على الإطلاق خاصة فى أيامنا هذه. وهكذا كان عجز الفهم القائم على التحيز سببًا فى ألا يصل الغرب إلى أقل درجة من الفكر الشرقى، وقد يكون هناك من وُلِدَ بهذا العجز إلا أن الغالبية تكتسبه بفعل تلك الأفكار الخبيثة. وحتى لو توهموا أنهم يفهمون الشرق بترجمة المتون التى تعبر عنه فإنهم لا يصلون إلا لمسخ شائه لها، وهم يتصيدون فيها ما وضعوه بأنفسهم سلفًا من أفكار غربية سواءً أكانت متونًا أم رموزًا، ذلك أن

الحرف ليس شيئًا قائمًا بذاته وأن الروح تفلت من أبصارهم. ولا يملك الغرب فى هذه الأحوال أن يخرج عن الحدود التى أحاط بها نفسه، وحيث لا وجود لشىء خارج تلك الحدود فإنه يظل يبحث بلا كلل ولا جدوى فى طرائق المادة والعاطفة التى تنتهى به إلى أبعد ما يكون عن الفكر الحق، ومن الواضح أنه لا يفتأ يتباعد عن الشرق. وهذا هو حال محاولات الاستشراق الرسمى والاستشراق الزائف. ونقول مرة أخرى إن الغرب عليه أن يبادر بالسعى نحو الشرق لا أن يحاول امتصاص الشرق كما كان دأبه حتى الآن. وليس من سبب يدعو الشرق إلى المبادرة ولن يكون إلى ذلك سبيل حتى لو كان الغرب فى حال لا يسمح بالسعى فى ذلك الاتجاه، ولكن لو جرت محاولات واعية فى الغرب للممثلين المنوطين لكل الحضارات الشرقية فلن يستقبلونها استقبالا حسنًا. وقد أخذ الباب الحالى فى اعتباره ما قيل فى الجزء الأول من الكتاب، ويبقى علينا بيان الكيفية التى يمكن للغرب أن ينتهجها للتقارب مع الشرق، كما أوضحنا الميول الغربية التى يستحيل معها قيام علاقات فكرية بين الطرفين دون التوصل أولا إلى تفاهم مشترك على أرض الفكر، وكل ما عدا ذلك سوف يذهب فى الريح هباءً.

2

الاتِّفَاقُ عَلَى المَبَادِئ

لا نتوقع عندما نتحدث إلى معاصرينا عن المبادئ أن يفهموا بسهولة، فغالبيتهم لا فكرة لديه عن ماهية هذا الشيء وما إذا كان موجودًا حقًّا، وهم كذلك يتحدثون عنها بلا كلل ولكن بإطلاقها على أمور لا علاقة لها بمعناها الأصلى بأية درجة. فقد أُسبِغَ اسم 'المبادئ' عمومًا على القوانين العلمية فى حين أنها على النقيض استنتاجات نظرية ونتائج للاستنباط إن لم تكن مجرد فرضيات، وقل مثل ذلك أو أوسع فى إطلاق الاسم ذاته على المفاهيم الأخلاقية التى ليست حتى أفكارًا، ولكنها تعبير عن نزعة عاطفية أو نظرية سياسية تعتمد عليها على شاكلة 'مبدإ القوميات *principle of nationalities*' الذى أسهم فى الفوضى الأوروبية بأكثر مما يمكن أن نتخيل. ألا يذهب بعض الناس إلى الحديث بلا تردد عن 'المبادئ الثورية'؟ ويعنى سوء استخدام الكلمة إلى هذا الحد أن معناها قد هُجِرَ تمامًا، وشأن هذه الحالة شأن كلمة 'تراث' التى أُسبِغَت على العادات الظاهرية الصرفة أيًّا كان تدنيها وتفاهتها، ولنعمد إلى مثال آخر، فلو كان الغربيون قد حافظوا على حاسة أسلافهم الدينية أفلم يكونوا يتجنبون استخدامها فى شتى الأمور حتى فى تعبيرات مثل 'دين الوطنية *religion of patriotism*' و' دين العلم *religion of science*' و' دين الواجب *religion of duty*'؟ وليست هذه مجرد قطاف من دوحة الانحطاط اللغوى ولكنها عَرَضٌ للخلل الذى تفشى فى كل أينٍ على ظهر الأرض. فقدْ فقدَ الناس القدرة على التمييز بين أشد وجهات النظر اختلافًا فيضعون الشيء موضع شيء آخر لا علاقة له به، ولغة الناس تنم عن عقليتهم بأمانة، وحيث إن هناك تناظرًا بين العقلية والمؤسسة فإن أسباب اضطرابهما هى ذاتها أسباب الاعتقاد بأن أيًّا من كان يستطيع القيام بأى عمل كان، وهو شعار المساواة الديموقراطى الذى نتج عن النظام الاجتماعى والفوضى الفكرية. والغربيون اليوم 'بلا طبقات' فعلاً باستخدام التعبير الهندوسى، وهم حتى 'بلا أسرة' بالمعنى الصينى لهذا المصطلح، وهم خواء من أى جوهر أو أساس يشاكل أسس الحضارات الأخرى.

وتؤدى بنا هذه الاعتبارات إلى نقطة بدايتنا عن الحضارة الحديثة التى تعانى من غيبة المبادئ فى كل مجال كان. وقد كانت وحدها بين الحضارات الأخرى استثناءً عملاقًا كحضارة بلا مبادئ قط أو بمبادئ سلبية فحسب، وهو الأمر ذاته، وتشاكل فى ذلك كائنا مقطوع الرأس يستمر جسده فى حيوية عشوائية عنيفة. وينبغى على علماء الاجتماع المغرمين بتشبيه الجماعات بمنظومة حية أن يتأملوا فى هذه الصورة، فهم يكبتون الفكر الصرف ويعتبرون كل مجال عرضى مخصوص حالاً مستقلاً قائمًا بذاته يختلط بعضه ببعضٍ فى فوضى عارمة، فتنقلب العلاقات الطبيعية رأسًا على عقب، ويدَّعى ما كان تابعًا أنه مكتف بذاته عقليًا واجتماعيًّا، وتسقط كافة البنى باسم هلاوس المساواة. والمساواة فى واقع الأمر استحالة صرف، ومن ثم تقوم البِنى الزائفة التى تضفى على أى شىء كان أعلى المقامات سواءً أكان ذلك فى العلم أم الصناعة أم الأخلاق أم السياسة أم التمويل لغياب المبادئ كما نوهنا سلفًا. وليعكف الناس قليلا على النظر إلى هذه الصورة قبل أن يزعقوا بأنها مبالغات، وليتجشموا عناء فحص الأمور بإخلاص، وإذا لم يكن قد أصابهم عمى التحيزات فسوف يعرفون أنها حق وصدق، فنحن لا ننكر أن هناك درجات ومراحل من الفوضى لم تتراكم فى خطوة واحدة، ولكن كان مقدر لها أن تتحقق بمجرد غياب المبادئ التى تسود العالم الحديث وتجعله ما هو عليه، وها نحن نقف اليوم على أعتاب التحلل النهائى فقد بدأ بعض الناس بالفعل يشعرون بوقع خُطى الجائحة. وهناك أمور لا يمكن تعريفها إلا بالسلب، فالفوضى التى تضرب فى أى مجال كان فى العالم الغربى الحديث ليست إلا غياب البِنى الإيجابية لاغير، وهذا بالضبط مقصدنا حين نقول إنها ليست تراثية مثل الحضارة الشرقية.

فما نسميه حضارة تراثية هى الحضارة التى قامت على مبادئ بالمعنى الحقيقى، أى إن النطاق الفكرى هو ما يحكم كل ما غيره، وينبع منه العلم والمؤسسة الاجتماعية على السواء بشكل مباشر أو غير مباشر بصفتهما عوارض ثانوية وتطبيقات خاضعة للحقائق الفكرية المحضة، وهكذا ستكون العودة إلى التراث والعودة إلى المبادئ هى الأمر ذاته، إلا أن المبادئ التى فُقِدَت لا بد أن تُستعاد أولا قبل البدء بتطبيق مبادئ عشوائية، فلا نفع فى بناء حضارة بكاملها دون معرفة متسامية لا بد أن تشرف على البناء، والسعى إلى خلاف ذلك سيعنى إقحام اضطراب جديد على ما كنا نأمل فى التخلص منه كما سيعنى أننا أسأنا فهم جوهر التراث، وهذه هى حال كافة مخترعى التراث الزائف الذين نوهنا عنهم، ولو أصررنا على تفسير الأمور الواضحة فذلك لأن العقل الحديث يجبرنا على ذلك، فنحن نعرف تمامًا صعوبة منعه من قلب

النظام الطبيعى للأمور.

ولو كان أصحاب النوايا الحسنة من هذا النوع حتى رغمًا عنهم يعلنون عداءهم للشرق فقد يمكن إغراؤهم بالنتائج، إلا أن ذلك سيكون بمثابة مسايرتهم فى نفاذ الصبر حتى يدركوا النتائج المنظورة التى يعتبرها الناس كل شيء فى جنون السرعة الذى انتاب الغرب بكامله، فقد التوى العقل الحديث تمامًا نحو استعجال أمور الظاهر حتى عجز عن إدراك أى شيء آخر، ولذا نكرر القول حتى إلى حد الملل أن نقطة البداية الجوهرية هى مضمار الفكر البحت، ولن يتحقق أمر ذو بالٍ لو بدأنا بأية بداية أخرى. وكل ما يتصل بهذا المضمار مما لا يدخل فى نطاق الحواس له نتائج لا بد من مواجهتها بجهد أكبر مما نواجه به الأمور العارضة. وربما لا يقبلها بسهولة من لم يتعودوا على هذ الفكرة، إلا أنه يجب الاهتمام بألا يختلط الفكر الصرف بالتفكير العقلانى ولا المقام الكلى بالمقام العام ولا الفكر الميتافيزيقى بالسعى العلمى، ونحيل القارئ فى هذا الشأن إلى ما طرحناه فى موضع آخر[27]، ولا حاجة بنا إلى الاعتذار فلا مناص من طرح الاعتبارات ذاتها بلا كلل. وحين نتحدث عن المبادئ دون تخصيص أو عن الحقائق الفكرية بشكل عام فإننا نعنى مقام الكون الكلى *universal order* لاغير حيث إنه نطاق المعرفة فوق الفردية وفوق العقلانية، وهى معرفة بصيرية لا يطولها تحليل ولا نسبية، أضف إلى ذلك أن البصيرة الفكرية التى تؤدى إلى هذه المعرفة لا تشارك الحدس العقلانى فى شيء سواءً أكان عاطفيًّا أم غريزيًّا أم حسيًّا، وهى لحسب العوامل التى تترى فى نطاق الفلسفة الحديثة. ولا بد من تمييز الحقائق الميتافيزيقية عما عداها من صيغتها التى قد يتداخل معها العقل الجدلى شرط أن يستقى من انعكاس البصيرة المتعالية حتى يعبِّر بقدر الإمكان عن تلك الحقائق التى عادة ما تخرج عن نطاقه بموجب كليتها، فلا تكفى الصيغ الرمزية ولا الخطابية إلا لترجمة تقريبية ناقصة، والتى تستهدف أن تكون عونًا لفهمها أكثر من أن تكون تفسيرًا وافيًا لها، فهى على الأغلب مستحيلة التفسير ومستعصية على التواصل، ولا يمكن 'تجربتها' إلا بطريق شخصى مباشر. ولنذكر مرة أخرى أننا لا نتمسك باصطلاح 'ميتافيزيقا' إلا لأنها أفضل ما يناسب الفكر الغربى.

ولو كان الفلاسفة يطلقونها على أمر مختلف تماما فإنهم المسئولون عن اضطراب معناها، ومعناها الذى نفهمه هو أقرب المعانى لاشتقاقها اللغوى، ويرجع الاضطراب إلى أنهم لا يفقهون شيئا عن الميتافيزيقا الحقة على شاكلة من ذكرناهم توًّا، ولا يجبرنا أمر على أخذ هذه

[27] مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية. تراث واحد.

الأغاليط على محمل الجد، ويكفى أن نُحَذِّرَ الناس من الأخطاء التى يمكن أن تتفاقم نتيجة الفلسفة. وحيث إننا نحسب بكل التحفظات الممكنة فى هذا الشأن فلا نرى مأخذًا جسيمًا على استخدامها، كما أننا نكره استعمال المصطلحات الجديدة *neologism* إلا بقدر ما تدعو الحاجة إلى الإشارة إليها بذاتها كما أنها تبعث على الضيق ويجدر بالمرء اجتنابها بتثبيت معانى الاصطلاحات المستخدمة بالوضوح اللازم، وهو أفضل على وجه اليقين من اختراع مصطلحات تعسفية معقدة على طريقة الفلاسفة الذين يحاولون الظهور بمظهر 'الأصالة' البائسة التى يسعون إليها. وإن كان هناك من يكره اصطلاح 'ميتافيزيقا' فإننا نقول إنها تنطوى على المعرفة بأسمى معانيها، وليس عند الهندوس كلمة يعبرون بها عنها إلا أن اللغات الأوروبية لن تتوانى عن سوء استخدامها حيث تعود الناس على حشرها بلا هوادة فى العلم والفلسفة. وسوف نوالى الحديث إذن عن الميتافيزيقا كما كان دأبنا على الدوام، ونأمل ألا تكون الشروح التى ترتبت على رغبتنا فى الوضوح مجرد استطرادات لا نفع منها، وقد يبدو أنها تحرفنا بعض الشىء عن موضوعنا إلا أنها ليست كذلك.

ومن الأسهل الوصول إلى اتفاق على مستوى المبادئ بموجب كليَّتها بشكل فورى فعال، فالمرء إما أن يفهمها وإما ألا يفهمها، ولو فهمها مرة فلن يعجز عن فهمها دومًا، فالحقيقة واحدة تفرض نفسها على كل من يعرفها شرط أن يعرفها على وجه اليقين، والمعرفة البصيرية لا يمكن إلا أن تكون يقينًا. ويكون المرء فى هذا النطاق خارج وجهات النظر الشخصية وفوقها كافة، وليس الاختلاف فى الصورة الظاهرية فحسب، فهى لا تعدو تلاؤمات ثانوية وليست من المبادئ ذاتها، إذ إنها تنتمى إلى المقام 'اللاصورى جوهريا'. والمعرفة المتحصلة من المبادئ هى هى عند كافة من حصَّلوها، فالاختلافات العقلية تؤثِّرُ قصرًا على ما ينتمى إلى النطاق الفردىوهو حادث عرضى بدوره، ولا شأن للميتافيزيقا بهذا النطاق، ولا شك أن كل من فهِم سوف يعبر بطريقته عما فَهِمَه بالمدى الذى يمكن أن يُعبِّر به، وتكمن الحقيقة وراء اختلافات التعبير جميعا ولن تكون الاختلافات المحتومة بينها حائلا فى الاتفاق. إلا أن القدرة على الرؤية من خلال خضم الصور التى تحجب من الحقيقة أكثر مما تفصح تعنى كيف احتجب الفكر الحق عن العالم الغربى المفتون بالصور، ويصعب تصديق تفاهة وبؤس الجدل الفلسفى فى ضوء هذا المبدإ، والذى يعتمد على الكلمات أكثر من اعتمادها على الأفكار حتى لو توفَّرَت. أما عن حقائق المقام الحادث فإن كثرة الآراء الفردية تؤدى إلى قيام اختلافات حقيقة فى حين أنها ليست نقائض لبعضها بعضًا بالضرورة، ويكمن خطل العقول المنظومية فى

إنكار مشروعية كل ما ليس منها وإدانة كل ما لا ينصاع لها، ولو سلمنا بأن الاختلافات حقيقية حتى لو كانت قابلة للتصالح فإن الاتفاق سيتأخر بالقدر الذى يشعر به الأطراف بغضاضة قبول الرأى الآخر. أما فى نطاق المبادئ فليس هناك شىء كهذا، وتفسر المتناقضة الظاهرية 'إن أسمى ما فى أى تراث كان هو أسهل الأمور فهمًا واستيعابًا 'بصرف النظر عن اختلاف الجنس والزمن قيد شرط واحد هو سعة الفهم، فهو فى الواقع ما تحرر من العوارض كافة. أما ما بقى من أى تراث فيدخل فى تصنيف 'العلوم التراثية'، والتى يلزم لتناولها إعداد مخصوص، وهو مسألة مرهقة لمن لم يولد فى التراث الذى أنتجها، ذلك أن الاختلافات العقلية تتدخل فيها لسبب وحيد هو أنها تنتمى لعالم العوارض، والطريقة التى ينظر بها الناس من جنس بذاته إلى تلك الأمور على أنها الأمر الطبيعى الوحيد لا تعنى أنها تناسب باقى الأجناس. وقد يكون فى جنس بعينه تلاؤمات تختلف بين أزمنة مختلفة، إلا أنها لا تشتمل إلا على المبادئ ذاتها التى ينطوى عليها المذهب الأصولى، والتى تصبح بذلك استجابة لاحتياجات الأزمنة المختلفة دون إمكان إضافة عنصر خارجى جديد. فلا مجال لأية إضافة حقيقية إلى مبادئ تراث حضارة جوهرية كما هو الحال فى الشرق.

أما فى الحضارة الحديثة فلا يَعتَبرُ الناس إلا بالعوارض الحادثة، وطريقتهم فى ذلك فوضوية حقا حيث ينقصهم هَدْىُ مذهب فكرى ضرورى. ومن الواضح أنه لا اعتراض على النتائج التى توصلنا إليها حتى الآن ولا إنكار لقيمتها النسبية حتى إنه يبدو من الطبيعى فى نطاق بعينه أن يُحصِّلَ المرء نتائج أعظم كلما اختصر من نشاطه، ولو بلغت العلوم التى تُعجِبُ الغرب هذا المبلغ الذى دفعها إليه الغربيون فذلك لأنهم لم يعتقدوا بأهميتها حتى يكرسوا لها وقتًا. ولو كانت النتائج صحيحة لكل منها على حدة بما يتسق مع الطبيعة التحليلية للعلم الحديث فإن كلها معا توحى بالاضطراب والفوضى، ولا يأبه أحد بنوعية المعرفة التى تتراكم عنها بل يهتمون بكميتها فحسب، ويتمخض عن ذلك تبديد الطاقات بين التفاصيل، كما أنه لا يعلو شىء عن هذه العلوم التحليلية يصلح مرجعًا لها، وهى إذ لا تعتمد على أمر فكرى فلن تؤدى إلى شىء، وينكمش العقل الحديث شيئا فشيئا فى ذلك النطاق الدقيق الذى يتوهمون أنه كل شىء، وتخلط كل شىء بكل شىء فى استنتاج مشاكلات بين أمور لا رابط بينها، وتسعى إلى تطبيق منهج علم منها على علوم أخرى فتنقل إليها على اختلافها الشروط التى تصوغ ذلك العلم، ومن ثم تتوه عن طريقها فى النهاية لغياب المبدإ الذى يهديها، وتتفجر فوضى النظريات المتشاحنة المتصادمة والفرضيات المتصارعة التى يقفو بعضها أثر بعض حتى إن الفلاسفة يدفعون بعدم

جدوى البحث إلا من أجل البحث فحسب، وأن الحقيقة إن وُجِدت فهى فيما وراء مطال الإنسان، وأنه لا يصح إلا الاهتمام بالمفيد والرابح الذى يستحق أن يُسمى حقيقة، ولا ضرر فى ذلك لأى إنسان. والذكاء الذى ينكر وجود الحقيقة ينكر غايته ذاتها أو بالحرى ينكر ذاته، وانتحار الذكاء هو الناتج الأقصى للعلم والفلسفة فى الغرب، وربما تجسَّد ذلك عند البعض كمفتتحٍ للانتحار الكونى الرهيب الذى حلم به متشائمون بعينهم فشلوا فى فهم أى بصيص نور من الشرق، ومن ثم أخطئوا فى فهم الحقيقة الأسمى فى مبدإ 'ما وراء الوجود *non-being*' على أنها اللاشيء، وأخطئوا فى فهم مبدإ 'اللافعل *non-action*' على أنه القصور الذاتى!

وقد كان السبب الأوحد فى هذه الفوضى هو الجهل بالمبادئ، ولو استعدنا المعرفة الفكرية الصرفة فسوف ينمو كل شيء على طبيعته، وحينئذ يمكن وضع كل النطاقات فى موضعها الصحيح مرة أخرى حين نُقيمُ المبدئى فى موضع العَرَضى، ومن ثم نزيح كل الفرضيات الفارغة بإلقاء ضوء التركيب على نتائج التحليل المتشظية، ونضع تلك النتائج فى موضعها الصحيح من معرفة جديرة باسمها، ونضفى عليها باعتبارها معرفة ثانوية قيمة أعلى بمراحل عما يمكن أن تدعيه لنفسها اليوم. ولا بد من السعى إلى الميتافيزيقا الحقة أولا حيث لا زالت تعيش فى الشرق، وعندئذٍ فحسب يمكن التفكير لها فى أساس تراثى مشروع بربطها مرة أخرى بالمبادئ التى تناسب غايات بحثها على نحو طبيعى فيما نحافظ على العلوم الغربية بمدى مشروعيتها، ويربو السعى فى الغرب إلى تأسيس ما يشبه 'العلوم التراثية' فى الشرق سعى إلى المستحيل، ورغم أن الغرب كان له 'علومه التراثية' فى القرون الوسطى فلا بد من التسليم بأنها قد ضاعت تمامًا أو كادت، والنذر اليسير الذى بقى منها ضاعت مفاتيحه، وسوف يجد الغربيون صعوبة فى هضمها على غرار ما يجدون فى هضم العلوم الشرقية، ويقوم برهان ذلك فى إعمال الغيبيين لدراسات مستفيضة تسعى إلى أن تُسهِمَ بنصيب فى استعادة تلك العلوم. ولا يعنى ذلك أننا بعد أن استوفينا شرط الفهم الأصولى بمعرفة المبادئ لن نستلهم شيئا بالمرَّةِ من تلك العلوم القديمة ولا من العلوم الشرقية، ولكن كليهما يمكن أن يعمل فى استنباط عناصر ذات فائدة، والأهم من ذلك أن تكون مثالا محلولا لما يجب عمله فى بناء علوم أخرى تشاكلها، ولكنها دومًا سوف تكون على سبيل التلاؤم وليس الاستنساخ. والمبادئ وحدها كما ذكرنا آنفًا هى التى لا يصيبها تغير ولا تعديل، والمعرفة الناشئة عنها لا تحول بأى شكل كان، وتحتوى فى ذاتها على كل التلاؤمات المحتملة التى يمكن أن تولد فى المقامات النسبية كافة. ولذا تتخذ الصياغة الثانوية المذكورة موضعها تلقائيًّا طالما أشرفت عليها المعرفة، وطالما كانت الصفوة

قوية بما يكفى لفرض إطار عقلى على الجماهير فسوف يأتى كل ما يتمخض عن ذلك بتلقائية مثلما يُثمر الحال العقلى الراهن. وليس ذلك إلا مظاهر بادية، فالجماهير دائمًا ما تتأثر وتهتدى بما تعتبره طبيعيًّا دون علمها، ولكن من الممكن أن تهتدى إلى اتجاه طبيعى آخر بالكيفية ذاتها. والمهمة الفكرية الأولى التى يجب إنجازها هى الأولى حقا من كل جانب، فهى الأشد ضرورة والأشد أهمية فى الآن ذاته، ويعتمد عليها كل ما ينبثق عنها، ولكننا حين نقول 'معرفة ميتافيزيقية' يندر بين الغربيين اليوم من لديه أية فكرة عما تعنى مهما صغرت.

والشرقيون الذين نقدرهم لن يعترفوا بأية حضارة ما لم تكن تراثية، ولا سبيل إلى إضفاء تلك السمة على حضارة ليست كذلك بين ليلة وضحاها بدون ترتيب وإعداد، وليست هذه الأحلام والطوباويات من صنعنا نحن، وأصلح لنا أن نتركها للمتحمسين بلا فكر لذلك 'التفاؤل' الذى يعميهم عن رؤية ما يمكن وما لا يمكن إنجازه فى أحوال بعينها. والشرقيون الذين يضفون على الزمن قيمة نسبية يعلمون تمامًا ما هو الزمن، ولن يتخبطوا تخبط الغربيين بالاستعجال المَرَضِى الذى يحوِّلُ كل الأعمال إلى حُمِّيات مميتة. ولا يكادون يعتقدون أنهم أنجزوا غايتهم حتى ينهار كل شىء كما لو كانوا يبنون بيتًا على أرض منزلقة دون أن يتحسبوا ببناء أساس متين، فإن الأساس غير منظور.

ولا شك أن الذين قد يتحملون مسئولية القيام بالعمل الذى نتحدث عنه لن يحصلوا على نتائج فورية، ولكن عملهم لن يكون أقل حقيقية ولا أضعف أثرًا بل على العكس، وبينما لا يأملون فى حصاد ازدهار ظاهرى إلا أنهم سيستمتعون بعملهم ويكتسبون منه فوائد لا تقدر. والحق أنه ليس هناك معيار مشترك بين نتائج العمل الباطن الأسمى وبين أعمال مقام العوارض الحادثة، ولو كان الغربيون يفكرون بغير ذلك فلأنهم لا يعلمون كيف يرتفعون عن عالم الحواس ولا كيف يقلبون ترتيبهم 'الطبيعى' للأمور. ومن السهل دائمًا أن يستهين المرء بما لا يعلم عنه شيئًا وما يعجز عن تحقيقه، ولا عزاء له عن عجزه إلا احتقار مفترض وهو دواء متاح للجميع. ولكن قد يتبادر سؤال عما إذا كان العمل الباطنى الذى لا بد وأن يكون البداية هو الطريق الجوهرى الوحيد، فلماذا ننشغل بأى شىء آخر؟ والسبب فى الانشغال أن العوارض هى حقًا أمر ثانوى إلا أنه موجود فى الواقع، وحيث إننا فى عالم التجليات فلا نملك تجاهلها تمامًا، وحيث إن كل شىء يعتمد على المبادئ فكل شىء قابل للتساؤل، وسوف يكون من الخطإ ألا نحسب لتلك الإمكانية. وهناك سبب آخر أيضا يتعلق بالمنظور الغربى الحديث بما هو، فسوف تكون الفرصة ضيقة لإثارة اهتمام الصفوة المحتملة الموهوبة بأوليات الفكر الصرف لتحقيق ما

كان باطنياً فحسب، أو على الأقل ما بدا أنه كذلك فقط، ولكن الحق أن من السهل إثارة اهتمامها بتحقيق غايتها فى المستقبل البعيد، ورغم أن الغاية واحدة تكثر الطرق التى تؤدى إليها أو بالحرى فى تناولها، فبمجرد بلوغ مرحلة الميتافيزيقا المتعالية تختفى كل الاختلافات.

ويبرز بين هذه التنوعات طريق يتلاءم مع منظور الشعوب المقصودة بأفضل الطرق، فيكاد كل شيء فى أول الأمر خاصة أن يعمل كدعامة وفرصة سانحة، وحيث لا وجود لتعليم تراثى منتظم يصبح من الصعب التعبير عن الدافع الفعال فى هذه الحالة الاستثنائية للنمو الفكرى، فى حين أن أشد العوامل بساطة وغرابة هى التى كانت زخماً له فى بدايته من منظور الطبيعة الفردية للصفوة كما فى منظور الأحوال الظاهرة. وسوف نستطرد بإضافة أن الانشغال بالفكر لا يُلهى عن الانتباه إلى النفوذ الذى يتعين أن يسرى فى كل المجالات بأقل الدرجات مباشرة، وحتى لو لم يكن ذلك النفوذ مخططًا سلفًا، كما لم يسبق لحضارة أن حرَّمت على أحدٍ أن يبلغ بهداها نورًا روحيًّا يشع على من يدنونه فى كافة المجالات الأدنى، ولا أنهم سوف يفقدون شيئًا امتلكوه من قبل بإسهامهم هذا، وسوف يتردد النفوذ فى المجالات المختلفة للبنية الاجتماعية، وينتشر كانعكاس للذكاء الأسمى ومشاركة فيه[28].

وتتوسط مهمة أخرى بين معرفة المبادئ واستعادة 'العلوم التراثية'، أو قل هى جزء من المهمة ذاتها، وسوف يكون لها صدى فعال فى البنية الاجتماعية، كما أنها المهمة الوحيدة التى قد يجد الغرب القدرة فى نفسه على إنجازها، إلا أن ذلك يستلزم تفسيرًا، ففى القرون الوسطى التى كانت تراثية بلا جدال نجد صعوبة فى تقرير ما إذا كانت حقًّا تراثية بالمعنى الشرقى الكامل خاصة حين نأتى إلى البراهين الصورية عن طريق أو آخر، والتزامًا بما عُرِف عمومًا فإن التراث الغربى فى ذلك الزمن قد اتخذ السمت الدينى، إلا أن ذلك لا يعنى عدم وجود غيره بالضرورة، كما لا يعنى أن صفوة بعينها قد حادت عن الفكر الخالص فى متاهة الصور. وقد سبق القول بإمكان المقايسة بينهما، ولو كنا نكررها فى هذا السياق فذلك لأن الحضارة الإسلامية هى الوحيدة التى تقترب من الحضارة الأوروبية فى القرون الوسطى من عدة جوانب، وفى ذلك تشاكل يحسن أن نحسب له.

زد على ذلك أن الحقائق الدينية واللاهوتية لا يصح النظر إليها بموجب المنظور الفكرى البحت فحسب دون الاستعانة بكلية الميتافيزيقا التى تنتمى وحدها إلى عالم المبادئ بمعنى نسبى،

[28] وتنطوى هذه العبارة على تنويه مختصر إلى الرمزية التبتية أفالوكيتشفارا.

ولو كانت المبادئ معروفة على الأقل لشخص أو شخصين على تمام الوعى بها فلا نرى كيف يمكن لتراث دينى الظاهر أن يؤثر التأثير الذى فرضه فعلا طوال أحقاب، وأنتج كل النتائج التى سجلها التاريخ، والتى قد يبدو لأول وهلة أنها لا تخصه مباشرة، والتى لا يعرف المزيفون المحدثون كيفية لتزييفها مهما حاولوا. ولا بد من التسليم بأن نظريات المدرسيين فيها شىء من الميتافيزيقا التى لم تتحرر تمامًا من ربقة الفلسفة العرضية، ولا تميز بوضوح يفصلها عن اللاهوت، ولا مناص من ألا تكون ميتافيزيقا على وجه صحيح، ولكن الميتافيزيقا فى نهاية المطاف لم يعد لها أثر فى الفلسفة الحديثة[29]، وحقيقة وجود ميتافيزيقا أيًّا كان مداها تعنى أنها ستتفق مع كل المذاهب الميتافيزيقية، وتمتد المذاهب الشرقية إلى أبعد من ذلك بطرق شتى، لكن لا بد من وجود أمر فى القرون الوسطى للغرب ليكمل التعاليم البرانية، وقد كانت هذه المكملات بحوزة جماعة خفية، وقد لا يكون لها أثر فى أى متن مكتوب، فهى فى معظمها إشارات رمزية يفهمها من يعرف ما وراءها، ولكنها تستحيل على كل من عداه. ونحن على علم بما يجرى فى أوساط دينية شتى من ميل واضح إلى إنكار كافة 'الجوانيات' القديمة والمعاصرة على السواء، ولكننا نعتقد أن هذا الميل ناتج من صور الجوانية الزائفة التى تتفشى اليوم، وهى أمر يختلف تمامًا عن الجوانية الحقة التى نعنيها، والتى تركت آثارًا لا زال يمكن أن يكتشفها عقل تحرر من كل التحيزات. وأيًّا كان الأمر فهناك حقيقة واحدة لا تُدحَض، وهى أن أوروبا القرون الوسطى كان لها علاقة بين حين وآخر مع الشرقيين، وقد كان لهذه العلاقات أثر معتبر فى عالم الفكر، وربما كان من المعلوم كيف تدين أوروبا العصر الوسيط للعرب، وهم الوسطاء الطبيعيون بين الغرب والشرق النائى، كما كان هناك اتصال مباشر مع وسط آسيا والصين. ولن يكون من العبث دراسة حقبة شارلمان وكذلك حقبة الصليبيين رغم أنها حقب صراع ظاهر بين تراثين دينيين كان بلا جدوى، ولكن كان هناك تفاهم أيضًا على مستوى باطنى، ولا يمكن إلا أن يكون شيئًا متلبسًا بالتراث كما أشرنا لكى يقدم على ذلك، ولا وجود لمثله من عداوة بين حضارات الشرق التراثية أو حتى مجرد منافسة. ولكننا سنعود فيما بعد إلى هذه النقطة، وما نريد أن نطرحه الآن أن حضارة العصر الوسيط بفروع المعرفة والمؤسسات الاجتماعية فيها بغض النظر عن مدى ما حققت كان لها بنية الحضارة الشرقية، ونسلم بتبادل جرى على نطاق الفكر بين الحضارتين يستحيل وجوده فى الحضارة الحديثة.

[29] وقد كان لايبنيتز هو الوحيد الذى حاول تناول عناصر بعينها من المدرسيين ، إلا أنه خلطها باعتبارات من مقام مختلف تماما أدت إلى إفراغها من معناها ، وهو ما يقطع بأنه لم يفهمها تماما.

ويُقِرُّ البعض بضرورة إحياء الغرب ولكنهم يميلون إلى استعادة الوسائل الغربية القحة، ولا يحضهم على ذلك إلا عاطفية صرفة، ولا شك أنهم سيدفعون بالسؤال التالى، لماذا لا نعود ببساطة إلى التراث الدينى للقرون الوسطى بكل ما يلزمه من مؤسسات؟ أى لماذا لا نقعد راضين بالكاثوليكية بدلا من البحث فى جهات بعيدة عن الامتياز الذى حققته فى 'العالم المسيحى' القديم، والتى تفككت وحدته بالنهضة والإصلاح وما تلاهما من أحداث؟ ولو حدث ذلك هنا والآن لكان أمرًا جليلا سوف يؤدى على الأقل إلى إزاحة معظم الفوضى التى نشأت عن العالم الحديث، ولكن هذه المهمة ليست بالبساطة التى ينظر بها منظرون بعينهم لسوء الحظ، وسوف تقوم فى طريقهم كل أنواع العقبات التى تعترض من عكف على العمل فى هذا الاتجاه. ولا حاجة بنا لتعداد تلك العقبات ولكننا سوف نشير إلى العقليات السائدة فى العصر الحديث بمجملها، والتى لن تنصاع لتحول مثل هذا، فلا مناص فى هذا الطريق من العمل منذ البداية فى مهمة شاقة بعيدة المدى حتى لو ملكوا الوسائل، وهى أشق وأبعد بمراحل عن الطريق الذى نطرحه وأشد منه سطحية. وليس من برهان على أن الحضارة التراثية فى القرون الوسطى كان لها وجه دينى فقط، فمن المؤكد أنه كان هناك أمر آخر حتى لو كان الفلسفة المدرسية، ولذا كان وجود غيرها أقرب إلى الظن، فهذه الفلسفة رغم أوجه أهميتها لا زالت باقية على الجانب الظاهر فحسب. وأخيرًا لو كان على الغرب أن يختبئ على هذا المنوال وراء مظهر مخصوص فإن التفاهم مع الحضارات الأخرى سيجرى فى إطار محدود فحسب بدلا من أن يُقيم ذاته على أشد الأمور أصولية، وهكذا لن تحل معظم المشاكل ناهيك عن وجود أسباب دائمة للقلق ومخاطر تدمير كل شىء فى سياق تزيدات البروزيليتية الغربية، والتى لا بد أن تُكبح بفهم المبادئ على وجه صحيح، ويليه اتفاق ممكن لا تهم صياغته كثيرًا فى وجود المبدإ. ومن نافلة القول أن العمل الذى يجب أن يُنجَزَ فى نطاق الميتافيزيقا والدين جنبًا إلى جنب سيكون مما يستوجب الشكر، فنحن على يقين من أنهما حتى لو اتخذا طريقين مستقلين فسوف ينتج بينهما توافق لا محالة. زد على ذلك أنه لو قُدِّرَ للاحتمالات التى نقصدها أن تُثمِرَ فسوف يكون إحياء الدين مطلوبًا عاجلا أم آجلا فى كل الأحوال، فالدين صورة تراث يناسب الغرب خاصة، وسوف يكون هذا الإحياء من مهام الصفوة الفكرية بمجرد قيامها، وإن كانت المهمة قد تمت سلفًا فسوف تتجه جهود الصفوة إلى دعمها. وتنطوى الصورة الدينية على كل ما تحتاجه الغالبية العظمى من الغربيين الذين لا يرضيهم أى شىء آخر غير ما تهفو إليه نفوسهم، وهذه الغالبية لن تحتاج لشىء آخر، وسوف تكون هذه الصورة وسيلة لاستقبال نفوذ

المبادئ الأسمى، وهو على الدوام غير مباشر ولكن له فعالية حقيقية[30]، وسوف يكون لكل تراث كامل جانبان متكاملان ومنطبعان على أحدهما الآخر يستحيل الخلاف والصراع بينهما بموجب أن لكل منهما نطاقًا يخصه، فالنطاق الفكرى يخص الصفوة مباشرة، وهى التى تعمل على استمرار التواصل بين النطاقين حتى تضمن وحدة المذهب التراثى.

ونقول باختصار إننا لا نرغب فى أن نكون قصريين بأية درجة، كما لا نعتقد بأن أى عمل يضيع سدى لو جرى على هدى رشيد بما فيها التى تجرى فى مجالات ثانوية، وسوف تثمر حين يحين قطافها مع كل الأعمال الأخرى، وستقوم بدورها مهما كان متواضعًا فى تكوين البنية التامة لمستقبل لا زال بعيدًا. ولذا لن يكون هناك ما يمنع دراسة 'العلوم التراثية' أيًّا كانت الحضارة التى تنتمى إليها، وفى حالة من يريد أن يدرس بعض جوانبها من فوره يُشترط أن يكون لديه معطيات تكفى حتى لا يضل الطريق، وهى فى ذاتها تتطلب جهدًا أكثر مما قد يعتقد، وثانيًا ألا تضله الدراسة عن الأمور الجوهرية. والشرطان يرافق أحدهما الآخر، فمن وصلت طاقته الفكرية إلى حد التفرغ للدراسة بثقة فلا شك أنه لن يضحى بالأسمى فى سبيل الأدنى فى أى مجال يعمل فيه، ولن يرى إلا الأعمال التى ترتبط بالمبادئ، ويسرى الشرطان ذاتهما لو اتفقت 'الفلسفة العلمية' مع بعض نتائج 'العلوم التراثية' عرضًا رغم وجوب تجنب أى ظن بأن العلوم التراثية لها علاقة بكل ما كان علميًّا أو فلسفيًّا، فكل تلك النظريات تتغير وتهلك، فى حين أن كل ما له أساس تراثى يستمد ثباته وحياته من أسس التراث ذاته، وهى فحسب ما له قيمة لا تعتمد على نتائج البحث. وأما عن نقاط التواصل وأوجه التشاكل فلا بد من الحذر حتى لا يقع المرء فى تعليلات مغلوطة حين يتعامل مع صيغ مختلفة من الفكر، ولا بد أن يكون المرء على حذر كامل فى قول شىء يقبل التفسير على هذا المنوال، فمعظم معاصرينا يتمتعون بضيق أفق عقلى يجعلهم يرون تشابهًا فيما لا شبه فيه. ونقول فى حدود ما تناولناه إن كل ما يتم بروح تراثية حقة له غاية عميقة، إلا أن هناك نطاقًا بعينه لا بد من مراعاته بشكل عام على الأقل بحسب بنية النطاقات، كما لا بد للمرء أن يتحلى بمنظور تراثى كامل لا مجرد 'تراثية *traditionalism*' لا تربو عن ميل أو رجاء، ولا مناص من استيعابه للمبادئ بما يكفى لكى يهتدى بإلهامها الباطن، والذى إن ظهر مرة فلا خفاء له.

[30] وتشاكل الكيفية التى يهتم بها نظام الطبقات كى يوفر مشاركة الكافة فى التراث.

3

تَكوينُ الصفوةِ ومُهِمَّتِها

أشرنا عدة مرات فى الباب السابق إلى ما أسميناه ’الصفوة الفكرية‘. ولا شك أن القراء قد أدركوا أنها لا صلة لها بما يجرى تسميته بالاسم نفسه فى الغرب، وليس الدارسون والفلاسفة الذين يُعتبرون أعظم ’سلطة‘ فى تخصصهم مؤهلين للانضمام إلى هذه الصفوة نظراً لوقوعهم فى قهر عاداتهم الفكرية وتحيزاتهم التى عَلِقُوا بها وعلقت بهم، وكذلك ’قِصَرُ نظرهم الفكرى‘ التى تؤدى إليه تلك العادات. ولا بد من استثناءات مشرفة فى هذه المحافل لن يكون لها أثر يذكر. وعمومًا فإن الجاهل يتحلى بشىء من الخير لكن المتخصص معتقل فى نطاق بحثه، وقد انطلى عليه التشويه الذى نتج عن التعليم، وقد ينطوى الجاهل على إمكانيات للفهم لا يحاول تحسينها لانتهاز الفرص، وكلما انحطت مناهج التعليم فى الغرب كلما تفشى هذا النمط. ولا يمكن قياس مؤهلات الصفوة الفكرية المقصودة بأى معيار ظاهرى حيث إنهم يتعاملون مع الفكر البحت ولا تندرج مؤهلاتهم تحت التعليم ’الدنيوى‘. ففى الشرق أناس لا يعرفون القراءة والكتابة إلا أنهم بلغوا مقامات عليا بين مفكرى الصفوة. وعلى كل لا يصح المبالغة فى اتجاه أو آخر حيث إن الأمرين مستقلان وإن لم يتبع ذلك أنهما لا يتقابسان، ولو كان التعليم ’الدنيوى‘ الظاهرى فى الغرب الحديث يستطيع أن يوفر وسيلة أو أخرى تُفيدُ العمل فسوف يكون من الخطإ احتقارها بلا مبرر. إلا أن هناك أمورًا لا يصح دراستها قبل تحقق الهداية الباطنة التى أشرنا إليها بحيث يكتسب المرء حصانة من التشوه، ولن يكون هناك بعد هذه المرحلة ما يُخشى خطره، ذلك أن الطريق سوف ينفتح فى اتجاه غايته، ويتمكن المرء من ارتياد أى مجال كان دون مخاطر الشرود عن الطريق أو حتى الركون فيه طويلا، فأهميته الحقة ستكون معلومة سلفًا، ولن يمكن التوهان وراء الأغاليط من أى نوع أو شكل، ولا أن تُتَّخَذَ الأغاليط كحقائق،

ولا أن يختلط العرضى بالمطلق. ونقول بالتعبير الرمزى إن المرء سيحتكم على بوصلة لا تخطئ ودرع حصين. وقبل أن نتقدم إلى أبعد من ذلك لا بد من اجتياز فترة طويلة فى محاولة النفاذ، ولا نقول 'دائما' حيث إن الزمن ليس عاملا جوهريًّا فى هذا الشأن، وحينها لا بد من اتخاذ أعظم الاحتياطات حتى نجتنب الخلط، فلا يمكن أن توجد المخاطر ذاتها مرة بعد أخرى فى حضارة تراثية حيث يجد الموهوبون حقًّا كل ما يلزمهم بيسر كى يشحذوا مواهبهم الطبيعية، أما فى الغرب فلا يلقون حاليًّا إلا عقبات قد لا يمكن تجاوزها، ولا يمكن الخروج من وعثاء المواضعات العقلية والاجتماعية إلا بفضل ظروف استثنائية.

ولا وجود للصفوة الفكرية التى نقصدها فى الغرب، والاستثناءات التى أشرنا إليها نادرة ومبعثرة بحيث لا يصح اعتبارها شيئًا من هذا القبيل، كما أنهم غالبًا ما يصيرون 'لاغربيين' حيث إنهم أفراد يدينون للشرق بكل شىء، ويعيشون الأحوال التى يعيشها الشرقيون فى أوروبا، ويعرفون تمامًا ما هى المتاهة التى تفصلهم عن العقليات التى تحيط بهم. ولا جدال فى أن المرء يواجه إغراءً بأن يحتمى بالصمت بدلا من أن يخاطر بنطح حائط من اللامبالاة العامة فى محاولة التعبير عن أفكار بعينها أو حتى بدلا من استثارة أعمال عدوانية، إلا أن اليقين بضرورة التغيير يرافق الالتزام بعمل شىء حياله، ويوفر على الأقل للقادرين على شحذ ملكاتهم الكامنة فرصة لتحقيقها، والعقبة الأولى هى الوصول إلى المؤهلين الذين يوقنون بقدراتهم، والعقبة التالية هى التخلص ممن يعتقد أنه مؤهلٌ وهو ليس كذلك، والأرجح أن يتم ذلك بشكل تلقائى. ولم تكن هذه المسائل لتثور فى مجتمع تراثى منظم حيث يسود تعليم تراثى، وحيث يمكن أن ينهل منه كل امرئ بقدر استيعابه والمرتبة التى تعينه قدراته على الوصول إليها، والواقع أن هناك طرقًا لقياس تلك القدرات الفردية، إلا أن هذا أمر 'عملى' أو 'إجرائى' لو كان يمكن استخدام الكلمة فى هذا المقام، أو هى 'فنية *technical*' لو كان علينا استخدامها فى العالم الغربى فى أحواله الراهنة. وعلى كل فلا نريد الآن إلا أن نُحَذِّر الناس مسبقًا من بعض المصاعب التى لا بد من تجاوزها حتى نبدأ فى بناء مؤسسة الصفوة وبنيتها ولو بصورة جنينية، والحديث هنا والآن عن تعريف هذا التكوين أمر سابق لأوانه، فسوف يكون ذلك خاضعًا للأحوال إلى حد بعيد حيث إنه مسألة تلاؤم. وكل ما يمكن إنجازه الآن هو وعى عناصر الصفوة بكيانهم، ولا سبيل إلى ذلك إلا بطرح مفاهيم بعينها ستعمل على تأسيس التفاهم بينهم، وسوف تبين لهم وجود ما لم يعلموا بوجوده سلفًا، وهو ما سيجعلهم يرون إمكانية الاستمرار. فكل ما يتعلق بالميتافيزيقا ينطوى على قوة تفتح آفاقًا غير محدودة لكل من فهمها. وليست هذه أحجية ولا

طريقة فى الكلام ولكن يجب أن تُفهَمَ حرفيًّا كنتيجة مباشرة لكلية المبادئ، والذين سوف تطرق آذانهم أنباء عن الدراسات الميتافيزيقية والأمور التى تنتمى قصرًا إلى الفكر البحت لن يساورهم شك فى أن ذلك يعنى أعظم ما فى الوجود ولن يربو أى شيءٍ آخر قياسًا إليه عن لُعَبِ أطفال. زد على ذلك أن الذين يخطون إلى هذا النطاق بلا مؤهلات لاجتياز الخطوات الأولى على الأقل سينسحبون من تلقاء أنفسهم عندما يجدون أنهم سيتحملون مسئولية إنجاز حقيقى جسيم، فالأسرار الحقة تدرأ عن نفسها حب الاستطلاع الدنيوى، وتحميها طبيعتها ذاتها من صولات الغباء الإنسانى وقوى الوهم التى يمكن أن توصف 'بالشيطانية'، وليرَ كل فى هذه الصفة ما يراه سواءً أكان حرفيًّا أم صوريًّا. ولذا كان التحريم الذى يُفرَضُ فى هذا المجال أمرًا صبيانيًّا بلا معنى، فقد يكون التحريم مشروعًا فى حالات أخرى وهو ما لا ننوى أن نتحدث عنه، إلا أنه لا يتعلق بالفكر البحت وما يجرى فيما وراء النظرية مما يتطلب شيئًا من كتمان، فالذين تأهلوا بالسلوك الصحيح لا بد أن يكونوا بالحذر والسرية بقدر ما يلزم، وكل ذلك بعيد تمامًا عن الصيغ البرانية 'للأسرار' الخرافية التى لا تعدو حجة من ليس عنده شيء يستحق القول.

وحيث إننا بادرنا إلى الحديث عن مؤسسة الصفوة *institution of the elite* فلا بد من الإشارة إلى خطإٍ شائع يدفع الناس إلى التفكير فى قيام شيء أشبه 'بالمنظمات *organisations*' التى يتخيلون أنها تشكيل لجماعة أو عصبة أو رابطة. وهذا خطأ تام يبرهن على أنهم لا يعلمون شيئًا عن أهمية المسألة، وعِلّةُ ذلك واضحة فيما تقدم. فلا يمكن احتواء الميتافيزيقا فى صيغة أية منظومة ولا نظرية، كما لا يمكن أن تحتمل الصفوة الفكرية صور 'مجتمع' يقوم على فرمانات ولوائح واتحادات وغيرها مما يشكل التجليات الظاهرة للكلمة، فلا شأن لهذه الأمور بالميتافيزيقا الحقة، وحتى لو بدأنا بتشكيلِ نواةٍ فلن تؤدى تلك المنظمات إلا إلى نكسة محققة، والواقع أنه لا فائدة من هذا الشكل من 'المجتمع' فى حالتنا حتى إنه قد يكون خطرًا شديدًا نتيجة الانحرافات التى لن تتوانى عن الظهور مهما كانت دقة اختيارنا، وسيصعب منعها فى البداية خاصة بين جماعة لم تتأهل لمقاومتها، وقد يكفى تسلل شخص أو شخصين لكى يؤدى عدم اكتمال فهمها إلى المخاطرة بكل شيء، والأرجح أن انصياع جماعة من هذا النوع لفكرة إمكان تحقيق حركة اجتماعية عاجلة قد يضلهم تمامًا ويؤدى إلى فشلهم حتى لو كانت فكرة 'سياسية' بالمعنى الضيق، وهى أشد الكوارث وقعًا وتسفر عن طبيعة النهاية المتوقعة. ونتوفر الأمثلة على هذه الانحرافات، فكم من مؤسسات كان من شأنها أن تحقق وظيفة عليا بالتقدم فى اتجاهات مخططة، وإن لم تكن فكرية صرفة فهى على الأقل على مشارف الفكر، وقد بدأت فى التدهور

بمجرد قيامها على هذه الوتيرة! ولم تكتفِ بعضها بالانحراف بل اتخذت السبيل المناقض تمامًا رغم أنها لا زالت تحمل شعارات غاياتها الأصلية، وهى واضحة لكل ذى عينين ممن يستطيع فهمها، وقد تمخض عنها خسائر جسيمة بعد القرن السادس عشر لما كان يمكن الحفاظ عليه من تراث العصر الوسيط، ولن نتناول النكسات التى صاحبتها مثل الطموح إلى الصغائر والمنافسة الفردية والعداوة الشخصية وشتى الأسباب التى تؤدى إلى الخلاف بين الجماعات التى تشكلت على هذا المنوال، خاصة لو كنا نعالج أمرًا مثل 'الفردية الغربية'. ويوضح كل ذلك ما يجب أن نمتنع عنه، وربما كان ما يجب عمله أقل وضوحًا، وهو أمر طبيعى حتى لا يمكن القول كيف تتشكل الصفوة هنا والآن بافتراض قيامها، وربما كان ذلك فى مستقبل بعيد لا يصح تناوله بناءً على أوهام فى هذا الشأن. وسوف نقول على كل حال إن أقوى المنظمات فى الشرق التى امتد نفوذها إلى آفاق بعيدة لا علاقة لها بما نسميه 'مجتمعات *societies*' بالمعنى الأوروبى، فقد حدث أن تكونت مجتمعات خوارجية لغايات مخصوصة مؤقتة واختفت بمجرد أداء الغرض منها. وليست تلك الخوارجية إلا برهانًا عرضيًا على نفوذ المنظومة الداخلية القائمة، وهى على الدوام تامة الاستقلال عن المنظومات الاجتماعية أيًّا كانت أهميتها نظرًا لأن من يدير الحركة لا يشارك فيها[31]. وهنا نجد الخطة العكسية لمن يرغب فى بدء تشكيل جماعات ظاهرية، فهذه الجماعات لا بد أن تكون سببًا لا نتيجة، ولن يكون لها نفع ما لم توجد مؤسسة الصفوة، 'فقبل أن تعمل لا بد أن توجد' كما يقول المدرسيون، وما لم تكن قوية بما يكفى ومنظمة بشكل يمنع الانحراف. ولا وجود لأمثلة يمكن أن يُستلهَمَ منها حاليًّا سوى فى الشرق، ولدينا أسباب تدعو إلى الاعتقاد بأن الغرب كذلك كان فيه مؤسسات مشاكلة فى العصر الوسيط، ولكن لا مجال لأن تكون قد تركت آثارًا يمكن أن تهدى لتكوين ما يشاكل مؤسسات الشرق، فذلك التشاكل لا يقوم على فرضيات فارغة بل على علامات لا تخدع الذين يعرفون أمورًا بعينها، ومعرفة هذه الأمور يستلزم البحث حيث لا زالت توجد كجزء من الحاضر المعيش، فنحن لا نتحدث عن عجائب أثرية بل عن معرفة لا بد أن تكون واقعية مباشرة. وهذه الفكرة عن تكوين مؤسسات لا تتخذ الصورة 'الاجتماعية' بأى شكل كان هى فكرة غريبة عن العقليات الحديثة، فليس لها ملامح ظاهرة من هذه الجماعات، ولذا كانت أشد تأثيرًا بموجب اعتمادها على مبادئ معصومة دون أن تسمح لنفسها بالابتذال والاعتماد على أمور فانية، وقد تواترت علينا صعوبات شتى تواجه من يحاول أن يجعل الناس يفهمونها. وربما

[31] ونرجع هنا إلى مقولة أرسطو عن ' المحرك الذى لا يتحرك' ، والتى تحمل أوجها شتى من التطبيقات.

واتت الفرصة يومًا كى نعكف على طرح مسهب لهذا الموضوع، فهو مما يخرج عن نطاق الدراسة الحالية حيث نشير إليه بشكل عرضى فحسب كى نجتنب سوء الفهم.

ولا نبتغى قطع الطريق على أية إمكانية فى هذا المجال أو غيره بإحباط أية مبادرة شرط أن تنتج أمرًا مفيدًا وليست مجرد مضيعة للجهود، ولا نأمل إلا أن تحذر الشعوب من أغاليط الآراء والتسرع فى الاستنتاجات. ومن نافلة القول أن اجتماع اثنين فيما نسميه 'مجموعة عمل' لا يشكل خطراً بذاته شرط وعى المشاركين التام بأنهما لا يحتاجان إلى الشكل الصورى الذى يحلو لكافة معاصرينا لسبب وحيد هو أنهم يؤمنون أن الظواهر هى كل شىء. ولا محيص عن العناية التامة فى تشكيل هذه المجموعات إذا أريد لها أن تعمل بجدية، ولا بد من اتخاذ احتياطات حيث إن ما يتمخض عنها يستحضر قوى لا يعرف عنها الناس شيئًا، وسوف يجد الذين لا يحافظون على السر أنفسهم فى قهر ردود فعل غريبة طالما لم يصلوا إلى مستوى الفهم المناسب، كما أن مسألة المنهج تعتمد على المبادئ ذاتها، مما يجعلها أهم فى هذا المجال منها فى أى مجال آخر، وأن لها نتائج أشد خطراً من نتائج العلم التجريبى حتى إن لم تكن فيه كمًّا مهملاً. وليس هنا موضع للإسهاب فى تلك الاعتبارات، ولا نبالغ فى شىء ولكننا لا نرغب فى إخفاء المصاعب كما قلنا فى البداية، فالتلاؤم مع أحوال بعينها أمر صعب على الدوام، ولن يمكن تحقيق أقل قدر من النتائج الفعالة دون علم نظرى مستفيض. وليس الوصول إلى تلك المعرفة سهل على الغربيين على كل حال، ولا نحن نصر عليها بتشدد، فهذا الواجب هو نقطة البدء الجوهرية والتجهيز الذى لا غنى عنه، وبدونه لن يتم شىء، وعليه تعتمد كافة التحققات فى أى نطاق آخر.

ولا زال هنالك أمر يستدعى التفسير، فقد قلنا فى موضع آخر إن الشرقيين لن يتوانوا عن معونة الصفوة الفكرية على إنجاز مهمتها، والواقع أنهم سوف يشعرون بتعاطف لإعادة العلاقات إلى نصابها الطبيعى، إلا أن ذلك يستلزم قيام الصفوة الغربية مسبقًا، ولا بد أن يأخذ الغرب زمام المبادرة فى هذا الشأن. أما فيما يتعلق بالوضع الحالى فإن المفوضين من الحضارات الشرقية لن يهتموا بالغرب فكريًّا إلا أنهم قد يهتمون بالأفراد الذين يتقربون إليهم مباشرة أو بشكل غير مباشر، وليسوا إلا استثناءات نادرة لا تسمح بعمل عام. ويمكن أن نقول ما يلى بشكل محدد، لن تحاول أية مؤسسة شرقية أن تتواصل مع مؤسسات غربية أيا كانت دون تغير الأحوال حيث إنها يجب أن تتواصل معها فحسب لو كانت صفوة قائمة على المبادئ الحقة. وحتى يأتى ذلك اليوم فلا مجال لسؤال الشرقيين شيئا غير الإلهام، وهو بالفعل أمر جلل،

وسوف يحدث على أيدى وسطاء أفراد لا عن طريق عمل فعال، اللهم سوى فى اضطرابات فجائية غير متوقعة، ولن يفعلوا ما قد يحملهم مسئولية الأمور فى العالم الغربى، وأن من المفهوم أن هذه الأمور تتعلق بالغربيين أنفسهم وحُمَّى مبادرتهم إلى التدخل فى شئون الغير. ولو لم يبرهن الغرب على إرادته وقدرته على فهم كل ما يلزم للعلاقات مع الشرق فلن يتدخل الشرقيون إذ إنهم يعلمون بعدم جدوى التدخل حتى لو كان الغرب ينحدر إلى الجائحة، ولا يملكون إلا الدفاع عن أنفسهم. فكيف يملك أيًّا من كان أن يؤثر على الغرب فى حين أنه لا يجد فيه موقعًا لقدم؟

ونكرر مرة أخرى أن على الغرب أن يبادر بالخطوات الأولى، وليس للجماهير الغربية شأن بذلك بالطبع، ولن يكون هناك احتياج لأى عدد جسيم من الأفراد فستؤدى كثرتهم غالبًا إلى مضار أشد من المنافع، ولا يلزم إلا جماعة قليلة العدد شرط قدرتهم على فهم كل الأمور بتعمق. كما أن الذين استوعبوا الفكر الشرقى مباشرة أو بشكل غير مباشر عليهم أن يعملوا فى حدود الوساطة التى نوهنا عنها، فقد صاروا أقرب إلى الشرق باستيعابهم حتى يمكنهم اقتراح أفكار وذكر مفاهيم والإشارة إلى ما يجب أن يتم، ولكن لا يقوم تشكيل المؤسسة بمبادرة منهم، فلو حدث ذلك ما أصبحت غربية. ولو كان لا زال يوجد فى الغرب أفراد حافظوا على تركة العصر الوسيط من الفكر البحت فسوف يبسط ذلك الأمور إلى حد بعيد، ولكن عليهم أن يتقدموا بأنفسهم ويطرحون أفكارهم، وما لم يتقدموا فليس علينا أن نتحمل مسئولية هذا الأمر. ونظراً للفشل الذى يبدو محتملا فإن الذين تعلموا من مذاهب الشرق بشكل غير مباشر فحسب هم أصلح من يبادر إلى تكوين الصفوة من واقع بنائهم الذاتى بفهم تلك المذاهب دون حاجة إلى التواصل مباشرة مع الشرق، كما أنهم سيعملون على الحفاظ على الآثار التى لا زالت توجد فى الحضارة الغربية، خاصة ما تعلق منها بمنظور التراث الدينى بعد أن بقى رغم المنظور الغربى السائد. ولا يعنى ذلك أن الذين أصبحوا شرقيين قد فقدوا اتصالهم بهذه الأمور، خاصة وأنهم ممثلون للمنظور التراثى جوهريًّا، ولكن موقفهم غير معتاد من حيث قلة حفاظهم عليها خاصة وأنهم لم يُستَدْعَوا للتعاون. ولا بد أن يتأهبوا لتفسير طرح الشرقيين بطريق أقرب إلى فهم الغرب، وأن يتناولوا إمكانات الاتفاق التى يؤهلهم فهم تلك المذاهب للتعبير عنها، وعليهم أن يركنوا إلى كونهم وسطاء فحسب، فمجرد وجودهم يقطع بأن الأمل لم يُفقد بعد فى الوصول إلى تفاهم.

ونحن على يقين من أن هذه الأفكار لن تؤوَلَ بغير ما هى عليه ولن يُستنتَجَ منها ما

يخالف اعتقادنا وتظل كثير من النقاط فيها بلا تحديد، كما أن أحوال المستقبل فحسب هى التى ستسمح بكشفها شيئًا فشيئًا. والعوارض لا بد أن تقوم بدور فى كل ما ليس مذهبيًّا بالضرورة، ويمكن أن يُستَنتَجَ منها الوسائل الثانوية لتحقيق مخطط التلاؤم، ونقول وسائل ثانوية حيث إن الوسائل الجوهرية تنتمى قصرًا إلى المعرفة الصرف، أى المعرفة النظرية التى تؤدى إلى المعرفة الفعالة التى ليست وسائل بل غايات بذاتها، ويُعَدُّ أى تطبيق بالقياس إليه مجرد 'حادث' عرضى. ولو كنا نعتنى بألا نقول أكثر ولا أقل مما يجب عن هذه المسألة فذلك لأننا نبتغى الوضوح بقدر الإمكان كما أننا نترك مجالا لإمكانات لم نتوقعها، والتى سوف تلقى الأحداث عليها ضوءًا فيما بعد، فالعناصر التى تُؤَلِّفُ الواقع مركبة للغاية، وسوف يستحيل فى عدم استقرار الأمور الراهن فى الغرب أن نبالغ فى أهمية الدور الذى تقوم به تلك الإمكانات، والتى لا نقول أنها غير متوقعة مطلقًا ولكن ليس لنا الحق فى توقعها. ولذا جاء معظم ما يمكن قوله بصيغة النفى فى الرد على الاعتراضات، والتى صيغ بعضها بالفعل وظل بعضها قائمًا على سبيل الاحتمال، أو بمعنى أنها تمهد الطريق بإزالة العوائق وسوء الفهم بالمدى الذى تواجهنا به، ولكن عملية فصل الحب عن العصاف هذه لها قيمة بذاتها أيًّا كان ما تبدو عليه الأحوال، فهو تنقية إيجابية للمجال، ونعلم تمامًا أن نفاد الصبر الغربى لا يميل إلى هذا المنهاج وأنه أقرب إلى التضحية به من أجل السرعة، ولكن ليس علينا أن نتنازل عن شىء حتى نميل ميلَه، ولن يسمح لأى شىء أن يتبلَّر بالجرى على النقيض من الغاية التى نأملها. والذين لا يقدرون حتى على كبح نفاذ صبرهم سوف يكونون أقل قدرة على القيام بأقل عمل ميتافيزيقى، فليحاولوا إن شاءوا كتجربة ابتدائية أن يركزوا انتباههم على فكرة واحدة فقط أيًّا كانت لمدة نصف دقيقة، ولا يبدو ذلك مطلبًا عسيرًا، وسوف يحكمون بأنفسهم أننا لم نخطئ الحكم على قدراتهم[32].

ولن نزيد القول فى مسألة الوسائل التى تؤدى إلى قيام صفوة فكرية فى الغرب حتى لو

32 ولنقتبس اعتراف ماكس موللر الصريح عن التركيز' ولا نكاد نعلم عندنا فى الغرب ما يعنيه تركيز الفكر فى نقطة واحدة كما يسميها الهندوس إيكاجراتا أو إيكاجريا ، فعقولنا أشبه بالكاليدوسكوب فى حركة الفكر الدائمة ، ومحاولة إغماض عيوننا عن كل شىء عدا فكرة واحدة قد أصبحت من المستحيلات كما لو كنا نتأمل فى نغمة واحدة دون ما يصاحبها من ألحان. ويستحيل أو يكاد فى الحياة التى نحياها الآن أن نصل إلى تركيز الفكر بما تعنيه إيكاجريا التى يستحيل بدونها تناول كافة المذاهب الفلسفية أو الدينية' *Preface to the Sacred Books of the East, ppxxiii-xxiv*. ، ويكاد يستحيل وصف الطبيعة المبعثرة للمنظور الغربى بأبلغ من ذلك ، وعلينا أن نصلح أمرين فحسب فى هذا الوصف هما أن الهندوس لا يعانون مما نسميه نحن ' فلسفة أو دينا' بل إن عندهم مذهبا فعالا فى ماضيهم وحاضرهم فى ' الفكر الميتافيزيقى' فحسب.

افترضنا أن كل شيء مواتٍ لقيامها فلا يبدو إنها ممكنة على الفور، ولا يعنى ذلك أن هذا ليس أوان بداية التفكير فى كيفية الاستعداد لها. أما عن الدور المنوط بهذه الصفوة فإنه قد اتضح بما يكفى فيما طرحناه حتى الآن، فهى جوهريًّا عودة الغرب إلى حضارته التراثية بمبادئها ومؤسساتها، ولا بد أن نتبع هذه العودة ترتيبًا صحيحًا بين المبادئ ونتائجها يتنزل تدريجيًّا إلى مراتب أدنى حتى مرتبة العوارض التطبيقية، ولا يمكن لهذا أن يتم بدون ما يمكن للشرق أن يقدمه وما بقى من عناصر تراثية شحيحة فى الغرب ذاته، ويكمل الأول الثانى بانطباعه عليه وليس تعديله، فهو يضفى على غايته معنى أعمق وغرضًا أسمى. وكما أسلفنا فلا بد للصفوة الفكرية من اتخاذ موقف فكرى حازم حتى تنشر نفوذها بشكل طبيعى فى توالى نتائجه فى زمنها الطبيعى على كل المجالات بما فيها المجال الاجتماعى، ولن يكون سابق إنجاز بعض هذه النتائج إلا داعيًا للشكر، ولكن الجهود الأولى لا يصح أن تنصرف إلى هذه الغاية أولا، فذلك سوف يعنى تقديم العارض على المبدئى. وحتى يحين الحين فإن الاعتبارات التى تتعلق بوجهات النظر الثانوية لا يصح أن تتدخل إلا بمقدار ضرب المثل فحسب، أو بالحرى بمثابة ’تصوير‘ للتوقعات بطرحها بشكل لائق، فسوف يكون لها فضل تسهيل فهم أسمى الحقائق بتمكينها لموضع قدم فى غمارها، وتلفت انتباه الناس إلى سوء فهمهم لملكاتهم الكامنة حتى توهموا العجز التام فى أنفسهم عن الفكر البحت دون حتى أن يعرفوا ماهيته. فليتذكر الجميع ما قلناه آنفًا عن الوسائل غير المتوقعة التى قد تربو إلى عامل حاسم فى النمو الفكرى. ولا بد من الفصل المطلق بين الجوهرى والعرضى، ولكن بمجرد إرساء هذا الفصل لا نرى سببًا لكى نَحُدَّ حدودًا صارمة على الدور المنوط بالصفوة، والذى يستطيع فيه كل فرد أن يلجأ إلى مواهبه الخاصة دون مساس بالأمور الجوهرية. أى إن الصفوة سوف تعمل على تنمية ذاتها أولا حيث إن أعضاءها لن يتوانوا عن الاستفادة بما اكتسبوه من معرفة فى هذا العمل، وهو بمثابة ملكية دائمة غير مجذوذة لهم، ولكنها سوف تكون بالضرورة عملا غير مباشر من أجل الغرب عمومًا حيث يستحيل ألا يثمر هذا العمل تعديلات جسيمة على مجال فاعليته إن عاجلاً أم آجلا، أضف إلى ذلك أن تيارات العقل خاضعة لقوانين لا تفتر، وتضفى معرفة تلك القوانين على العمل ما لا يقاس من فاعلية عن العمل المشتق من التجربة، ولكن ذلك يستلزم قيام مؤسسة فكرية حتى تثمر تلك التطبيقات بكمالها، وليس ذلك للقول بعدم وجود نتائج جزئية تستحق التقدير فيما سبق، ومهما كانت رثاثة وسائل العمل المتاحة فلا مناص من أن توضع موضع التحقيق على حالها وإلا امتنع الوصول إلى أكمل منها. وسنضيف هنا أن أقل الأمور التى أنجزت بهدى من

المبادئ تحمل افتراضًا فى طياتها بإمكانيات قد يكون لها أثر جسيم، ويسرى هذا الأثر بالتشاكل فى المجالات كافة حين تنتشر تردداتها بدفعها الذاتى فى الهيكل الكامل بتوالٍ لا ينقطع[33].

وحينما نتحدث عن دور الصفوة الفكرية نفترض أن عملها لن ينقطع من جراء حدثٍ عنيف مفاجئ، أى إننا نفترض ظروفًا مثالية شبه معملية، كما أن من الممكن أن تجتاح الغرب جائحة قبل أن يتم إنجاز العمل، ولو قُدر لهذا الحدث أن يحدث قبل قيام مؤسسة الصفوة فإن نتائج العمل الأسبق سوف تتحدد فى المكاسب الفكرية بالضرورة، وسوف يحصدها الذين شاركوا فيها، إلا أن هذه المكاسب أمر لا يقدر بثمن، وما لم يكن غير الجائحة فليس من بدٍ لاستمرار العمل، وسوف تمتنع ثماره المعرفية على الناس كافة عدا قلائل احتكموا على الجوهريات.

ولو كانت الصفوة قائمة حتى لو لم يسعفها الوقت فى التأثير العميق على العقلية العامة فسوف يكون هناك شىء أكثر فى زمن الاضطرابات من رمز سفينة تسبح على مياه الفيضان، ويمكن أن تعمل فيما بعده لدعم العمل الذى سوف يتلقاه الغرب من الحضارات الأخرى فى مبادئ نمو جديد رغم أنه قد يفقد استقلاله الذاتى وإن كان إلى حين، وفى هذه الحالة سوف يكون علينا الاعتبار فى توقعات تدعو إلى الأسف، وسوف تكون الثورات الإثنية التى نوهنا عنها بالغة الخطورة، وقد يكون أفضل للغرب أن يُمتصَّ بكامله فى حضارات أخرى حتى يحتكم على حضارة تضاهى الحضارات الشرقية، إلا أنها ستتلاءم مع أحواله، وسوف يُعفَى الشطر الأعظم من جماهيره على الأقل من محاولة استيعاب الصور التراثية التى لم تُصنَعْ له. وسوف يجرى هذا التحول تلقائيًا بلا عقبات حتى يكتمل للغرب حضارة تراثية حقة، وهو ما وصفناه بأفضل الاحتمالات. وهذا هو عمل الصفوة بمعونة المسئولين عن التراث الشرقى بلا شك ولكن بمبادرة غربية، ويجب أن يكون من المفهوم منذ الآن أن هذه الحالة الأخيرة سوف تكون ميزة عظيمة حيث إن تلك المبادرة ستكون الوسيلة إلى احتفاظ الغرب باستقلاله، وسوف يبدأ من العناصر التى تستحق الحفاظ عليها من حضاراته الدارسة كأساس لمستقبل جديد. ولو توفر الوقت لهذه الإمكانية كى تتحقق فإن الجائحة التى بدأنا بتوقعها لن تحدث، حيث

---

[33] ونشير هنا إلى نظرية ميتافيزيقية مهمة للغاية أسميناها ' نظرية الإيماء *theory of gestures*' ، والتى ربما واتى الحظ بأن نطرحها بإسهاب فى دراسة خاصة ، وكلمة ' توالى *progression*' تأتى هنا بمعنى بالمعنى الرياضى للمتواليات ، ولكنها منقولة بحيث تنطبق على النظام الكلى *universal order* ولم يعد يحدها مجال بعينه من عالم الكم. راجع ما كتبناه عن ' العمل والجزاء أبورفا' فى كتاب ' مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية' ، جزء 3 ، باب 13.

إن الحضارة الغربية قد أصبحت طبيعية مرة أخرى، وسوف يكون لها موقعها المشروع بين الحضارات الأخرى بدلا من أن تكون فى الزمن الراهن نقمة وقهراً للعالم، وعلى كل فلا بد أن يبدأ العمل كما لو كان من المحتوم أن يتحقق الهدف، وحتى لو لم تسمح به الظروف فلن يضيع شئ مما تم، وسيشجع دوام طرحه من كان قادرًا على المشاركة فى الصفوة بدافع محاولة فهم الفكر البحت، وليس هذا الدافع كمًّا مهملا طالما لم يتوصلوا إلى وعى كامل بأمر أقل عرضية مما تعودوا، أى ما قيمة الفكر البحت بذاته وبغض النظر عن نتائجه التى تتفتح فى المجالات الظاهرية، وسوف تكون تلك النتائج عونًا مهما كانت ثانوية ولن تظل عقبات طالما وُضِعَت فى موضعها السوى، ومراعاة ألا نخلط الجوهرى بالعارض، وقد عكفنا طويلا على تفسير هذه المسائل حتى نبرر للذين يفهمون هذه الأمور منطلقنا هنا، وهو إن لم يناظر فكرنا كله فهو على الأقل يناظر شطرًا حقيقيًّا منه. ولا ندَّعى أننا قد أحطنا هنا سوى بالإمكانات البعيدة المدى إلا أنها لا زالت إمكانات تستحق الأخذ فى الاعتبار، كما أنها على الحقيقة خطوة بقدر ما نحو تحقيق الغاية منها. وإلى جانب ذلك فقد تطرأ أحداث فى المناخ القلق الذى ينتاب الغرب الحديث بفعل الأحوال التى تفوق كل التوقعات، فلا تعتبر إذن مبكرة للاستعداد لمواجهتها، ومن الأفضل أن ننظر إلى بعيد حتى لا نُفاجأ على غِرَّةٍ بكارثة لا دواء لها. ولا جدال فى أننا لم نتوهم أن معاصرينا سيقرأون تحذيرنا على نطاق واسع، فكما سبق القول إن الصفوة لا حاجة بها لأن تكون كبيرة العدد خاصة فى بداية تأسيسها كى نضمن أن نفوذ عملها سيكون فعالا حتى على الذين لا فكرة لديهم عن وجودها ولا الذين يشكون على الأقل فى نطاق فاعليتها. وهنا يبرز إلى الضوء عدم جدوى كتمان 'الأسرار' التى نوهنا عنها، ففاعليتها بطبيعتها تخفى عنهم كما أنهم لا يقدرون على فهمها أصلا. ولن يكون هناك احتمال لأن تكشف الصفوة للعامة عن وسائلها وأعمالها فلا مبرر لذلك، وحتى لو رغبت فى ذلك فلن تستطيع طرحها بلغة يفهمها الغالبية، وسوف تعرف مقدمًا أنها ستكون مضيعة للوقت وأنه يحسن الاستفادة من الجهد المنصرف إليها فى أغراض أفضل. ونحن لا نلاحى أن مخاطر الإفصاح عن أمور بعينها قد تغرى بعض الخلق على إطلاق قوى لا يعلمون عنها شيئًا من أجل حب الاستطلاع فحسب دون أن يعلموا حقيقة غايتها ولا إلى أين تؤدى بهم. وسوف يكون ذلك سببًا إضافيًّا لخلل الاتزان وتضخيمًا لجهود الذين يدأبون على صنع القلاقل للعقل الغربى اليوم، والذين سيعكفون على ذلك طوال فترة لاحقة وهى ما يُخشَى منه أكثر من أى شىء آخر نظرًا لطبيعة عواملها الفعالة، إلا أن المؤهلين بمعرفة خاصة سوف يقدرون تلك المخاطر حق

قدرها، وسوف يعلمون تمامًا ما يفعلون تجاهها دون التقيُّدِ بغير ما انطوت عليه المرتبة الفكرية التى وصلوا إليها. كما أن الخطوات الأولى فى الإعداد النظرى جوهرية ولا غنى عنها، وبلا تحفظ فى تطبيق النظرية سوى ما كان لا يقبل التعبير ولا التواصل، فكل امرئ عليه أن يفهم بقدر إمكانه، أما الذين لا يفهمون فلن يجنوا شيئًا من جراء ذلك ولن يعانوا منه ضررًا، وسيبقون على ما كانوا عليه أبدًا. وربما اندهش البعض لاهتمامنا الغامر بطرح بسائط الأمور التى لا ينشأ عنها عوائق، إلا أن التجربة قد أثبتت أن أكبر قدر من الحذر قد لا يكفى فى هذا المقام، ويحسن بنا أن نبالغ فى تفسير بعض نقاط من أن نُقَصِّرَ فيه بمخاطرة أن يُفهَمَ قصدنا خطأً، وقد حضَّنا ما سوف نطرحه عن القلق ذاته كاستجابة لواقع نقص الفهم الذى عانيناه وجها لوجه فى كثير من المواقف، وسوف تبرهن على أن مخاوفنا ألا يفهمنا الغير لا مبالغة فيها.

4

ليسَ اندِمَاجًا بَل فَهْمٌ مُتبادَلٌ

يمكن أن تُضاهَى الحضارات الشرقية ببعضها البعض رغم الاختلافات الكبيرة للصور التى تتزيا بها، ذلك أنها جميعًا تراثية جوهريًّا، ولكل منها أسلوبه فى التعبير وصِيَغُه، ولكن أينما كان تراث بالمعنى الحقيقى العميق فلا بد أن يكون متفقا على المبادئ مع الحضارات الأخرى، ولا تخرج الاختلافات عن الصور الظاهرية لكل حضارة على حدة، وقد تختلف حتى فى مجالات قاصرة على التطبيقات العرضية أولها سمات الجنس التى تختلف فى كل حضارة فى حدود بعينها، وهى حدود المجال المفتوح للتلاؤمات. ولكن حينما لا يكون فى الحضارة غير صورتها الظاهرية التى لا تعكس شيئًا من مقام أعمق فسوف يكون اختلافها هو كل ما بقى منها قياسًا إلى الحضارات الأخرى، فلا يمكن الاتفاق معها منذ ضاعت مبادئها، ولذا يبدو عدم الارتباط الفعلى بتراث هو جِذْر الانحراف الغربى، ولذا تجشمنا القول تكرارًا بأنه لو قُدِّرَ للصفوة الفكرية أن تتأسس فإن الغاية الجوهرية التى ستعمل عليها هى عودة الغرب إلى الحضارة التراثية، وسوف نضيف أنه لو حدث تطور غربى صحيح بهذا المعنى فلدينا مثال له فى العصور الوسطى، ولن تكون المسألة بكاملها استنساخًا لما وُجِدَ آنذاك وهو عمل يستحيل، وأيًّا كان ما يعتقده الناس فإن التاريخ لا يعيد نفسه، وليس به إلا تشاكل الأمور فى هذه الدنيا لا تماهيها، ولكن المسألة هى الاستلهام منها للتلاؤمات اللازمة للأحوال. وذلك هو ما قلناه دائمًا كلمة بكلمة، ونعيده هنا بقصد محدد بكلماته التى استخدمناها، وهو ما يبدو بالنسبة إلينا واضحًا وراء أية شكوك، إلا أن هناك بعض من أساءوا الفهم بشكل غريب حتى إنهم عزوا إلينا تعصبًا فى الرغبة بتأسيس شىء أشبه 'بتوفيق الأديان *syncretism*' السكندرى. وسوف نعود إلى ذلك بعد أن نوضح تمامًا أننا حين نتحدث عن العصور الوسطى نعنى الحقبة التى بدأت بحكم شارلمان وامتدت إلى نهاية القرن الثالث عشر، وهى بعيدة تمامًا عن الأسكندرية، ومن عجب أنهم يدفعون بأننا نعنى 'الاندماج' بين الحضارات التراثية وأن الناس لن يروا سببًا لأن يَفترِضَ الاتفاق على المبادئ تماثلا حين نقول إن هناك وحدة أصولية بين الحضارات التراثية، أليس ذلك برهان آخر على الضلال الغربى الذى يعجز عن تخطى نطاق الظواهر؟ وعلى كل فلا نظن

أن الحديث عَبَثٌ لو عدنا إلى هذه المسألة حتى نبين منها جوانب أوضح كى ننقذ مقاصدنا من سوء التأويل، كما أنه موضوع مهم بغض النظر عن هذه الاعتبارات.

وتتماهى الحضارات التراثية من حيث جوهرها نظراً لكلية المبادئ كما أسلفنا، وليس هناك إلا ميتافيزيقا واحدة مهما اختلفت طرق التعبير عنها بمدى قابليتها للتعبير وبحسب اللغة التى يحتكم عليها المرء، والتى لا تفيد إلا كرمز ولا غير، ذلك أن الحق واحدٌ ومستقل تمامًا عن مفاهيمنا، ويفرض ذاته على كل من يفهمونه بالتساوى، أى إن حضارتين حقيقيتين لا تملك أيهما أن تناقض الأخرى، ولو كان هناك مذاهب ناقصة سواءً أكانت كذلك دومًا أم أن شطراً منها قد ضاع فإنها سوف تتفق مع المذاهب الأخرى فى حدود النقطة التى توقفت عندها حتى لو كان ممثلوها الأحياء غافلين عنها، ولا مجال لاتفاق أو اختلاف فى كل ما وراء تلك النقطة، إلا أن العقل المنظومى قد يدفع بوجود ذلك 'الماوراء *beyond*'، وبغض النظر عن ذلك النفى المتحيز الذى يشاكل الطبيعة الثانية للعقل الحديث فكل ما تملك الحضارة الناقصة هو أن تعترف بعجزها عن ارتياد ما يقع وراءها. وعلى كل فحينما تتصارع حضارتان فليس الاستدلال الصحيح أن إحداهما حقيقية والأخرى زائفة ولكنه أن إحداهما لم تفهم الأخرى فهمًا تامًّا، وحينما نتمَّعن النظر فسوف نجد خطأ فى التفسير نتيجة اختلاف فى التعبير. أما نحن فنقول إننا لا نرى تناقضًا بل نرى وحدة المذهب الجوهرية تحت أشد الصور تنوعاً، ويثير دهشتنا الذين يفترضون من حيث المبدأ وجود 'تراث أولانى' كان يشيع بين كل بنى الإنسان ولكنهم لا يرون النتائج التى ينطوى عليها هذا المبدأ أو أنهم لا يعلمون كيف يستنبطونها منه، ويهرعون شأن الآخرين إلى اكتشاف تعارضات وهمية. ونحن نتحدث بالطبع عن المذاهب التراثية الحقة أو 'الأرثوذكسية' لو أحببت، فهناك وسائل للتعرف عليها بين المذاهب الأخرى دون أى احتمال للخطإ، كما أن هناك أيضا وسائل لسبر عمق الفهم الذى يطرح المذهب، ولكن ليس ذلك ما يشغلنا الآن. وحتى نُجمِل ما نعتقد فى كلمات قلائل نقول إن كل حقيقةٍ تَستبعدُ خطأً، أو هى بتعبير آخر تستبعد جانبًا آخر من الحقيقة ذاتها، ونكرر القول إن أى قصرٍ ليس على هذا المنوال ليس إلا خطأ فى المنظور المنظومى الذى لا يتقابس مع فهم المبادئ الكلية.

وحيث إن الاتفاق يتم على أساس المبادئ بالضرورة فسوف تكون تلك المذاهب واعية على الأقل بشىء من الميتافيزيقا أو الفكر البحت، ولكن لن يعى بها الذين تحدهم صور مخصوصة على شاكلة الدين مثلا، إلا أن الاتفاق يتم فى هذه الحالة من واقع أن الحقائق

اللاهوتية هى تلاؤمات من حقائق ميتافيزيقية لمنظور مخصوص، إلا أن انطباقها يجب أن يجرى فى إطار إضفاء المعانى الأعمق على هذا المنظور، ولا يستطيع ذلك إلا الميتافيزيقى الذى يضع نفسه فيما وراء الصور المخصوصة ووجهات النظر العابرة. وليست الميتافيزيقا والدين على المستوى ذاته ولن يكونا أبدًا، وينبنى على ذلك أن المذهب الميتافيزيقى القح والمذهب الدينى لن يتنافسا ولن يتصارعا حيث إن كلا منهما يحتل نطاقًا مختلفًا، كما ينبنى عليه من ناحية أخرى أن وجود مذهب دينى فحسب لا يكفى لتسويغ تفاهم متبادل عميق على شاكلة ما نتحدث عنه فى تجديد العلاقات الفكرية بين الشرق والغرب. ومن هنا كان إصرارنا على ضرورة العمل أولا على نطاق الميتافيزيقا، وحينئذٍ فحسب يمكن إحياء التراث الدينى للغرب بكماله بحيث يعمل على الدفع نحو هذه الغاية، وذلك بفضل العنصر الباطن الذى يفتقده حاليًّا، ومن الأرجح أن ينجح فى القيام بذاته دون أى تغيير ظاهرى. ولو أمكن قيام تفاهم متبادل بين ممثلى تراثين مختلفين لا نرى ما يمنعه من حيث المبدأ فلن يتم إلا من أعلى، وبحيث تحافظ كل منهما على استقلالها بصورها التى تنتمى إليها، ولن تكون الجماهير التى تشارك فى المزايا واعية بها، فذلك أمر يخص الصفوة فحسب، أو حتى 'صفوة الصفوة' كما تسميها بعض المدارس الإسلامية.

والبعد جلىٌّ إذن بين ما طرحناه توًّا وبين 'الاندماج *fusion*' الذى يجرى ذكره والذى نعتبره نحن استحالة عملية، فليس التراث أمر قد يُختَرَعُ أو يُصطَنَعُ أيًّا كانت العناصر المستعارة فيه من حضارات تراثية مختلفة، ولن يكون الحاصل إلا تراثًا زائفًا لا قيمة له ولا أساس، ونترك هذه الأفكار الوهمية للغيبيين والثيوزوفيين. فسلوك طريقهم ذاك يدل على الفشل فى فهم المغزى الحقيقى الأعمق للعناصر التى تحاول رتقها فى مسخٍ لا شكل له، والحق أنها لا تزيد عن انتقائية *eclecticism* لا ننكر مثلها شيء، ذلك أننا نرى الاتفاق العميق وراء تنوع الصور، كما نرى فى الوقت ذاته الأسباب التى دعت إلى وجود تلك الأشكال الشتى فى تنوع الأحوال التى تتلاءم معها. وتكمن الأهمية العظمى لدراسة المذاهب التراثية المختلفة فى الأفق الذى تفتحه لتمحيص الاتفاق واتساقه الذى نؤكده هنا، ولكن يستحيل أن نجعل من ذلك أساسًا لمذهب جديد، فسوف تكون فكرة مثل هذه بعيدة عن مبادئ التراث ونقيض تام له. ولا شك أن نقص عناصر فى نطاق بعينه سيدعو إلى البحث عنها فى مجال آخر، وهذا هو حال الميتافيزيقا فى الغرب، ولا ننسى أن الميتافيزيقا كلية بطبيعتها حتى إنها ليست هى هى فى العناصر التى تنتمى إلى مجال مخصوص، كما أن صور التعبير الشرقية لن يدركها إلا الصفوة التى عليها أن

تعكف على صياغة التلاؤم، وسوف تجعل معرفة مذاهب الشرق منها أمرًا ممكنًا بحكمتها فى استنباط التشاكلات كى يستعيد الغرب ذاته بكليتها، كما سوف تمكننا من فهم الحضارات الغابرة، وهذان الأمران متماهيان تمامًا، فلا مناص من التسليم بأن الحضارة الغربية القديمة قد غَبَرَت.

وحينما نتفكر فى تركيب هيكلٍ من مقام متعالٍ باعتباره نقطة البداية الوحيدة الممكنة لأى تحقق فى المستقبل يتصور بعض الناس أن المسألة لا تعدو 'توفيقا' مضطربًا بين الأديان، فلا وجود لشىء مشترك ولا لصلة واهية بينهما، كما أن هناك بعض آخر لا يحتمل سماع كلمة 'جوانية *esoterism*' التى لا نسىء استخدامها كما هو معلوم دون التفكير فى 'الغيبية' وأشياء أخرى من هذا القبيل، والتى لا وجود لأثر من الجوانية فيها. ومن المدهش كيف يجرى التسليم بالدعاوى المغلوطة بسهولة بين الذين لهم مصلحة فى دحضها، فأنجع الوسائل لمكافحة الغيبية هى بيان خلوها من أى أثر جاد، وأنها برمّتها اختراع حديث، وأن الجوانية بالمعنى الصحيح أمر مختلف تمامًا عنها. وأيضًا هناك من يعتقد أن الجوانية يمكن تفسيرها 'بالغنوصية'، وكلاهما فى هذه الحالة من أصل قديم، لكن التفسير ليس منضبطًا ولا مسوَّغًا، ومن الصعب الآن أن نُعَرِّفَ طبيعة 'الغنوص' نظرًا للمذاهب المتنوعة التى تندرجُ فيه، ولا مناص من وجود تمايزات بينها إلا أنها تحتوى جميعًا على أفكار شرقية مشوهة ربما فهمها اليونانيون خطأً وقد تنكرت فى صور خيالية لا صلة لها بالفكر البحت، ولا شك أن من الأفضل إنفاق الوقت فى أمور أقل خلطًا وأكثر يقينًا واستحقاقًا للاهتمام. ويجرنا ذلك إلى الحديث عن الحقبة السكندرية عمومًا، فقد كان اليونانيون حينذاك على اتصال مباشر بالشرق، وكانوا إذن منفتحون على مفاهيم مستغلقة عليهم من قبل، ولكن النتيجة كانت أقرب إلى 'التوفيق' منها إلى التركيب الحقيقى، ولا ننوى أن نبخس قيمة مذاهب مثل مدرسة الأفلاطونية الجديدة التى هى ولا شك أعظم من كل ما أنتجته الفلسفة الحديثة، ولكن لا بد أن نعود فى نهاية المطاف إلى المصادر الشرقية أفضل من أن نلجأ إلى خطوات وسيطة، كما أن ذلك أسهل كثيرًا حيث لا زالت الحضارات الشرقية على قيد الحياة، فى حين درست حضارة اليونان بلا وريث مباشر، وسوف توفر لنا معرفة المذاهب الشرقية سبلا لفهم الأفلاطونية الجديدة وربما أيضًا أفكار يونانية صرفة، فقد كان الغرب أقرب إلى الشرق رغم التباين بينهما، لكن لا يصح العكس، وسوف يصبح من يحاول فهم الشرق عن طريق اليونان عرضة لأخطاء شتى، كما أن مطالب الغرب يمكن أن تستوفى بما لا زال يوجد واقعيًا فحسب. ولا مجال هنا لعلم الآثار فليس للأمور

التى نفكر فيها علاقة بلهو الدارسين، ولو كانت معرفة الأزمان القديمة لها دور فذلك فى حدود فهم أفكار بعينها على نحو صحيح، كما أنها برهان إضافى على الوحدة المذهبية التى هى مضمار الحضارات جميعًا باستثناء الحضارة الحديثة، والتى لا تحتكم على مذهب ولا مبدإ، وتشذُّ عن الطرق الطبيعية للإنسانية.

وحيث إن من غير المسموح أن ندمج بين صور المذاهب المختلفة فأقل من ذلك سماحًا أن نستبدل واحدة بأخرى، فليس وجود كثرة من الصور التراثية أمرًا مفيدًا فحسب بل هو عظيم النفع حتى لو كانت أعماقها تتساوى تمامًا فى مستوى المبادئ، إلا أن لكل منها ميزة تخصها حتى لو كانت تناسب أحوالا بعينها فحسب. والميل إلى توحيد صور كل الأشياء راجع إلى التحيز الذى يغرسه دعاة 'المساواة'، والسماح بتطبيقه هنا يعنى التنازل للمنظور الحديث، وحتى لو كان هذا التنازل جبرى فهو يتم واقعيًّا ولن يتوانى عن اختلاق نتائج شائنة، ولو عجز الغرب عن العودة إلى حضارة طبيعية فسوف يضطر إلى الخضوع إلى تراث غريب عنه، ولن يكون فى ذلك اندماج نظرًا لأنه لن يبقى فى الغرب ما هو غربى جوهريًّا، ولن يكون فيه تبديل كذلك فالوصول إلى ذلك المدى المتطرف يعنى أن الغرب قد فقد آخر آثار المنظور التراثى باستثناء صفوة قليلة العدد لن يستطيع بدونها أن يتقبل الحضارة الغريبة، وسوف يغرق لا محالة فى همجية بربرية. ولكننا نكرر القول بأن الوقت لم يفت بعد للأمل فى ألا تصل الأمور إلى هذا الحد، وأن الصفوة سوف تتمكن من القيام وتضطلع بمهامها جميعًا حتى ينهض الغرب من الفوضى والتحلل، ويجد المبادئ والوسائل التى تعينه على التحول الطبيعى والوفاق مع الحضارات الأخرى.

أما عن الدور الذى يقوم به الشرق فى كل هذا فلنجمل الحديث عنه بقدر الإمكان. ويمكن أن نوضح الفارق بين فترة تكوين الصفوة وبين فترة عملها الفعال، فالفترة الأولى هى دراسة المذاهب الشرقية أكثر من أى وسيلة أخرى حتى يستطيع أعضاء الصفوة أن يتعلموا الفكر الصرف الذى لن يجدوه فى الغرب، وسوف يتعلمون فى هذه الفترة ماهية الحضارات التراثية وعناصرها المختلفة، فالمعرفة المباشرة بقدر الإمكان هى التى لها قيمة فى هذه الحالة، ولم يعد فى دراسة الكتب فائدة حيث لا نفع منها للغاية التى نسعى إليها. ولكى تكون دراسة المذاهب الشرقية كما يجب أن تكون فلا بد أن يعمل البعض وسطاء على منوال ما ذكرنا بين من عرف تلك المذاهب وبين الصفوة الغربية التى فى سبيل التكوين، ونحن نتحدث عن المعرفة المباشرة بقدر الإمكان وليس المباشرة مطلقًا، وسوف يتبع ذلك سقوط المانع أمام

الصفوة ذاتها صاحبة المبادرة كى تسأل العارفين ممثلو الشرق مباشرة، ولن يتوانى العارفون عن الاستجابة، فالشرط الوحيد الذى يشترطونه هو الفهم، وهو أمر مفروض فى تكوين الصفوة ذاتها حسب طبيعة الأمور، ونحن نقرر بحسم أننا لم نقابل شرقيًّا واحدًا لم يتخل عن تحفظه وصمته بمجرد شعوره أنه يواجه من يعتقد أنه قادر على فهمه. وتأتى هذه الاستجابة الواقعية المنظورة من الشرقيين فى المرحلة الثانية. وقد ذكرنا السبب الذى يفترض تكوُّنَ الصفوة التى هى واقعيًّا مؤسسة غربية مفوضة للعلاقة مع مؤسسات الشرق التى تعمل فى مقام الفكر البحت، وتتلقى منهم عونًا على عملهم، وهو العون الذى تراكم منذ زمن يسبق التاريخ، وسوف يكون الشرقيون مرشدين و'إخوة كبارا' للغربيين، ودون أن يدعى الغرب المساواة المطلقة بهم سيكون له الحق فى اعتباره قوة مستقلة بمجرد تكوين هذه المؤسسة، وكراهة الشرقيين العميقة لكل ما يفوح بالبروزيليتية سيكون ضمانًا لاستقلال الغرب. وليس الشرقيون متنمرين لامتصاص الغرب بل يفضلون أن يساعدوا الغرب بالاتساق مع المبادئ مهما كان عونهم قليل الشأن، وتحديد هذا العون هو دور الصفوة الذى سيكون برهانًا على أن الانحطاط الفكرى فى الغرب لا زال له دواء. والمطلوب إذن ليس فرض الشرق تراثًا شرقيًّا على الغرب بل استعادة التراث الغربى بمعونته، وسيجرى أولا بمعونة غير مباشرة ثم بشكل مباشر، أى سيكون إلهامًا فى الفترة الأولى ودعمًا واقعيًّا فى الفترة الثانية، ولكن ما لا يمكن تحقيقه للغربيين سوف يكون ممكنًا للصفوة قبل أن تأمل فى تحقيق التلاؤمات المطلوبة، ولا بد أن تتغلغل أولا فى الصور التراثية التى تعيش فى أمكنة أخرى حتى تفهمها حق الفهم، ولا بد أيضًا من أن تذهب إلى ما وراء الصور كافة أيًّا كانت لإدراك ما تنطوى عليه صور التراث جميعًا. وبفضل ذلك سيحتكم الغرب على حضارة تراثية منتظمة، وسوف يكون على الصفوة أن تذهب إلى أبعد من ذلك، فسوف تكون نقطة الوصل الدائمة بين الحضارة الغربية والحضارات الأخرى، وهو تواصل لا بد أن يستمر بين أسمى ما فى الحضارات، وحتى لا تكون الصفوة تحت رحمة أحداث مفاجئة فلا بد أن يكون فيها من تعالوا تمامًا على كل الصور، ويضعون أنفسهم فى خدمة المبادئ الأسمى، ويشاركون فى كل الحضارات بلا تمييز. أى إن الغرب عليه فى النهاية أن يكون له ممثلين فيما يُعرف رمزيًّا 'بمركز العالم' أو ما يساويه، ولا يصح اتخاذه حرفيًّا بمعنى موضع ثابت أيًّا كان. لكن هذه المسألة لا زالت بعيدة فى الزمن ولا نصر على الحديث عنها أكثر من ذلك.

وحيث إن الخطوات الأولى لإيقاظ الفكر الغربى من سُباتِهِ يجب أن تسعى إلى مذاكرة المذاهب التراثية فى الشرق، ونحن نعنى دراسة عميقة جادة بكل ما يتعلق فيها بتربية شخصية

الذين سيضطلعون باستكمال خطواتها وليس الدراسات السطحية المتهافتة على طريقة المستشرقين، ونعكف الآن على شرح هذه المذاهب عمومًا وما يمكن التقارب معه أكثر من غيرها، وقد يُطرَح سؤال عن السبب الذى يجعل الهند مركزنا الرئيس وليس الصين، أو لماذا لا نفكر فى إقامة عملنا على أقرب تراث شرقى للغرب فى الجوانية الإسلامية، ولكننا سوف نقتصر على اعتبار هذه الأقسام الثلاثة الكبرى للشرق، فما بقى أقل أهمية حيث إن التراث التبتى مثلا غير معروف للأوروبيين ومن ثم يصعب الحديث عنه قبل أن يكتمل فهمهم لأمور تختلف تمامًا عن طرق تفكيرهم المعتادة. أما عن الصين ففيها أمور قريبة الشبه بذلك لكننا لا نرتكز عليها، فالصور التى تعبر عنها نائية تمامًا عن العقلية الغربية، وطرق تعليمها تعمل على إحباط ألمع المواهب الأوروبية، ويندر بينهم حقًّا من يحتمل العمل على منوالها، ولو كان علينا أن نفكر على الدوام فى اختيار صارم فلا بد أن نتجنَّب أكبر قدر من المصاعب المحتملة، والتى سوف تعتمد على عوارض قد تكون ناشئة عن خصائص وميول كامنة فى الجنس وليست من قبيل ثَلم الملكات الفكرية. أما طرق التعبير فى المذاهب الهندوسية فهى أقرب نسبيًّا إلى العقل الغربى رغم اختلافها البين عما تعود عليه، كما أنها تنطوى على احتمالات أعظم للتلاؤم. ويجوز القول عن الشرق ككل إن الهند التى تتوسطه ليست بعيدة تمامًا عن الغرب ولا هى قريبة منه للغاية بالنسبة إلى مرامينا الحالية. والحق أن اتخاذ الأقرب كقاعدة له عيوبه التى قد تكون من نوع آخر مما أشرنا إليه سلفًا، إلا أنها قد تكون خطيرة حال توجهنا إليها، إذ إن الغربيين لا يعلمون شيئا صحيحًا عن حضارة الإسلام كما هو حالهم حيال الحضارات الشرقية الأخرى، ويفلت من انتباههم الشطر الميتافيزيقى الذى يهمنا هنا. والحق أن هذه الحضارة الإسلامية بوجهيها الجوانى والبرانى وصورتها الدينية التى تشكلها البرانية تقترب إلى الصورة التى يمكن للغرب أن يتطور إليها، لكن حضور تلك الصورة الدينية التى أخذها الإسلام عن الغرب ستكون نقاط ضعف لا تخلو من المخاطر مهما كان مبررها الحقيقى، وسوف يتخيل الذين لا يقدرون على التمييز بين المجالات المتنوعة أن هناك عداوة بين الأديان، ولا جدال فى أن الجماهير الغربية مشحونة بكراهية لكل ما كان إسلاميًّا تربو عما يشعرون به تجاه كل حضارات الشرق الأخرى، ونضيف إليهم معظم المثقفين الزائفين فى الشرق. ويتدخل الخوف فى إثارة معظم هذه الكراهية، وهذه حالة عقلية ترجع إلى نقص الفهم، ولكن طالما وُجِدَت فإن التوقع الابتدائى يتطلب تجاهل هذا الاختيار. وسوف يكون على الصفوة أن تقوم بعمل كثير حتى تتغلب على العداوة التى ستواجهها من جوانب شتى دون حاجة إلى تحفيزها

بافتراضات زائفة ستضفى عليها البلاهة والحقد أمجادًا سابغة، وربما كان منها ما يمكن توقعه سلفًا ويحسن اتخاذ الخطوات التى تمنع ظهورها إن أمكن قبل أن تؤدى إلى عواقب أوخم، ولا نعتقد أن من المستحسن اتخاذ الجوانية الإسلامية ركيزة لنا، فرغم أنها ميتافيزيقية جوهريًا إلا أنها تفتقد ما يساوى العناصر التى نجدها فى المذاهب الأخرى، ولا يعدو كل ما نقول محاولة لاكتشاف ما يناسب من المذاهب التراثية، وتظهر فى طرحنا من زاوية البحث عن أفضل الأحوال التى يمكن أن نتوفر للعمل المقصود ولا نتعلق بالمبادئ.

ولو اتخذنا المذهب الهندوسى كمركز للدراسة فلا يعنى ذلك أننا نرجع إليه وحده، فمن المهم أن نطرح التساوى الجوهرى بين المذاهب الميتافيزيقية كلما أمكن، ولا بد من بيان تماهى المفاهيم التى تكمن تحت اختلافات التعبير حيث إنها تناظر الحقيقة ذاتها، وأحيانًا ما تطرأ تشاكلات مدهشة لأنها تحمل منظورًا مخصوصًا لمجتمع بعينه تجاه مسائل بعينها، كما أن هناك قدرًا مشتركًا من الرموز التى تشيع بين الحضارات المختلفة، وهذه أمور تستحيل المبالغة فيها، ولا مجال 'للتوفيق' ولا 'الجمع' فى التشابه الحقيقى والتوازى الذى تتميز به الحضارات التراثية، والتى قد يندهش لها من لا يؤمن بالحقيقة المتعالية فوق المفاهيم الإنسانية. ولا نعتقد أن حضارات مثل الهندية والصينية كان يجدر بها أن نتواصل مباشرة فى سياق نموها دون عائق من اختلاف ناتج عن أسباب اجتماعية أو غيرها، وهى متشابهة بشكل ملحوظ، ونعنى هنا المقام الميتافيزيقى حيث يصل التساوى إلى كماله ومطلقيته إلا فى التطبيقات التى تحقق فى نطاق العوارض. ويلزم دومًا تذكر إمكانية أن يكون هناك أمور تنتمى إلى 'تراث أولانى'، ولكن حيث إن ذلك سابق للنمو المخصوص لكل منها فلن يؤثر على استقلالها، كما أن 'التراث الأولانى' لا بد أن يُعتَبَرَ موصولا بالمبادئ، وقد كان التواصل مستمراً على هذا المقام كما ذكرنا، ولا يؤثر ذلك بدوره على استقلال كل حضارة تراثية عن الأخريات. ولكننا لا نملك حيال بعض الرموز التى لا تتغير بين الحضارات إلا اعتبارها تجلياً لوحدة تراثية أصولية بينها، وهو ما يبذل فى دحضه 'العلماء' اليوم جهودًا طائلة باعتباره أمر يبعث على الضيق، ولا يمكن أن يكون وجود هذه الرموز عبثًا بمحض الصدفة خاصة وأن التعبير عنها بذاتها قابل لاختلافات لا تحصى، ومن كان عنده نظر سيرى الوحدة التى توسِّدُ كلَّ التنوعات الظاهرة نتيجة كلية المبادئ، وهذه الكلية هى التى تُمَكِّنُ الحق من أن يفرض ذاته على كل الناس بطريقة واحدة رغم انقطاع الصلة بينهم وتمكن كذلك لقيام العلاقات الفكرية بين ممثلى الحضارات المختلفة، وما لم تعترف بنا حضارة أو حضارتين على الأقل فلا مجال لتحقيق اتفاق عميق مستقر.

والمبادئ هى ما تشترك فيه الحضارات التراثية جميعًا، وبدونها لن يبقى حضارة ما يميزها إلا الصور الظاهرية التى تتسم بها، وتصبح التشابهات بينها سطحية بموجب أن سببها لم يعد معروفًا، ولا نعنى أن من الخطإ تعداد تشابهات عامة عن وحدة الطبيعة الإنسانية، ولكنها تجرى على الدوام مجرى ناقصًا غامضًا، كما أن الفوارق العقلية أوسع مما يمكن أن يتصور الذين تعودوا على نوع واحد من بنى الإنسان. ولن تُفهَمَ هذه الوحدة بكمالها إلا عن طريق معرفة المبادئ الحقة تستحيل بدونها إلى ما يقرب الوهم، فطبيعة الأجناس وحقيقتها العميقة بعيدة عن مطال التجريبية.

ولنعد إلى ما أدى بنا إلى هذه الاعتبارات، فلا قيمة لأى تخصص فيما تعلق بالمذاهب الهندوسية حيث إن مقام العقل البحت يروغ من تخصصاتهم كافة، وتتساوى جميع المذاهب الميتافيزيقة الحقة من حيث الجوهر، ويمكن القول أنها تتساوى جميعًا فى العمق، ولا يبقى أمامنا إلا اختيار المذهب الذى يسهُلُ استيعابه فى الطرح المطلوب، ونعتقد أنه المذهب الهندوسى، وهذا هو أساس اتخاذه كقاعدة. ولو حدث أن عالجت مذاهب أخرى مسائل تستحق الطرح فلا ضرر من الرجوع إليها، والحق أن هذا طريق آخر لإلقاء الضوء على الاتفاق المنشود. وسوف نذهب إلى أبعد بعض الشيء، فبدلا من أن نقف فى وجه التلاؤمات التى تتطلبها الأحوال التى دائمًا ما قدمت مبادئ التلاؤم التى يمكن البناء عليها، وهو أمر مشروع طالما التزم النهج التراثى الذى أسميناه 'الأرثوذكسية'، ولو كنا بحاجة إلى تلاؤمات جديدة نظراً لاختلافات الأحوال فلا ضرر من صوغها باستلهام الأحوال الموجودة المشاكلة لها ومراعاة أحوالها العقلية، وشرط أن تُنجَز بتفكر وكفاءة، وأن المنظور التراثى أصبح مفهومًا بكل عمقه وكل ما ينطوى عليه، وهذا هو ما على الصفوة أن تنجزه آجلا أم عاجلا فى كافة أشكال التعبير الغربية الأسبق. ومن الواضح إلى أى حد ينأى ذلك عن منظور المنح الدراسية التى كانت أساسًا لفكرة لا تهمنا بذاتها، وهى أن العوارض التاريخية مستقلة عن كل من عبر عنها بصورة أو أخرى. ولكن حيث إننا لا ندعى الوصول بأنفسنا دون عون الأفكار التى علمنا أنها حقيقية فنعتقد أن من الأفضل أن نشير إلى من أزجاها إلينا، خاصة وأن ذلك سيوضح للآخرين الطريق الذى يتعين عليهم سلوكه لكى يكتشفوا الأمر بأنفسهم، والحق أننا ندين للشرقيين فحسب بهذه الأفكار. أما عن مسألة الحقبة التى نعيشها فليس لاعتبارها تاريخيًّا أية قيمة تذكر إلا فيما اتصل بمسألة التراث حيث تتخذ مظهراً آخر، ولكن المسألة تفقد الغرض منها لو كان مفهوم المعرفة التى ينطوى عليها جوهر المذاهب جميعًا يمكن أن يُستنبَط من المبادئ فيما

بعد بتطور لا يعترف بالتجديد فى أسسها وإن لم يكن فى صورها، ولا شك أن يقيناً مثل هذا لن يسهل انتشاره، ولكن إذا احتكم عليه بعض الناس فلماذا لا يصل إليه الآخرون، خاصة وأن الوسائل إلى تحقيقه متاحة بقدر ما يمكن أن تتاح؟ فأحيانًا ما تتجدد 'سلسلة التراث' بشكل لا يمكن توقعه، وقد ظن الناس دائمًا أنهم فكروا تلقائيًّا فى أفكار أوحيت إليهم دون وعى منهم، ولن يتوانوا عن وضع أنفسهم فى المزاج المطلوب لاستقبالها. ولا ننكر هنا بالطبع إمكانية تحقق حالات بصيرة فطرية مباشرة حيث ندفع بأنها لازمة مطلقًا، ولن يتبلّر بدونها أى مفهوم ميتافيزيقى تؤدى إليه، وأيًّا كانت ملكات الفرد الكامنة فمن المشكوك فيه أن يتمكن من تفعيلها بنفسه، فلا أقل من أن يحفِّزَهُ حدث بعينه على ذلك، وقد يتنوع هذا الحدث بلا حدود بحسب خصوصية الأحوال، ولا يمكن أن يكون من قبيل المصادفة إلا من حيث مظهره فحسب، والحق أنه نتيجة فعل تفلت طرق عمله من انتباه الناس حتمًا، ولكن سيدركها من يعلم أن تعبير 'السلف الروحى' ليس أجوف. ولا مناص من القول بأن هذه حالة استثنائية، ولو حدثت فى غياب البث الذى ينبثق عن التعاليم التراثية المنتظمة، والتى ظهر منها حالة أو اثنتان فى أوروبا كما ظهرت فى اليابان، فسيستحيل تعويض غيبته، أولا لأنها نادرة فى المكان ومتنائية فى الزمن، وثانيًا لأنها تؤدى إلى معرفة جزئية أيًّا كانت قيمتها. أضف إلى ذلك أن وسائل التصنيف ووسائل التعبير عما يُدرَك فى هذا الطريق لن يحدُثا معًا، وهكذا تظل الفائدة شخصية مقصورة[34]، وهى حقًّا أمر جليل بذاتها، إلا أننا لا ننسى البعد الشخصى ولا بعد المعرفة الجزئية ولا بعد التحقق المنقوص التى تلازم هذه الحالة، وهى شديدة التواضع بالمقارنة بالتحقق الميتافيزيقى الذى جعلت منه المذاهب الشرقية أسمى غاية للإنسان، ونقول بالمناسبة إنه لا علاقة بينها وبين 'سُبات التسليمية *quietist sleep*' الذى يتوهم بعض الناس أننا قد عثرنا عليه فى ركام الشرق، وقد فسروها بغليظ القول بما لا يسوِّغه شىء مما قلناه عنها. ناهيك عن أن التحقق إن لم يسبقه إعداد نظرى سوف يؤدى إلى اضطراب محتوم، والأرجح أن يتوه المرء فى حنايا طريقه عبر نطاقات وسيطة حيث لا مأمن من الأوهام، فاليقين لا وجود له خارج الميتافيزيقا البحتة، ولو أُدرِكَت مرة واحدة لصارت ملكة دائمة، ولن يكون من خطر بعد ذلك فى ارتياد أى مجال كان كما نوهنا سلفًا.

وتبدو حقيقة الوقائع لا وزن لها بالقياس إلى حقيقة الأفكار، إلا أن المقام العرضى

---

[34] ويجدر ملاحظة العلاقة بين هذا وبين ما طرحناه سلفا فى موضع آخر عن ' الأحوال الأسرارية *mystical staes*' ، ويمكن مضاهاتهما رغم عدم تماهيهما ، ولا شك أننا سنتناول ذلك بتوسع فى دراسة قادمة.

يشتمل على درجات عدة، وهناك طريقة للنظر إلى الأمور بوصلها بمبادئها التى تضفى عليها قيمة لا تملك أن تسبغها على ذاتها، وسوف يكفى ما ذكرناه عن 'العلوم التراثية' لتوضيح هذا الأمر. وليس من حاجة إلى الخوض فى مسائل التأريخ التى عادة ما لا يكون لها حل فى المناهج التاريخية المعتمدة على الأقل، ولكن هناك بعض النفع فى معرفة أن طريقًا أو آخر لطرحه تنتمى إلى مذهب تراثى من حيث طبيعتها، ولا نرى ضرورة للإسهاب فيها بعد كل ما تقدم من اعتبارات، ورغم أن حقيقة الوقائع أمر ثانوى فلا يجدر بالمرء أن يهمل حقيقة الأفكار، وهى الأمر الضرورى، وسيكون رفض اعتبار الأمور الثانوية حرمانًا من فائدة معرفة حقيقة ما، فرغم أنها عرضية إلا أنها لا تستحق الإهمال على الدوام. فواقعة أننا قد أخذنا أفكارًا بعينها من الشرقيين حقيقية، ولكن فهم هذه الأفكار والاعتراف الباطن بحقيقيتها أكثر أهمية من الواقعة، ولو جاءت إلينا هذه الأفكار من مجال غير الذى نعيش فيه فلا نرى سببًا لكى نلقى بها، فليس فى الغرب ما يساويها ويحسن بنا أن نقول ذلك. وقد يمكن بالطبع أن ننجح نجاحًا سهلا بادعاء اختراعها من أولها إلى آخرها، ويظل مصدرها الحقيقى طىَّ الكتمان، ولكننا لا نقر هذا السلوك، كما أنها سوف تحرم المفاهيم من ركيزتها الحقة وسلطانها التراثى، فسوف تُختَزَلُ إلى مجرد 'فلسفة' فى حين أنها على الحقيقة أمر مختلف جملة وتفصيلا، وهنا نتماس مرة أخرى مع مسألة الفردى والكلىError! Bookmark not defined. التى تكمن تحت هذه الاختلافات جميعًا.

ولنبق برهة أخرى مع العرضيات، فالدفع بأن الشرق هو مصدر المعرفة الميتافيزيقية الوحيد والمحاولة فى الآن ذاته إيقاظ الفكر الغربى القديم هو حفز على اتخاذ الطريق الفعال الوحيد نحو تجديد العلاقات بين الشرق والغرب، ونأمل ألا تكون هذه الإمكانية قد أُهملت حيث إن ذلك هو الغاية الرئيسة لكل ما طرحناه حتى الآن، وقد يكون تجديد حضارة الغرب أمرًا عرضيًّا بذاته ولكننا نكرر أن ذلك ليس مبررًا لعدم الاهتمام به حتى لو كان المرء ميتافيزيقيًّا. فرغم انتماء هذه الأمور إلى المقام النسبى فإنها قد تكون وسائل لتحققات غير مقصورة على نطاق العرضية، وسوف يكون لها نتائج تتضاءل بجانبها كل الأمور العرضية وتختفى بشكل مباشر أو غير مباشر. ولذلك أسباب شتى ليس أعمقها ما عكفنا على طرحه إذ لم يخطر لنا أن نطرح النظريات الميتافيزيقية ذاتها ولا حتى النظريات الكونية فيما تعلق 'بقانون الدورات *cyclic laws*' وبدونها لن تُفهَمَ تلك النظريات تمام الفهم، وننوى أن نعكف عليها فى عمل آخر حسبما تسمح الأحوال، ولا نملك أن نطرح كل شىء فى آن واحد كما قلنا فى بداية

الكتّاب، ولكننا لا نقول شيئًا بلا سبب، ورغم عدم استحقاقنا للثناء فى كثير من الأمور فإننا على الأقل نتحدث عما نعرف. ولو كان هناك من اندهش من اعتبارات بعينها لمجرد عدم اعتيادهم عليها فإننا نأمل أن يتجشموا عناء التأمل، وحينئذ قد يروا أن تلك هى أهم الاعتبارات قاطبة، وسوف يعلمون أن ما بدا لهم سطحيًّا بلا نفع ولا صلة له بموضوعنا هو على العكس وثيق الصلة به، والحق أن هناك أمور نتواصل بطرق مختلفة عما يُظَنُّ عادة، فالحقيقة لها أوجهٌ شتى حتى إن الغربيين لا ينتبهون إلى أننا نخشى دومًا أن نتحدث أكثر من اللازم بحيث نحد تعبيرنا بدلا من أن نتوسَّع فى ذكر إمكانات أعظم مما يحتمل السياق.

خُلاصَة

ونكاد لا نحتاج إلى خلاصة بعد ما تناولناه حتى إننا لا نقدم إلا تكرارًا مختصرًا لاعتبار أو اثنين مما طرحنا سلفًا وبعض التركيز على أهميتها، ونعتقد أننا قد بيَّنا بوضوح وصراحة تلك التحيزات الرئيسة للغرب اليوم الذى نأى عن الشرق، ذلك أنه قد ابتعد عن الفكر الحق الذى حافظ عليه الشرق بكماله، بينما فقد الغرب كل الأفكار عنه ولم يعد لديه أقل بصيص منه. ومن فهمه سوف يكون قد أدرك أيضًا ما بلغه الغرب من 'عرضية' بكل معانى الكلمة، ألا وهى انشقاق الغرب عن الشرق، والحق أن إعادة وصل هذين الشطرين من جنس الإنسان وعودة الغرب إلى حضارته الطبيعية هما الأمر ذاته، وهذا هو الغرض الرئيس من محاولة جمعهما، وربما الأمل أيضًا فى مستقبل بعيد للاعتبارات التى دفعنا بها، وما نسميه حضارة طبيعية هى التى تقوم على مبادئ بالمعنى الصحيح، حيث يتخذ فيها كل شىء موضعه فى البنية التى تشاكل تلك المبادئ، ويُنظَرُ لكل شىء باعتباره تطبيقًا لها وامتدادًا للمذهب الذى جوهره الفكر البحت والميتافيزيقا، وهذا ما نعنيه أيضًا حين نتحدث عن الحضارات التراثية. زد على ذلك وجوب إنكار أن التراث سوف يُقلِّص الفكر بأدنى درجة ما لم يُدفَع بأن هدايته من الضلال تربو إلى حبسه، وهذا ما ننكر قطعًا، فهل من الصواب القول بأن إغلاق الباب على الأغاليط حبسٌ للحقيقة؟ فلا يجوز قبول المستحيلات التى ليست بشىء برفض الإمكانية الكلية التى لا حدود لها، وينبنى على ذلك أن الخطأ إنكار ولا غير، وأن 'الحرمان' بالمعنى الأرسطى لا إيجابية فيه، فقد يشتمل على شظايا من الحقيقة التى لم تُفهم، ولذا يمكن استبعاده دون اعتماد على عقل منظومى. أما التراث فيقبل كل أوجه الحقيقة، ولا يقف فى وجه التلاؤمات المشروعة، ويمنح للذين يفهمونه مدى شاسعًا لا يحلم به أشد الفلاسفة 'جرأة'، ومفاهيم سليمة صلبة لا تختلط بأحلام، وتفتح إمكانات للذكاء اللامحدود كالحقيقة ذاتها.

ويتمخض كل هذا عن خصائص المعرفة الميتافيزيقية، فهى المعرفة الوحيدة التى لا تُحَد إذ تنتمى إلى المقام الكلى، ويحسن أن نرجع إلى المسألة التى عالجناها فى كتاب آخر فى العلاقة

بين الميتافيزيقا والمنطق[35]، فالمنطق الذى يعالج أحوال الفهم الإنسانى هو أمر عرضى، وينتمى إلى المقام الفردى والعقلانى، وما تسمى 'مبادئ' فيه ليست مبادئ إلا بالمعنى النسبى، أى إنها على شاكلة مبادئ الرياضة أو أى علم دنيوى مخصوص بذاته، ويشتمل على تطبيقات ومواصفات تنتمى إلى مجال فرعىٍّ من المبادئ الحقة. وتهيمن الميتافيزيقا على المنطق كما تهيمن على كل شىء آخر، وإنكار ذلك يربو إلى قلب العلاقات التركيبية الكامنة فى طبيعة الأمور رأسًا على عقب، ولكننا نعجب مهما كان برهان هذه المسألة ثابتًا لنا كيف أنه يثير دهشة معاصرينا! فهم يجهلون تمامًا ماهية الميتافيزيقا والمقام 'فوق الشخصى'، ولا يعرفون إلا ما ارتبط بالمجال العقلانى بما فيه 'الميتافيزيقا الزائفة' التى يدفع بها الفلاسفة المحدثون، والحق أن المنطق فى هذا النطاق يحتل الذروة، ويخضع له باقى الأمور. لكن الميتافيزيقا الحقة لا تعتمد على المنطق بأكثر مما تعتمد عليه جميع العلوم الأخرى، ويأتى الخلط من فشلهم فى فهم المعرفة بعيدًا عن نطاق العقل، وليس عندهم أدنى فكرة عن ماهية المعرفة الفكرية، وقد قلنا ذلك فيما تقدم، كما أننا أشرنا إلى الفارق بين مفاهيم الحقائق الميتافيزيقية التى وراء إدراك كافة المحددات الفردية ووراء الطرح الذى تناولها ذاته، وأقصى ما يمكن أن يبلغ هو مجرد اختزالها إلى مستوى الجدل والعقلانية. ولو قُدِّر لهذا الطرح أن يتخذ صورة العقلنة ويبدو منطقيًّا وحتى جدليًّا فذلك من واقع الطريقة التى تشكلت بها اللغة الإنسانية، وسوف يستحيل قول شىء بدونها، لكن هذا مجرد أمر ظاهرى لا يؤثر على الحقائق المذكورة، فهى أعلى جوهريًّا من العقلانية. كما أن هناك طريقتين مختلفتين لاعتبار المنطق، فالطريقة الغربية تعالجه فلسفيًّا وتحاول اعتقاله فى مفهوم منظومى، وهناك الطريقة الشرقية التى أقامت المنطق 'كعلم تراثى' يرتبط مباشرة بالمبادئ الميتافيزيقية، وهى التى تُقيمُ له أساسًا شاسعًا شأنه شأن باقى العلوم. وتتناظر نتائج الطريقين أحيانًا على المستوى العملى بالطبع، إلا أن الاختلاف بين الطريقتين يظل بلا مساس، ولا يمكن فى هذه الحالة استنتاج أن الطريقين قد قاما على النوايا ذاتها. وها هو ما تطلعنا إلى الوصول إليه، إن المنطق بما هو ليس 'فلسفيًّا' على وجه القصر، إذ إنه يوجد فى حضارات لا وجود فيها لتلك الصيغة المخصوصة التى تسمى 'فلسفة'، فلو أن الحقائق الميتافيزيقية تَزَيَّت بصورة منطقية لكانت منطقًا تراثيًّا لا منطقًا فلسفيًا، وفى ذلك الكفاية فالفلسفة لا تستطيع الوجود إلا بإنكار الميتافيزيقا الحقة وليس لديها ما تقدمه من ذاتها.

ويتبين من هذا التفسير كيف ننظر إلى المنطق، ولو لجأنا إلى جدل بعينه لا يمكن بدونه

[35] 'مُدخَل عام إلى فهم النظريات التراثية' ، تراث واحد.

التحدث عن أى شىء فلا لوم علينا فى ذلك بدعوى التناقض، فلا شك فى انتفاء الفلسفة عن كل ما نقول، زد على ذلك أننا حين نعكف على دحض مفاهيم الفلاسفة فإننا نَبْقَى على مبعدة تستلزمها اختلافات وجهات النظر، ولا نركن إلى منطلقاتهم كما يفعل الذين ينتقدون أو يلاحون فلسفة فيلسوف باسم فيلسوف آخر، ونقول إن المذاهب التراثية قد مكنتنا من إدراك العبث فى نظريات بعينها، وأيًّا كانت الأخطاء التى نكافحها فإن المذاهب التراثية تحرم علينا الحلول الوسط، والأمر الوحيد الذى نشبه فيه الفلاسفة هو الجدل، لكنه عندنا لا يزيد عن أداة فى خدمة المبادئ التى لا يعلمون عنها شيئًا، وحتى هذا الشبه ظاهرى سطحى فحسب على شاكلة الفارق بين نتائج العلم الحديث ونتائج العلوم التراثية. وكذلك لا يمكن أن يقال عنا إننا نستعير من مناهج الفلاسفة، فما يصح من تلك المناهج ليس من إنتاجهم بل يمثل أمرًا يحتكم عليه الناس جميعًا بما فيهم من نأى عن المنظور الفلسفى تمامًا، فالمنطق الفلسفى ليس إلا نسخة ضامرةٍ مصوَّحَةٍ من المنطق التراثى، كما أن التراثى سابق على الفلسفى. ولو تمسكنا هنا بهذا الفارق الذى يبدو لنا جوهريًا فليس ذلك من أجل متعتنا الشخصية فحسب، بل من المهم أن نحافظ على السمة الميتافيزيقية الصرفة، ولأن كل ما ينبع منها حتى لو كان ثانويًّا عارضًا يشارك فى هذه السمة بدرجة ما، فيتحول بها إلى أمر يختلف تمامًا عن المعرفة الدنيوية للعالم الغربى. وليست الغاية فحسب هى ما يسم هذا النوع من المعرفة ويفصلها عن المعارف الأخرى بل كذلك طريقة النظر إليها، وإذا كانت بعض المسائل لها أساس ميتافيزيقى فهو يضيع تمامًا حينما ينصاع لمنظومة فلسفية، لكن التمايز الأصولى بين الميتافيزيقا والفلسفة الذى يجب ألا يتغاضى عنه من أراد أن يفهم شيئًا عن المذاهب الشرقية أمرٌ ليس معتادًا على الإطلاق عند الغربيين الذين لم ينجح معظمهم فى إدراكها، وهكذا اندهشنا بما قيل هنا وهناك عن أننا نتحدث عن 'فلسفة هندوسية' فى حين عكفنا على بيان أن ما يوجد فى الهند مختلف تمام الاختلاف عن الفلسفة! وربما كان المصير ذاته فى انتظار ما نقوله الآن عن المنطق، ولن نندهش بعد ذلك مما عُزِىَ إلينا عن أننا 'نتفلسف' ضد الفلسفة. فلو كنا نطرح نظرية من علم الرياضة مثلاً ووصفها أحدهم بأنها من 'علم الطبيعة *physics*' فلا سبيل لنا إلى إثنائه عن ذلك الاعتقاد، والذين يفهمون معنى الكلمات سيعلمون كيف يتفكرون فيها، فرغم أن الأفكار المطروحة هنا شحيحة التداول فإن الأغاليط التى نحاول أن ندرأها تضاهى المثال السابق عن 'علم الطبيعة'. ولو حاول البعض النقد القائم على هراء كهذا فنحذرهم أن نقدهم لن يصيب هدفه، ولو كنا نستطيع أن نوفِّر عليهم عناء الخطإ فذلك أدعى إلى سرورنا، ولكننا لا نملك غير ذلك، فليس

بوسعنا ولا بوسع أحد أن يُسبغَ الفهم على من لا يملك وسائله فى ذاته. ولو كان مقدرًا لهذا النقد المغلوط أن يتبرى فلنا الحق فى تجاهله تمامًا، ولكن لو وجدنا غموضًا حول أمر بعينه فسوف نعود إليه حتى نتيقن من استحالة الخطإ فى فهمه، أو على الأقل حتى لا يُعزى إلى عمى لا شفاء له أو إلى إيمان سقيم.

وقل مثل ذلك عن الوسائل التى يجب أن يتقرَّب بها الغرب إلى الشرق فى العودة إلى الفكر الحق، ونعتقد أن التأملات التى طرحناها هنا قد تدرأ اضطرابات شتى عن هذا الأمر، وكذلك عن منظورنا إلى المآل الحتمى الذى قد يتجه إليه العالم الغربى حال تحقق الإمكانات التى نتفكر فيها. ومن الواضح أننا لا ندعى التكهن بكل صروف سوء الفهم الممكنة، ولو ظهر بينها أمر أهم مما فشا من أغاليط فسوف نعمل على صرفها كذلك، وسوف نستمتع بذلك حيث إنها توفر لنا فرصة لتحسين طرح أفكارنا، وعلى كل فلن نسمح لنفسنا بالانحراف عن طريقنا الذى رسمه لنا كل ما فهمنا بفضل المذاهب التراثية الشرقية. ونحن نخاطب الذين يقدرون على الفهم ويريدونه أيًّا كانوا ومن أين أقبلوا، ولكن ليس الذين يتوقفون عند أول عقبة وهمية، ولا من يمنعهم خوفهم من أمور أو كلمات بعينها، ولا من يشعرون بالضياع لاعتقادهم أنهم تجاوزوا حدودًا تعسفية، والحق أننا لا نرى فى واقع الأمر منافع فكرية للصفوة فى تعاون هذه المخلوقات الخائفة المذعورة، فمن لا يستطيع أن ينظر إلى كل حقيقة وجهًا لوجه ومن لا يشعر بقوة نفاذ 'العزلة الكبرى' بمصلح الشرق الأقصى ونظيره فى الهندوسية لن يذهبوا بعيدًا فى العمل الميتافيزيقى الذى نوهنا عنه وعليه يتوقف كل شىء آخر، ويبدو عند البعض إصرار ثابت على ألا يفهموا، ولكننا نجزم بأن الذين تنفُذُ إمكاناتهم الفكرية بعيدًا لن يخضعوا لهذه الفزَّاعات، فهم متوازنون غريزيًّا بما يكفى لضمان انصرافهم عن أى دوارٍ عقلى كان، والواقع أن هذا الضمان ليس مسوَّغًا تمامًا ما لم يتحققوا بدرجة فعلية، إلا أن مجرد امتلاكهم لها يضفى عليهم ميزة كبرى، ونحن لا نشير هنا إلى الذين يثقون فى ذواتهم بشكل زائد حتى لو لم يكونوا واعين بذلك، ويضعون ثقتهم فى أمر أعلى من ذواتهم حتى إنهم يشعرون بالكراهة تجاه أى أحوال علوية تؤدى إليها الميتافيزيقا الحقة، أما البعض الآخر الذين لا يجسرون على ارتفاع ولا انخفاض لأنهم لا يرون أبعد من حواجز بعينها لا يستطيعون بدونها التمييز بين الأسمى والأدنى ولا بين الحق والباطل ولا بين الممكن والمستحيل، ويتوهمون أن الحق لا بد موجود فى البعد الذى يسكنونه وأنه مربوط على مستوى وسيط بعينه، وهم على راحتهم فى 'جحورهم' الفلسفية، وليس بمقدورهم استخدامها لتوسيع فهمهم بلا حدود، وسواءً

أكان ذلك ناتجًا عن طبيعتهم ذاتها أم عن التعليم الذى تلقوه فقد أصبح تحديد 'الأفق الفكرى' داءً لا دواء له، حتى إن تحيزاتهم لاإرادية وإن غَفَلوا عن ذلك. ولا شك أن بين هذه الفئة من كان ضحية المناخ، وحالهم يدعو إلى الأسى، وملكاتهم التى كان من شأنها أن تنمو فى حضارة طبيعية صارت مُهَمَّشة ومصوَّحَة إلى حد المحو، وحيث إن التعليم الحديث هو ما هو فيكاد المرء أن يستنتج أن الذين لم يتعلموا شيئًا قد استطاعوا الحفاظ على ملكاتهم الفكرية. ويبدو الجهلُ البسيط النقى شرًّا أهون من التشوهات العقلية التى يتمخض عنها التعليم الزائف، وليست هذه أحجية ولا هى من نافلة القول، فالمعرفة الوحيدة التى تستحق اسمها مختلفة تمامًا عن تلك التى يزرعها الغربيون المحدثون. ولا يتهمنا أحد فى هذه المسألة ولا غيرها بالتعصب، فقد فرض هذا الاعتقاد ذاته من واقع نقاء المذهب وما أسميناه 'رشدًا أو أورثوذكسية' بالمعنى الفكرى، وخلوه التام من التحيزات، ولن يقودنا إلى حيف أو ضلال. ونحن نُسلِّمُ بالحق جميعه فى أى وجه يتجلى به ولا غيره، فلا نحن شكاكين ولا انتقائيين.

ونحن واعون تمامًا بأن منظورنا ليس مما يتخذه الغرب سبيلا للنظر، ولا مناص من أن يكون صعب الفهم، ولكن من نافلة القول أننا لا نطلب من أحدٍ أن يعتنقه بلا تمحيص، وجل غايتنا أن نحفز تفكر الذين لا زالوا قادرين عليه، وسوف يفهم كل منهم ما استطاع مهما كان قليلا، وسوف يكون شيئًا قيمًا لا محالة، ويحدونا الأمل فى أن يتخذ بعضهم مسارًا أبعد. وفى نهاية المطاف ما من أسباب تمنع أن ما قمنا به بأنفسنا ممكنٌ للآخرين كذلك فى أحوال العقلية الغربية ذاتها، ولا شك أن الآخرين لن يزيدوا عن استثناءات قليلة، وهو كل ما نحتاجه لتبرير ما توقعناه سلفًا، ونتيح الإمكانات التى نوهنا عنها فرصة للتحقق، كما أن كل ما نقول ونعمل ليس إلا بغاية إتاحة الفرصة التى لم تُتَح لنا لمن يأتون بعدنا هنا وفى أى مكان كان، وبداية العمل أشدُّه إيلامًا، وكلما ساءت الأحوال كلما لزم جهد أعظم للتحقق، ولا بد للاعتقاد فى 'الحضارة' أن يهتز فى نفوس الذين لم يجرءوا حتى وقت قريب على مناقشتها وأن تبدأ 'العلموية' فى الخفوت فى دوائر بعينها مما سوف يعيننا قليلا، وقد تمخض عن ذلك نوع من افتقاد اليقين الذى يجعل العقول تجنح فى مسارات مختلفة بلا مقاومة تذكر، وهذا كل ما يمكن قوله، فالميول التى نلاحظها حتى الآن لا تبعث على التفاؤل شأنها شأن سابقتها، ولا نرى من ناحيتنا فارق يُذكر من حيث القيمة بين العقلانية والحدسية، ولا بين الوضعية والذرائعية، ولا بين المادية والروحانية، ولا بين العلموية والأخلاقية، ولا نفع فى الانتقال من واحدتها إلى الأخرى، ويجوز القول إن من انقطع عنها جميعًا قد خطا الخطوة الأولى فى نطاق

الفكر الحق. وقد عكفنا مرارًا على قول هذا كما عكفنا مرة أخرى على تلخيص ما طرحنا، ونكرر عبث أية دراسة 'من الخارج' للمذاهب الشرقية فلن تعين فتيلاً فى تحقيق ما نراه، وما يعين عليها فعلا له قاعدة مختلفة وينتمى إلى مقام أعمق.

وأخيرًا نقول للأصوات التى ارتفعت علينا إننا فى راحة ونعمة ونحن نحكم باستقلال تام على العلوم والفلسفات الغربية، ذلك أننا لا ندين لأيها بشىء، ولا ندين إلا للحضارات الشرقية وحدها بكل ما نحن عليه، وليس خلفنا ما يمكن أن يشدنا إلى الوراء. ولو كنا قد درسنا الفلسفة فقد درسناها بعد أن تبلَّرت أفكارنا تمامًا بكل ما كان جوهريًّا، وربما كانت هذه هى الطريقة الوحيدة للإفلات من تأثيرها السيئ، وقد اتفق ما وجدناه فى الفلسفة تمامًا مع ما رأيناه فيها سلفًا. وقد كنا نعرف عدم جدواها الفكرى مسبقًا، والحق أن العون الوحيد الذى جنيناه كان فى الوعى والحذر باتخاذ الاحتياطات اللازمة حتى نتجنب الاضطراب والمتاعب التى تنشأ عن استخدام المصطلحات، وقد ينتج عنها عدم اليقين، وهذه هى الأمور التى لا يأبه لها الشرقيون كثيرًا، ونجد فى هذا المقام كثيرًا من مصاعب التعبير التى لم نكن بالغيها إلا إذا درسنا لغة الفلسفة الحديثة عن قرب بكل خلطها الذى لا ينفع وغموضها الذى لا يشفع، لكن هذه المعونة كانت مفيدة للجدل، إذ إنها سمحت لنا بتوقع كثير من أخطاء التفسير الشائعة بين الذين استكانوا إلى الفكر الغربى ولا غير، كما أجبرنا فى الوقت ذاته على سرد تعقيدات لا شأن لها بأى شىء جوهرى، ولم يكن ذلك مفيدًا ولا ممتعًا لنا بأية درجة حيث إننا لم نبلغ به أية معرفة كانت. ولا نقول ذلك لكى نجعل من نفسنا مثالا يحتذى، ولكن برهانًا لمن لا يشاركوننا التوجه الفكرى حتى يقروا على الأقل بإخلاصنا، ولو أصررنا على استقلالنا مطلقًا عن كل ما كان غربيًّا فذلك مما يساعد على تقدير موقفنا وتفهم نوايانا. وندفع بحقنا فى إنكار الخطإ أينما كان لو سنح الحال، إلا أن هناك نزاعات لا شأن لنا بها بأى ثمن كان، ونشعر بأننا لا يصح أن ننحاز لجانب أو آخر من هذه المفاهيم، والتى لم نجد فيها نفعًا إلا لشذرات كنا على علم بها من مصادر أخرى، وحيثما طُرِحَت الأمور ذاتها من جوانب عدة كانت وجهات النظر الغربية خاسرة. ولم نقرر كتابة كتاب كهذا إلا بعد تفكير طويل، وقد ذكرنا لماذا رأينا ضرورة ذلك قبل أن نعكف على طرح المذهب ذاته، والمصلحة فى ذلك ستتضح للذين التفتوا إليه فى عوزهم إلى إعداد أفضل، وللذين يقدرون تمامًا على فهمه.

واقتراب الغرب من الشرق مصلحة له فى كل مجال، ولو كان للشرق صالحٌ فى ذلك فليس من المقام ذاته، ولا أهمية عنده لشىء يمكن أن تُضَاهى بها، ولن يكفى لتبرير أقل

التنازلات شأنًا فيما تعلق بالأمر الجوهرى، كما أنه ليس هناك ما يمكن أن يعلو على الحقيقة، وليس إظهار عيوب الغرب ولا نواحى قصوره مدعاة لقيام عداوة معه، ولكنه ضرورة لعلاج الشرور التى تنتابه، وسوف يهلك تمامًا لو لم يتماسك قبل فوات الآوان. ولا جدال فى أن الأمر عويص ولا يخلو من قبح، ولكن لا أهمية لذلك مع الاقتناع بضرورته، ولا مطلب لنا إلا أن يفهم قلائل أن الأمر كذلك. زد على ذلك أن من يفهم لن يستطيع البقاء ساكنًا، مثل الذين أدركوا حقائق ثم نكصوا عن قبول نتائجها، فهناك مسئولية تترتب على المعرفة الحقة، وتبدو كافة الصلات الظاهرية بجانبها غرورًا يبعث على الضحك، وهذه الالتزامات هى الوحيدة التى لا تهتز نظرًا لأنها باطنية صرفة. ولن يخضع للتثبيط كل من كانت قوة الحق فى يده حتى لو لم يكن معه سلاح آخر لتخطى أشد العقبات فظاعة، فهذه القوة لا تُقهر فى النهاية، والذين يشكون فى ذلك فحسب هم من لا يعلمون أن كل خلل جزئى عابر فى التوازن سيسهم فى توازن الكون الكلى.

تعقيب

ولا بد أن نصرح للجميع بأن الموقف قد ازداد سوءًا منذ نشر هذا الكتاب لأول مرة عام 1924، وليس فى الغرب فحسب بل فى العالم أجمع، وقد كان ذلك الفشل أمرًا متوقعًا لإصلاح فى المرتبة التى ذكرناها، ومن نافلة القول أننا لم نتوقع قط أن يتحقق الإصلاح من فوره، لكن الفوضى فى الواقع قد تفشَّت وتفاقمت بأسرع مما كنا نتوقع، ولا بد من الاعتبار فى هذا الأمر رغم أنه لا يَجُبُّ الاستنتاجات التى استنبطناها.

وقد عمت الفوضى كل أينٍ فى الغرب بشكل سافرٍ حتى بدأ كثير من الناس يشكون فى جدوى 'الحضارة' الحديثة، ورغم أن هذه علامة إيجابية بمعنى معين إلا أن النتائج كانت سلبية تمامًا، وقد يوجه كثير من الناس نقدًا بليغًا للأحوال الراهنة ولكنهم لا يعرفون لها دواءً، ولا يكاد يخرج شىء مما يشيرون إليه من نطاق العوارض حتى يصير هباءً، ولا نملك إلا تكرار أن العلاج الناجع الوحيد هو الفكر البحت، ولكن فرصة ظهور رد فعل غربى صحيح تئول إلى شحوب متزايد حيث إن ما بقى فى الغرب من تراث قد تأثر بالمنظور الحديث، وبالتالى صار أشد عجزًا عما كان لكى يصلُح قاعدة للتحول، ودون أن نترك جانبًا أية إمكانية قد توجد يبدو أن الشرق سوف يتدخل مباشرة بالكيفية التى ذكرناها لو كان على الإصلاح أن يتحقق.

ومن ناحية ما يخص الشرق نعترف بأن الخراب الذى عاث فى 'التحديث' قد صار وباءً على الأقل من الناحية الظاهرية فى البلاد التى قاومته لفترة طويلة، وتبدو التغيرات الآن أسرع مما كانت، والهند ذاتها مثل على ذلك، إلا أن شيئًا منها لا يتسلل إلى قلب التراث وهو ما يهمنا فحسب، وربما كان من الخطإ أن نعتمد كثيرًا على المظاهر العابرة، وعلى كل يكفى العلم بأن التراث بكل ما يعنيه سوف يكمن فى خلوة شرقية بعيدًا عن مطال جنون العصر. ولا بد من أن نتذكر أن كل ما هو حديث حتى فى الشرق ليس إلا برهانًا على أن المنظور الغربى قد عاث فى الشرق، والشرق الوحيد الذى يستحق اسمه هو الشرق التراثى حتى لو اختُزِلَ ممثليه

إلى أقلية، لكن الأمر لم يصل بعد إلى هذا الحد، وهذا هو الشرق الذى نقصده مثلما نقصد المنظور الغربى حين نتحدث عن الغرب الذى يناهض التراث أنى وُجِد، وحيث إننا نهتم فحسب بالتعارض بين المنظورين وليس التعارض بالمعنى الجغرافى. أضف إلى ذلك أننا أمِيَلُ إلى الاعتقاد هنا والآن أن المنظور التراثى الحى لن يبقى على حاله إلا فى صورة شرقية فحسب، ورغم هذا فلو كان فى الغرب مروءة كافية لاستعادة تراثه فعليه أن يبرهن على ذلك، ولا نملك إلا القول بأننا لم نر حتى الآن أقل بادرة تبرر افتراضنا أن الغرب قادر على القيام بها بنفسه حتى لو هيمنت عليه فكرة ضرورته.

كشَّافُ الأعْلامِ والمُصْطَلَحَات

*hierarchy*5 ,
*historical materialism*47 ,
*Holbach*13 ,
*humanitarianism*63 ,
*ideologists*48 ,
*Indo-Germans*71 ,
*infra-rational*10 ,
*inner life*46 ,
*institution of the elite*88 ,
*intellect*28 ,
*Intellect*10 ,
*Intellectual*4 ,
*intellectual shortsightedness*27 ,
*intellectuals*31 ,
*intuitionism*17 ,
*intuitionists*18 ,
*irrational*38 ,
*La Mettrie*13 ,
*lay morals*45 ,
*lineations*35 ,
*Littre*36 ,12 ,
*mechanism*13 ,
*mechanist*41 ,
*mediocrity*36 ,
*moral code*44 ,
*moralism*36 ,
*assimilation*55 ,
*association*55 ,
*being enriched*39 ,
*Bracke*69 ,
*Buddhist pessimim*70 ,
*common sence*31 ,
*common sense*72 ,
*Count Keyserling*71 ,
*Couturat*33 ,
*deliverance*43 ,
*Deussen*70 ,
*dogmatic*29 ,
*eclecticism*99 ,
*elan vital*41 ,
*ethnology*16 ,
*evolution*15 ,
*evolutionism*42 ,
*ex nihilo*33 ,
*exploit*51 ,
*Fourier*12 ,
*freedom of thought*22 ,
*Frensh naturalization*56 ,
*Fu Hsi*33 ,
*fusion*99 ,
*Georges Foucart*16 ,
*hexagrams*33 ,

*sensible*40 ,
*sentimantal*40 ,
*specialities*27 ,
*speudo-myscticism*67 ,
*supra-rational*38 ,
*syncretism*97 ,72 ,
*synthesis*35 ,
*theory of gestures*93 ,
*transforism*42 ,
*Turgot*12 ,
*uniformity*32 ,
*universal characteristics*32 ,
*universal man*15 ,
*universal order*93 ,77 ,
*vitalist*41 ,
*voluntaristic*10 ,
أبورفا, 93
إثراءً, 39
أخصَّائيون, 27
أخلاقيات العوام, 45
أخلاقية, 20, 36, 44, 45, 46, 63, 75
أخلاقيين, 43
إرادية, 10
أرثوذكسية, 71, 98, 105
أرسطو, 39, 89
استغلال, 23, 51
إسرائيليين, 56
أسرار, 8, 34, 95
أسرارية, 37, 52
أسرة مانشو, 54
إسلام, 2
أسمائية, 47
اسمية, 47
*moralists*43 ,
*mystries*8 ,
*neologism*78 ,
*Neo-Spiritualism*72 ,
*neo-spiritualist*46 ,
*nominalism*47 ,
*non-action*43 ,
*occultists*72 ,
*Oldenberg*71 ,
*organicist*41 ,
*pacific*52 ,
*pacifist*52 ,
*Pan-Islamism*55 ,
*Philastre*35 ,
*philosophies of action*65 ,
*philosophy of becoming*42 ,
*philosophy of life*42 ,
*philosphic materialism*18 ,
*practical materialism*18 ,
*pragmatism*17 ,11 ,
*primary*30 ,
*principle of nationalities*75 ,
*progression*93 ,
*propagandists*22 ,
*pure duration*41 ,
*quietist sleep*106 ,
*religion of duty*75 ,
*religion of patriotism*75 ,
*religion of science*75 ,
*science of religions*71 ,
*scientific morals*45 ,
*scientism*63 ,
*scientistic*25 ,

إصلاح التعليم, 69
إعلام, 31, 50
إعلاميين, 22
أفالوكيتشفارا, 82
اقتصاد, 63
الأب بوفيه الجيزويتى, 33
الأتراك الشباب, 56
الأخلاقية الحديثة, 50
الأخلاقية العلمية, 45
الأخلاقية الفلسفية, 66
الإرسالية اللوثرية, 53
الأسرارية, 106
الأسرارية الزائفة, 67
الأسرارية المادية, 37
الأسكندرية, 97
الاسمية العلمية, 47
الإعلام الجماهيرى, 31
الأفلاطونية الجديدة, 100
الإنسان الكامل, 15
البروتستنتية الليبرالية, 45
التجربة الدينية, 46
التحيز الكلاسيكى, 15, 69
التركيب التراثى, 35
التركيب الهيكلى, 26
التشاؤم البوذى, 70
التطور, 11
التطور الخالق, 41, 42
التعصب العقدى, 29
التعليم الإلزامى, 30, 32
التقدم الأخلاقى, 16, 18, 49
التقدم الفكرى, 16
التقدم المادى, 12, 16, 18, 44, 54
التمثيل الخطى, 35
التوفيق بين الأديان, 72
الثورة الفرنسية, 12
الحضارة, 44, 50, 69
الحضارة الحديثة, 38, 83
الحضارة الشرقية, 15, 76
الحضارة الغربية, 5, 49, 58
الحضارة اليونانية, 15, 69
الحكمة الصينية المقدسة, 33
الحياة الباطنة, 46
الخصائص الكلية, 32
الخطر الأصفر, 52, 53
الدوائر النقابية, 22
الدوام البحت, 41
الدين الزائف, 46
الروحانية الجديدة, 72
الروحانيون الجدد, 46
السداسيات, 33
الشباب الشرقيون, 54
الشرق الأقصى, 43, 111
الصفوة الفكرية, 6, 59, 84, 86, 88, 90, 94
الصين, 33
الصين الثورية, 52
الطبيعية العملية, 28
الطوطمية, 16
العاطفية النفعية, 65
العالم المحسوس, 28, 39, 40
العقل الاستدلالى, 40
العقل المنظومى, 13, 42, 98
العقلانية العلمية", 64
العقلية العامة, 39, 47, 57, 58, 94
العلوم التراثية, 25, 35, 38, 79, 80, 82, 85, 106, 110
العلوم التطبيقية, 16, 25

الغرب القديم, 58
الفكر الحدسى, 17
الفلسفة الوضعية, 28
الفهم العام, 72
القانون الأخلاقى, 44
الكون الكلى, 40, 42, 77, 114
المؤسسة الاجتماعية, 38
المادية التاريخية, 47
المادية الفلسفية, 18
ألمانيا, 53, 56, 57, 70, 71
المبادئ الثورية, 75
المدرسة الاجتماعية, 16
المدرسيين, 83
المذهب الفيثاغورى, 35
المستشرقين الألمان, 70
المصطلحات الجديدة, 78
المعرفة التراثية, 32
المعرفة العلمية, 25, 27, 64
المعرفة الميتافيزيقية, 17, 27, 41, 65, 107, 108
الملك وين وانج, 33
المنظور الحديث, 21, 46, 58
المنظومية الفلسفية, 35
النظام الكلى, 93
النقد التاريخى, 71
الهندوس, 92
الهيمنة الغربية, 55, 57
الهيمنة المادية للغرب, 48
الوضعية المنطقية, 10
الوهم البصرى, 54
أمريكا, 17, 49
أناندا كوماراسوامى, 2
انتقائية, 99
إنجلترا, 22
آنجلو ساكسونى, 17
أنجلو ساكسونى, 46
أنجلوساكسونية, 46
إنجليز, 46, 56, 57
اندماج, 97, 99
إنسانياتية, 63
أوثان, 14, 21
أوجست كومت, 15, 24, 36
أوروبا, 11, 12, 25, 49, 52, 54, 83, 87, 106
أولدنبرج, 71
إيديوجرامات, 35
أيديولوجية, 47
إيقاع التقدم, 16, 19
إيكاجراتا, 92
إيكاجريا, 92
باريس, 33
باسكال, 14, 15
بربرية, 20, 49, 51, 58, 101
برجسون, 11, 16, 18, 22, 41, 42
بروتستنتية, 45
بروزيليتية, 20, 30, 32, 51, 58, 62, 84
بصيرة, 10, 17, 18, 28, 77
بكين, 33, 53
بلشفية, 56
بوذية, 70
بيركلى, 13
بيكون, 10, 14, 16
تأريخ, 10, 13, 14, 47, 50, 52, 55, 58, 82, 97, 102, 106
تحت العقلانية, 10
تحرر, 43
تحولية, 42

تخصصات, 27

تريستيميوس, 32

تصدير السلع, 32

تطور, 15, 19

تطورية, 42, 45

تطوريون, 42

تقدم, 10, 11, 12, 13, 14, 15, 16, 17, 18, 21, 28, 39, 44, 49, 50, 53, 61

تقسيم العمل, 27

تماثل, 32

تنمية موارد البلاد, 51

توالى, 93

تورجو, 15

توفيق الأديان, 97

ثيوزوفيين, 72

جاك بينفيل, 12, 16

جامعة العلوم, 33

جماهير, 29, 30, 31, 49, 54, 66, 67, 80, 99, 103

جنون الدعاية, 50

جوانية, 100

جورج فوكار, 16

حداثة, 45, 54, 66

حدسية, 26, 40

حدسيون, 18, 22, 41

حرب 1914, 57

حركة الثيوزوفية, 71

حرية الرأى, 22

حسى, 40, 47

حضارة, 5, 6, 10, 11, 12, 13, 15, 16, 17, 19, 21, 23, 28, 30, 32, 37, 41, 43, 49, 56, 63, 65, 69, 72, 76, 79, 82, 83, 84, 85, 91, 94, 97, 98, 100, 101, 102, 103, 112, 115

خرافة الأيديولوجية, 47

خرافة الحياة, 11

خرافة العقلانية, 11

خرافة العلم, 21, 31, 37

خلق الطلب, 28

خلق من عدم, 33, 35

دارمشتاد, 71

ديكارتية, 18

ديموقراطية, 27, 30, 36, 66

دين, 2, 21, 33, 45, 66, 70, 84, 98

دين الإنسانية, 37

دين العلم, 37, 75

دين الواجب, 75

دين الوطنية, 75

ديوسين, 70

ذرائعية, 11, 17, 43, 64

ذرائعيون, 22

ذرائعيين, 43

روح الإنكار, 24

روس, 56, 57

روسُّو, 22

روسيا, 56, 57

ريموند لول, 32

سان سيمون, 15

سُبات التسليمية, 106

سباق التسلح, 53

سبنسر, 24

سياسة, 45, 55, 63, 71, 76

شارلمان, 83, 97

شكاكون, 24, 112

شمال أفريقيا, 55

شنتوية, 53

شوبنهاور, 36, 70

صناعة الحرب, 49

صين, 2, 33, 54, 56, 102

طاوية, 53

طوباويات عاطفية, 63

عاطفى, 18, 40

عاطفية, 10, 17, 19, 22, 36, 40, 44, 48, 49, 62, 67

عصبة الأمم, 63

عقلانية, 10, 16, 22, 24, 26, 36, 39, 40, 42, 45, 47, 77, 109, 112

علم الأديان, 45, 71

علم الكون, 27

علماء, 24, 25, 45, 104

علماء الاجتماع, 27, 76

علموية, 25, 27, 28, 31, 32, 36, 44, 45, 46, 63, 112

غوغاء, 14, 30, 36

غيبية, 100

غيبين, 72

غيبيين, 72, 80

فرضية التطور, 27

فَرْنَسَةِ, 56

فكرانية, 47, 63

فكرانيين, 48

فلسفات الفعل, 65

فلسفة الحياة, 42, 71

فلسفة الفعل, 43

فلسفة المصير, 42

فو هسى, 33, 34, 69

فوائد العلم, 32

فورموزا, 54

فوريه, 12

فوضى العقلانية, 48

فولتير, 15

فوهى, 33

فيلاستر, 35

قِصَرِ نظرٍ فكرى, 27

قومية, 55

كاثوليكية, 46, 67

كانط, 24, 38, 45

كِبْلِنْج, 4

كلدانيين, 14

كوتورا, 33

كوريا, 54

كونت كيسرلنج, 71

كوندورسيه, 15

لاأدرية, 10, 24, 29

لاتينية, 12

لاعقلانيًّا, 38

لافعل, 43, 80

لاهوت, 67, 83

لايبنيتز, 32, 33, 35, 69

ليترى, 12

ليتريه, 36

مؤسسة الصفوة, 87, 88, 94

مؤسسة الطبقات, 66

مادية عملية, 18

ماكس موللر, 70, 92

مبدأ القوميات, 75

متخصصين, 6

مثقفين, 31

محاولات الهضم, 55

محمود قاسم, 42

مخاوف الإسلامية, 55

مخزن, 55
مدارس أسرارية, 58
مدرسة الحكمة, 71
مدرسيين, 82
مذهب الشك, 43
مساواة, 30, 32, 75, 76, 101, 102
مستشرقين, 35, 68, 70, 102
مسيو براك, 69
مصريين, 14
معرفة جاهلة, 23, 63
منظومية, 22, 24, 65, 78
موسوعيين, 22
ميتافيزيقا, 17, 25, 35, 38, 42, 65, 67, 77, 80, 81, 82, 84, 88, 98, 99, 106, 109, 110, 111
نظام الطبقات, 56, 84
نظرية الإيماء, 93
هارتمان, 70
هند, 56, 66, 70, 102, 110
هندو جرمانيون, 71
هندوس, 43, 56, 67, 70, 72, 78
هندوسية, 2, 71, 72, 103, 105, 111
هنرى بوانكاريه, 29
وضعية, 10, 37, 64, 112
ويليام الثانى, 52
ويليام جيمس, 41, 46
يابان, 53, 54, 106
يهودية, 56